

جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية



مركز  
الدراسات  
والبحوث

# الوسطية في الإسلام طريق لأمن المجتمعات

أ.د. شوكت محمد عليان

الرياض

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية

Naif Arab University For Security Sciences



# الوسطية في الإسلام طريق لأمن المجتمعات

أ.د. شوكت محمد عليان

الرياض

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

(٢٠١٢)، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية - الرياض -

المملكة العربية السعودية. ص. ب. ٦٨٣٠ الرياض : ١١٤٥٢  
هاتف ٢٤٦٣٤٤٤ (٩٦٦-١.) فاكس ٢٤٦٤٧١٣ (٩٦٦-١.)

البريد الإلكتروني : Src@nauss.edu.sa

**Copyright© (2012) Naif Arab University**

**for Security Sciences (NAUSS)**

**ISBN 2 - 96 - 8006- 603- 978**

P.O.Box: 6830 Riyadh 11452 Tel. (+1 966) 2463444 KSA

Fax (966 + 1) 2464713 E-mail Src@nauss.edu.sa

© (١٤٣٣هـ) جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عليان، شوكت محمد

الوسطية في الإسلام طريق لأمن المجتمعات، شوكت محمد عليان، الرياض

١٤٣٣هـ

٢٩٠ ص، ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٩٦-٢-٩٦-٨٠٠٦-٦٠٣-٩٧٨

١- الوسطية في الإسلام

أ- العنوان

١٤٣٣/٣٨٥٩

ديوي ٢١١

رقم الايداع: ١٤٣٣/٣٨٥٩

ردمك: ٩٦-٢-٩٦-٨٠٠٦-٦٠٣-٩٧٨





حقوق الطبع محفوظة لـ  
جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية

كافة الأفكار الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي  
صاحبها، ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الجامعة



## المحتويات

٣	المقدمة.....
٤	موضوع الدراسة.....
٦	أهداف الدراسة.....
٩	منهج الدراسة.....
١٠	خطة الدراسة.....
١١	الفصل التمهيدي: التعريف بمفردات عنوان البحث.....
١٣	التعريف بالوسطية.....
٣٤	التعريف بالإسلام.....
٣٨	التعريف بالانحراف عن الوسطية.....
٤٠	الغلو.....
٤٦	التطرف.....
٥٥	الفصل الأول: مجالات الوسطية.....
٦١	١.١ الوسطية في المنهج والأسلوب.....
٦٦	٢.١ الوسطية في الاعتقاد والتصوير.....
٨٦	٣.١ الوسطية في التشريع والأنظمة.....
١٤٠	٤.١ الوسطية في الأخلاق.....
١٥٩	٥.١ الوسطية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.....

١٧٥	٦.١ الوسطية في العبادات
١٩٠	٧.١ الوسطية في الولاء والبراء
١٩٧	٨.١ الوسطية في مجالات الحياة العامة
٢١٥	الفصل الثاني : ثمرات الوسطية
٢١٧	١.٢ الخصوصية والتميز
٢٢٣	٢.٢ الخيرية
٢٣٠	٣.٢ الفضل
٢٣٩	٤.٢ صور الفضل
٢٦٣	الخاتمة
٢٧٣	التوصيات
٢٧٥	المصادر والمراجع

## المقدمة

الحمد لله الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، والذي بعث رسله بالهدى، وختمهم بالمصطفى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فليس يخفى أن الله تبارك وتعالى ميز الإنسان على غيره من سائر مخلوقاته فجعله خليفة في الأرض، يستخلفها فيستثمرها وما عليها وما في باطنها وما يخرج منها، وسخر له ما في الكون للاستفادة منه في حياته الدنيا والشواهد من القرآن الكريم تؤكد لنا ذلك، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ﴾ ﴿٣٠﴾ (البقرة).

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۗ﴾ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ (ص).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿٢٠﴾﴾ (لقمان).

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴿١٣﴾﴾ (الجاثية).

وقوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ (البقرة).

وزيادة في الفضل والإحسان للإنسان أرسل الله تعالى له الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ليبينوا له رسالته على الأرض،

وليوضحوا له طريق الهدى والرشاد ، إلى العمل الصالح ومكارم الأخلاق ،  
ويسروا له ما يتلى به من امتحانات ، ويعاونوه في حل ما استعصى عليه من  
شؤون الحياة ، ويعرفون الإنسان بالسلوك الواجب اتباعه في كل المناسبات ،  
ويظهروا له قدرة الله وعلمه وحكمته تعالى ، ويؤكدوا له أن الحكمة من خلقه  
هي عبادة الله ، والعمل بمشيئته ، والامتثال لأمره ونهيه ، وتعمير الأرض .

ولم يترك سبحانه وتعالى شيئاً يهم الناس إلا أوضحه لهم وعرفهم به ،  
وقد أوضح سبحانه أن الحياة الدنيا تجربة وابتلاء وامتحان للإنسان ، ليعرف  
بها الطائع من العاصي ، المؤمن من المنافق .

ومن فضله تعالى ورحمته بعباده أن أرسل رسله الواحد تلو الآخر ،  
لتذكير الناس بأمر الله ، فيسيروا وفق الحق المبين ، وينبذوا الباطل ويتعدوا  
عنه ، ثم ختمهم بالرسالة المحمدية الجامعة ، فجاء القرآن الكريم تبياناً لكل  
شيء : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ  
دِينًا ﴾ (المائدة) .

## موضوع الدراسة

إن موضوع الدراسة هو « الوسطية في الإسلام تحقيق لأمن المجتمعات »  
وحيث إن الوسط هو الاعتدال من غير إسراف في الزيادة ولا في النقصان ،  
وليس كما قد يتبادر إلى كثير من الناس أنه الحل الوسط بين أمرين . فقد  
خص الله تبارك وتعالى أمة محمد عليه الصلاة والسلام بهذه السمة السامية :  
﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة) ، ووسط الشيء أعدله وأتمه  
وأكمله ، ومن هنا كانت أمة الإسلام أكمل الأمم وأعدلها ، فمنهج الوسطية  
ليس بمستحدث ، ثم هو ليس من صنع البشر ، فقد رسم القرآن الكريم

منهج الوسطية في عموم نواحيه، أصولاً وفروعاً، عقيدة وشريعة، خلقاً وسلوكاً، تصوراً وعملاً، وقد جاء هذا المنهج في جملة أساليب من القرآن الكريم، فتارة تصرّحاً وتارة تلميحاً، وتارة إجمالاً وتارة تفصيلاً، وتارة أمراً وتارة نهياً، إلى غير ذلك من الصور والأساليب القرآنية .

ولما كان العالم الإسلامي اليوم واقع بين الاستغراب والتقليد، الاستغراب بمعنى الأخذ بالثقافة والحضارة الغربية، دون تفرقة بين العلوم التطبيقية والأمور الحياتية كعلم النفس والأخلاق والتربية والتشريع بدعوى الأخذ بكل الثقافة ككل ودون تجزئة، وبمعنى آخر ضرورة الأخذ بالثقافة مع الحضارة المادية .

أما التقليد فإن كثيراً من المجتمعات الإسلامية، ومنها المجتمع العربي، ما زال يقع تحت ظل التقليد والجمود، ولا يساير العصر والتقدم العلمي، فيفتي بعض المتفهمين في مسائل معاصرة بمقالة بعض علماء القرن الرابع والخامس الهجري . ولسان الحال يقول: ليس في الإمكان أبدع مما كان .

إن الإسلام شعار عام لجميع الأنبياء من أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية، ويجمع القضايا كلها في قضية واحدة هي التوحيد . فالإسلام لم يشرع ديناً جديداً، إنما هو دين مشروع للأنبياء من قبل ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ﴿١٣﴾ (الشورى).

فالإسلام هو دين الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها وإنما جاء بتعديل بعض أحكام التوراة والإنجيل<sup>(١)</sup>، كحل كل الطيبات وتحريم كل

---

(١) محمد عبد الله دراز (الدين) ص ٧٥، دار القلم، الكويت، ١٩٧٤ م .

الخبائث ، وليس ذلك نقدا لما قبله ، ولا إنكارا لحكمة من حكم الله إنها هو وقوف بها في وقتها المناسب ، وأجلها المقدر من الله تعالى ، وذلك مثل طيب حدد للطفل غذاءه في الأشهر الأولى ، فجعله اللبن الخالص ، ثم جاء ذلك الطيب إلى الطفل في عامه الأول ، فجعل غذاءه بالإضافة إلى اللبن الخالص طعاما لينا خفيفا ، ثم جاءه في مرحلة الثالثة وقد بلغ أشده فأذن له بغذاء قوي كامل . وهكذا الشرائع السماوية كلها صدق وعدل في جملتها وتفصيلها ، وكلها يصدق بعضها بعضا ويكمله .

والإسلام في جميع المجالات ، عدل في سائر التعاملات ، وطريق أمثل لتحقيق أمن المجتمعات ، إذ بالعدل ولا شك تستقيم الأمور ، وتهدأ النفوس ، ويسود الأمن والأمان ، فتستقر الأحوال ، ويسعد المجتمع ، وينمو ويزدهر ، ولهذا ترامت أطراف الدولة الإسلامية في بداياتها ، لكونها أمة وسط واعتدال ، رغم قلة عددها وعدتها ، فهي لم تغلو كغلو النصارى ولم تقصر كتقصير اليهود .

## أهداف الدراسة

إن موضوع الوسطية في الإسلام تحقيق لأمن المجتمعات ولاشك ، من أخطر الموضوعات اليوم ، بل ومن أعظمها نفعاً وتأثيراً في الاعتقاد والسلوك ، وإن شئت قلت : هي موضوع الساعة ، إذ عليها يتوقف مصير الأمة الإسلامية ، فحين أخذت بمنهج التوسط والاعتدال في التصور والسلوك وتطبيق كامل للإسلام ، وفهم صحيح لمراميه ، فازت في الدارين مع قلة عددها ، وقلة عتادها فترامت أطراف دولتها يميناً ويساراً ، شرقاً وغرباً ، وحين تباعدت عن المنهج الوسط حل بها ما حل . أضف إلى ذلك جملة الأسباب التالية :

- ١ - ابتعاد الناس عن منهج الوسطية ، وتفرقهم شيعا وأحزابا ، فمنهم المشرق ومنهم المغرب ، وحتى الدعاة والمصلحون منهم ، فإن أكثرهم غال أو جاف ، حتى نشأت جماعات متطرفة في كل قطر عربي وإسلامي ، أضاعت معالم الدين ، وأصول العقيدة .
- ٢ - إن شباب اليوم يجدون في الفضائيات ، وفي الانترنت ، وفي غيرهما من وسائل الإعلام والنشر ودور الفن ونحو ذلك ، ما يحقق رغباتهم ، ويسد حاجاتهم البشرية ، ولا يجدون ذلك في الخطاب الديني والإعلامي أو المؤسسات التوجيهية والترفيهية .
- ٣ - إن الخطاب الإسلامي لدى الكثير من الدعاة وأصحاب الشأن لا يسعف ، ولا يسد الثغرات ، بل نجده أحيانا يكشف العورات .
- ٤ - إن الوعظ الديني المباشر الواقع اليوم لا يحرك الوجدان ولا يشبع الرغبة لأن القيم الجمالية التي تكمن في النصوص الشرعية ، قرآنا كان أو حديثا نبويا ، منحسرة في أسلوب الدعاة وأصحاب الشأن .
- ٥ - إن هناك تطرفا في فهم المنهجية الوسطية بل وفي فهم النصوص ، وطاعة عمياء لبعض الرموز في كثير من المجتمعات .
- ٦ - تزايد التطرف والانحراف عن التوسط والاعتدال في المجتمعات العربية والإسلامية ، حيث تأثر عدد كبير من المثقفين الإسلاميين بالحضارة الغربية متناسين الثوابت الحضارية الإسلامية .
- ٧ - إن المجتمع العربي والإسلامي مظلوم ظلما منهجيا مدروسا وعاما ومتنوعا ، والبيئة والمناخ نبتة خصبة للعصية والانحيازية والقبلية ، فمن الصعب جدا أن تنشأ في ظل الوسطية مالم يحدث تغيير في ثقافته .

٨- إن للتطرف والانحراف عن منهج الوسطية فكرا، والفكر لا يواجه إلا بمنهج قويم، وحوار بناء، ومن هنا تأتي ضرورة تقويم الخطاب الديني، أو الخطاب الوعظي الذي أخذ يتشكل ويتلون وفق رؤية كل واعظ وخطيب لا وفق الموروث الحضاري للأمة الإسلامية.

٩- عدم وجود منهج واضح تطبقه الأمة الإسلامية على أفرادها أو شعوبها أو رعاياها فإن هناك قصورا في النظرة السليمة إلى حقيقة الدين والشريعة الإسلامية<sup>(١)</sup>.

١٠- وأخيرا عدم وضوح معنى الوسطية لدى كثير من المثقفين وكذلك معيار الوسط فقد خفي على الكثير من المسلمين.

لذلك تأتي أهمية الحديث عن الوسطية في الإسلام لبيان الدور الذي تلعبه الوسطية في حياة الأفراد والشعوب والمجتمعات والدول. وبيان وإيضاح حقيقة الوسطية ومجالاتها، وما ترتب عليها من آثار على الأمة الإسلامية.

فقد ظلت الوسطية قرونا تتشكل في أفكار كثيرة، وتطبيقات متنوعة حتى مشارف العصر الحديث، وبداية الغزو الأوروبي، فانكشمت وتوارت في نفوس الناس، وبين صفحات الكتب وأروقة المساجد وحينئذ وقعت الأمة العربية الإسلامية بين تطرفين، تطرف علماني، وتطرف يتشبث بالتراث، وحتى هذا الأخير منهم الغالي، ومنهم المفرط، حتى ظهرت جماعات التكفير والهجرة والعنف والتطرف.

---

(١) ومثال على ذلك، فإن كثيرا من جامعات الأمة الإسلامية تدرس فلسفات التربية الغربية، وعلم النفس الفرويدي، وعلم الاجتماع الدوركهايمي، والأخلاق الوجودية، ونحو ذلك من النظريات الغربية التي لا تمت إلى الدين بصلة، ولا إلى الثقافة الإسلامية من قريب أو بعيد.

## منهج الدراسة

سلكت في دراستي لموضوع الوسطية في الإسلام المنهج الاستقرائي الاستردادي أو التاريخي الكشفي التحليلي الذي يعتمد على استرداد ما كان في الماضي للتحقق من مجرى الأحداث، وما ترتب على ذلك من آثار مكنت الأمة الإسلامية من الانتصارات العديدة واتساع دولتهم، وترامي أطرافها شرقاً وغرباً.

فبالرغم مما وصل إليه الإنسان من تقدم تكنولوجياي، فإن أمامه مهمة الكشف والسيطرة على قدر هائل من المعلومات الماضية، والنظريات السلوكية الحديثة للوقوف على حقيقة الوسطية ومجالاتها وما يترتب عليها في الحياة العملية من آثار.

واعتمدت في دراستي هذه على كتاب الله الكريم أولاً، ثم على سنة رسول ﷺ ثانياً، فرجعت إلى كتب التفاسير القديمة، ثم إلى كتب السنة القديمة أيضاً، وكتب السير للوقوف على المأثورات الواردة حول موضوع البحث، وأخيراً المعاجم اللغوية، ثم الكتب الحديثة التي تناولت الموضوع ما استطعت الوقوف عليه منها.

فخرجت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من مصادرها الأصلية، ثم الشواهد التاريخية من كتب التاريخ، والأحكام التشريعية من كتب الفقه والأصول، والشواهد الحديثة من الكتب الحديثة المعاصرة، وأما المعاجم اللغوية فهي المعروفة لسان العرب والقاموس المحيط بشرحه تاج العروس وغيرهما من القواميس الأخرى. أذكر اسم المؤلف أولاً، ثم اسم الكتاب والجزء والصفحة ورقم حديث إن كان من كتب الحديث الستة، وإلا

اكتفيت بذكر الصفحة والناشر ومكان النشر وسنة الطبع ، وفي القليل نجد بعض الكتب بدون تاريخ الطبعة . بل وبعضها من دون ذكر مكان الطباعة، وأداء للأمانة العلمية فقد وثقت كل نص لقائله وحين يتعذر علي أقول: نقلا عن فلان.

# الفصل التمهيدي

## التعريف بمفردات عنوان البحث



## التعريف بمفردات عنوان البحث

### التعريف بالوسطية

الوسطية نسبة إلى الوسط، وقد وردت كلمة الوسط باشتقاقات متعددة المعاني . فمن ذلك الوسط اسم لما بين طرفي الشيء ، فوسط الشيء ماله طرفان متساويا القدر ، ويقال ذلك في الكمية المتصلة كالجسم الواحد إذا قلت : وسطه صلب ، وضربته وسط رأسه ، وتأني كلمة الوسط صفة بمعنى الخيار والجود والفضل ، فأوسط الشيء أفضله وخياره .

والوسط تارة يقال فيما له طرفان مذمومان ، يقال هذا أوسطهم حسبا إذا كان واسطة قومهم ، وأرفقهم محلا ، وكالجود الذي هو بين البخل والسرف ، فيستعمل استعمال القصد المصون عن الإفراط والتفريط ، فيمدح به نحو السواء والعدل والنصفه<sup>(١)</sup> . نحو قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ١٤٣ (البقرة) وقوله سبحانه : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْمَ أَقْلَ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ ٢٨ (القلم) ، أي قال أمثلهم .

وقيل : بل أخذ الوسط من التوسط بين المقصر والمغالي ، فالحق يكون معه ، لأنه ليس بالمقصر ولا بالمغالي ومن هنا كان الوسط محمودا .

---

(١) أبو القاسم حسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المفردات في غريب القرآن) ص ٥٢٢ تحقيق محمد سيد كيلاني ، نشر دار المعرفة ، بيروت ؛ وأبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (لسان العرب) ج ٩ ص ٤٢٦ مادة وسط ، نشر دار عالم الكتب بالرياض ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م ؛ ومحمد مرتضى الزبيدي (تاج العروس من جواهر القاموس) ج ٥ ص ٣٤٠ مادة وسط . الطبعة الأميرية بمصر .

وقيل: الوسط مأخوذ من المكان الذي تعدل المسافة منه إلى أطرافه<sup>(١)</sup>.

ووردت كلمة الوُسْط بسكون السين بمعنى الظرف ، وعليه فليست باسم نقول: صليت وسَط القوم ، قال الجوهري<sup>(\*)</sup> وكل موضع صلح فيه بين فهو وسَط ، وان لم يصلح فيه بين فهو وسَط بالتحريك<sup>(٢)</sup> .

وقيل الوُسْط بالسكون يقال في الكمية المنفصلة، كشيء يفصل بين جسمين<sup>(٣)</sup> ، ويأتي بمعنى الموضع ، واصل الباب الوسط ، العدل ، وقولهم فلان من أوسطهم نسبا ، أي تكلمه الشرف من نواحيه<sup>(٤)</sup> .

ومن مشتقات الفعل وسَط بالتحديد في قراءة بعض القراء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾<sup>(٥)</sup> (العاديات) بالتحديد ، والتوسط أيضا قطع الشيء نصفين أي فتوسطن ودخلن في وسط جمع من الأعداء ، ففرقته وشتته<sup>(٥)</sup> . والتوسط بين الناس من الوساطة<sup>(٦)</sup> .

---

(١) أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (تفسير التبيان) ج ٢ ص ٦ نشر مكتبة الأمين بغداد ١٣٨٦هـ - ١٩٥٧م .

(\*) هو اسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي ، انظر مؤلفه الموسوم (الصحاح في اللغة) ج ٣ ص ١١٦٧

(٢) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (مختار الصحاح) ص ٧٢ نشر دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

(٣) الراغب الاصفهاني (المفردات في غريب القرآن) ص ٥٢٢ مرجع سابق .

(٤) أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (تفسير التبيان) ج ٢ ص ٦ مرجع سابق .

(٥) محمد جمال الدين القاسمي (محاسن التاويل) ج ١٧ ص ٢٣٤ نشر دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨ .

(٦) الرازي (مختار الصحاح) ص ٧٢٠ مرجع سابق .

وجملة القول في المعاني اللغوية أنها كلها قريبة من بعضها البعض . ترجع كلها إلى معنى العدل والخيار والأفضل ، ومن هنا كانت الأمة الإسلامية وسطا بين الأمم ، فهي خيار الأمم وأعدلها ، كيف لا وهي الشاهدة على الأمم يوم القيامة .

قال الزبيدي: الوسط محرّكة من كل شيء أعدله، يقال: شيء وسط أي بين الجيد والردىء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ﴿١٤٣﴾ (البقرة)، أي عدلا، وقال بعضهم خيارا، واللفظان مختلفان والمعنى واحد لأن العدل خير، والخير عدل<sup>(١)</sup> .

وقال سيد قطب الوسط يأتي بمعان كثيرة، منها الحسن والفضل والاعتدال والقصد والتصور والاعتقاد والتفكير والشعور والتنظيم والتنسيق، والارتباطات والعلاقات والزمان والمكان . فهو يتضمن الأمور الحسية والمعنوية<sup>(٢)</sup> .

وقال القرطبي<sup>(\*)</sup> الوسط بمعنى الأمثل والأعدل والأعقل والأعلى والخيار<sup>(٣)</sup> .

- 
- (١) محمد مرتضى الزبيدي (تاج العروس من جواهر القاموس) ج ٥ ص ٢٣٨ .  
(٢) سيد قطب (ظلال القرآن) ج ١ ص ١٣١ ، الطبعة الثانية عشرة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .  
شركة دار العلم للطباعة والنشر جده ودار الشروق للطباعة والنشر - القاهرة .  
(\*) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الانصاري، من فقهاء المالكية . له تصانيف علمية، منها تفسير القرآن الكريم (الجامع لأحكام القرآن) وله الكتاب الأسنى في أسماء الله الحسنى، والتذكار في أفضل الأذكار، والتذكرة، توفي بمصر سنة ٦٧١ هـ .  
(٣) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٦ ص ٢٧٦ و ج ١٨ ص ٢٤٤ ، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م .

وقال قتادة (١) الوسط العدل (٢).  
 وقال ابن كثير (٣) الوسط العدل والخيار (٤).  
 وإنما اقترنت الوسطية بالإسلام ، وبمعنى آخر إنما تميز الإسلام  
 بالوسطية لاعتبارات كثيرة، منها:  
 أن أمة النصارى غلت في أنبيائهم .  
 وأمة اليهود قصرت في أنبيائهم .  
 وأمة الإسلام دون الأنبياء وفوق الأمم الأخرى ، لأنها لم تغل غلو  
 النصارى ، ولم تقصر تقصير اليهود. فوصفت بأنها أمة الوسط .  
 وفيما يلي بعضاً من دلالات السنة النبوية على مضمون الوسطية:

١ - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (\*) ر قال: قال رسول الله ﷺ ( )  
 يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم ، فيدعو  
 قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما آتانا من نذير وما آتانا  
 من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول محمد وأمه ، فذلك  
 قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة)، قال:  
 الوسط العدل ، فتدعون وتشهدون له بالبلاغ وأشهد عليكم (٥).

- 
- (١) هو قتادة بن دعامة بن عكابه السدوسي ، تابعي توفي سنة ١٢٨هـ .  
 (٢) القرطبي (الجامع لاحكام القرآن) ج ٩ ، ص ٣٤ ، مرجع سابق .  
 (٣) أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي . حافظ ومؤرخ من كتبه  
 تفسير القرآن العظيم ، والبداية والنهاية ، مات بدمشق سنة ٧٧٤هـ .  
 (٤) أبو الفداء عماد الدين اسماعيل ابن كثير (تفسير القرن العظيم) ج ٤ ص ٤٠٦ ، دار  
 احياء الكتب العربية بالقاهرة ، بدون .  
 (\*) أبو سعيد الخدري : سعد بن مالك بن سنان الخزرجي ، صحابي جليل ، أول مشاهده  
 الخندق ، توفي سنة ٧٤هـ . الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ، ج ٢ ص ٤٧ .  
 (٥) عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ( الدر المنثور في التفسير المأثور ) ج ١ ص ٣٤٨  
 دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م .

٢- وفي حديث آخر عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان وأكثر من ذلك، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم. فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول محمد وأمته. فيدعى محمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون نعم. فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ﴿١٤٣﴾ (البقرة) قال: عدلا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا<sup>(١)</sup>.

٣- وأخرج الحاكم<sup>(\*)</sup> عن جابر قال: (شهد رسول الله ﷺ جنازة في بني سلمة، وكنت إلى جانبه، فقال بعضهم: والله يا رسول الله لنعم المرء كان. لقد كان عفيفا مسلما، وكان... وأثنوا عليه خيرا فقال رسول الله ﷺ: أنت الذي تقول؟ فقال: يا رسول الله ذلك بدا لنا والله أعلم بالسرائر. فقال رسول الله ﷺ: وجبت. قال: وكنا معه في جنازة رجل من بني حارثة أو من بني عبد الأشهل، فقال رجل: بس المرء ما علمنا أن كان لفظا غليظا إن كان، فقال رسول الله ﷺ: أنت الذي تقول؟ فقال: يا رسول الله، الله أعلم بالسرائر، فأما الذي بدا لنا منه فذاك، فقال: وجبت، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ﴿١٤٣﴾ (البقرة)<sup>(٢)</sup>.

(١) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ٨ ص ٢٢ تصحيح الشيخ عبد العزيز بن باز، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.  
 (\*) محمد بن عبد الله بن محمد حمدويه بن نعيم بن الحاكم النيسابوري بارع في فنون الحديث، فقيه شافعي، من كتبه (المستدرک على الصحيحين) في الحديث مات سنة ٤٠٥ هـ.  
 (٢) الحاكم النيسابوري (المستدرک على الصحيحين) دار الكتاب العربي. بيروت، بدون.

٤ - وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إذا جمع الله عباده يوم القيامة كان أول من يدعى إسرافيل، فيقول له ربه: ما فعلت في عهدي هل بلغت عهدي؟ فيقول: نعم، رب قد بلغته جبريل، فيدعى جبريل، فيقال: هل بلغك إسرافيل عهدي؟ فيقول: نعم، فيخلى عن إسرافيل ويقول لجبريل: هل بلغت عهدي؟ فيقول: نعم، قد بلغت الرسل فتدعى الرسل فيقال لهم، هل بلغكم جبريل عهدي؟ فيقولون: نعم، فيخلى جبريل، ثم يقال للرسل، هل بلغتم عهدي؟ فيقولون نعم، بلغناه الأمم، فتدعى الأمم فيقال لهم: هل بلغتكم الرسل عهدي؟ فمنهم المكذب ومنهم المصدق، فتقول الرسل إن لنا عليهم شهداء، فيقول: من؟ فيقولون: أمة محمد فتدعى أمة محمد فيقال لهم: أتشهدون أن الرسل قد بلغت الأمم؟ فيقولون: نعم، فتقول الأمم، ياربنا كيف يشهد علينا من لم يدركنا؟ فيقول الله، كيف تشهدون عليهم ولم تدركوهم؟ فيقولون: ياربنا أرسلت إلينا رسولا، وأنزلت علينا كتابا، وقصصت علينا فيه أنه قد بلغوا فنشهد بما عهدت إلينا، فيقول الرب: صدقوا، فذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴿١٤٣﴾ (البقرة) والوسط العدل: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾ (البقرة) (١).

٥ - عن عبد الله بن معاوية الغاضري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان: من عبد الله وحده، وعلم أنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه، رافدة عليه كل عام، ولم يعط الهرمة، ولا الدرنة، ولا المريضة، ولا الشرط اللثيمة، ولكن من وسط أموالكم، فإن الله لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشره» (٢).

(١) السيوطي ( الدر المنثور في التفسير المأثور ) ج ١ ص ٣٥١، ٣٥٢ .  
(٢) أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ( سنن أبي داود ) ج ٢ ص ١٠٣ حديث رقم ١٥٨٢ .

والوسط هنا ما بين أجود الغنم وبين السيئ والمعيب ، وهو مثل قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ ﴿٨٩﴾ (المائدة).

٦ - عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فخط خطا وخط خطين عن يمينه ، وخط خطين عن يساره ، ثم وضع يده على الخط الأوسط ، فقال: « هذه سبيل الله » ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ ﴿١٥٣﴾ (المائدة) (\*).

٧ - وقال صلى الله عليه وسلم: « إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، أو أعلى الجنة »<sup>(١)</sup> .

قال الحافظ ابن حجر<sup>(٢)</sup>: قوله: « أوسط الجنة أو أعلى الجنة » المراد بالأوسط هنا: الأعدل والأفضل ، كقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ﴿١٤٣﴾ (البقرة) (\*\*).

٨ - وقال صلى الله عليه وسلم: « البركة تنزل وسط الطعام ، فكلوا من حافتيه ولا تأكلوا من وسطه »<sup>(٣)</sup> . والوسط هنا: نقطة الالتقاء بين أطراف متساوية .

٩ - وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خط خطا مربعا ،

---

(\*) انظر الحديث : الدارمي (سنن الدارمي) ج ١ ص ٧٨ حديث رقم ٢٠٢

(١) البخاري (الجامع الصحيح) ج ٣ ص ٢٠٢ حديث رقم ٢٧٩٠ .

(٢) ابن حجر أحمد بن علي بن محمد . من أئمة العلم والتاريخ . من عسقلان بفلسطين . من تصانيفه: فتح الباري شرح صحصح البخاري ، والدرر الكامنة . وتهذيب التهذيب . توفي بالقاهرة سنة ٨٥٢هـ .

(\*\*) ابن حجر (فتح الباري شرح صحيح البخاري) ج ٦ ص ١٣ مرجع سابق .

(٣) الترمذي (الجامع الصحيح) ج ٤ ص ٢٢٩ حديث رقم ١٨٠٥ مرجع سابق .

والدارمي (سنن الدارمي) ج ٢ ص ١٣٧ حديث رقم ٢٠٤٦ مرجع سابق .

وخط وسط الخط المربع ، وخطوطا إلى جانب الخط الذي وسط  
الخط المربع ، وخطا خارجا من الخط المربع ، فقال: «أتدرون ما هذا  
؟ قالوا: الله ورسوله أعلم ، قال: هذا الإنسان الخط الأوسط، وهذه  
الخطوط إلى جانبه الأعراض تنهشه»<sup>(١)</sup> .

والوسط هنا: هو ما كان بين عدة أطراف والمسافة بينه وبين كل  
طرف متساوية .

١٠- وقال ﷺ: « وسطوا الإمام وسدوا الخلل »<sup>(٢)</sup> . أي اجعلوه  
وسط الصف - في منتصفه - من أمامه ، بحيث يكون طرفا الصف  
متساويين بالنسبة لموقف الإمام .

١١- وقال ﷺ: « أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان  
محقا وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا ، وبيت  
في أعلى الجنة لمن حسن خلقه »<sup>(٣)</sup> .  
والوسط هنا ما كان بين الربض والأعلى .

١٢- وقال ﷺ: « لأن أمشي على جمره أو سيف أو أخصف نعلي برجلي  
أحب إلي من أن أمشي على قبر مسلم ، وما أبالي أوسط القبر قضيت  
حاجتي أو وسط السوق »<sup>(٤)</sup> .

١٣- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ ، فخط  
خطا هكذا أمامه فقال: هذا سبيل الله عز وجل ، وخط خطا عن

- 
- (١) البخاري (الجامع الصحيح) ج٧ ص ١٧١ .  
(٢) أبو داود (سنن أبي داود) ج١ ص ١٨٢ حديث ٦٨١ مرجع سابق .  
(٣) أبو داود (سنن أبي داود) ج٤ ص ٢٥٣ حديث ٤٨٠٠ مرجع سابق .  
(٤) محمد ناصر الدين الألباني (إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل) ج١ ص  
١٠٢ حديث رقم ٦٣ . المكتب الإسلامي ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م بيروت ودمشق .

يمينه، وخط خطأ عن شماله، وقال: هذه سبيل الشيطان، ثم وضع يده في الخط الأوسط، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥٣) (١).

والقصد والاعتدال من الألفاظ الدالة على معنى الوسطية.

١٤- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَنْ يَنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ، سَدَدُوا وَقَارِبُوا وَاعْدُوا وَرُوحُوا وَشَيْءٌ مِنَ الدَّلْجَةِ وَالْقَصْدِ الْقَصْدُ تَبْلُغُوا) (٢).

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله في شرح معنى (القصد): أي الزموا الطريق الوسط المعتدل (٣).

١٥- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الدِّينَ يَسِرُ وَلَنْ يَشَادَ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدَدُوا وَقَارِبُوا وَابْشُرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرُّوحَةِ وَشَيْءٌ مِنَ الدَّلْجَةِ) (٤).

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني - رحمه الله :-

(والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب قال ابن المنير: في هذا الحديث علم من اعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل تنطع في الدين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة، فإنه من الأمور المحمودة، بل

(١) وانظر الحديث: الدارمي (سنن الدارمي) ج ١ ص ٧٨ حديث رقم ٢٠٢ مرجع سابق.

(٢) البخاري (صحيح البخاري) ج ٨ ص ١٢٢ مرجع سابق.

(٣) ابن حجر (فتح الباري شرح صحيح البخاري) ج ١ ص ٢٢٨ مرجع سابق.

(٤) البخاري (صحيح البخاري) ج ١ ص ١٦ مرجع سابق.

منع الإفراط المؤدي إلى الملل أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل أو إخراج الفرض عن وقته ، كمن بات يصلي الليل كله فنام عن صلاة الصبح في الجماعة، أو إلى أن خرج الوقت المختار، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة ... وقد يستفاد من هذا الإشارة إلى الأخذ بالرخصة الشرعية فإن الأخذ بالعزيمة في موضع الرخصة تنطع كمن يترك التيمم عند العجز عن استعمال الماء فيفضي به استعماله إلى حصول الضرر) . وقوله (فسددوا) أي الزموا السداد، وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط ، فالسداد التوسط في العمل<sup>(١)</sup> . والقصد من القول والعمل<sup>(٢)</sup> .

١٦ - عن المقدم بن معد يكرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ (ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه<sup>(٣)</sup> ) .

١٧ - عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ ( يا عبدالله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ فقلت: بلى، يا رسول الله قال: ( فلا تفعل ، صم وأفطر ، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لزورك عليك حقا ، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله ) فشددت فشدد علي ، قلت: يا رسول الله إني أجد قوة ، قال: ( فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ، ولا تزدد عليه ) قلت:

---

(١) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١ ص ٩٤ مرجع سابق.  
(٢) الرازي (مختار الصحاح) ص ٢٩١ مرجع سابق.  
(٣) الحاكم النيسابوري (المستدرک علی الصحیحین) ج ٤ ص ١٢١ مرجع سابق .

وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام؟ قال: نصف الدهر (١).  
وبذلك يتقرر توافق معاني الوسطية في الكتاب والسنة والتي تحدد  
بمجمليها أبعادا ثلاثة لهرم الوسطية هي: (العدل) و(القصد) و(الأفضل)  
الذي يعلو قمة معانيها .

وبعد فتلك هي مدلولات الوسطية وفق ما جاء عن فقهاء اللغة  
العربية، والسنة النبوية ، وفقهاء الشريعة الإسلامية ، ومنه يتضح أنها جميعها  
متقاربة المعنى ، بل تكاد أن تكون متحدة المعنى ، غير أن هناك زيادة في بعض  
المدلولات عند البعض من العلماء لا سيما المفسرون منهم ، وهو معنى يتسع  
ليشمل كل خصلة محمودة . فتلخص من هذا كله أن:

- ١ - الوسط اسم لما بين طرفين .
- ٢ - الوسط يعني وسطية المكان .
- ٣ - الوسط يعني وسطية الزمان .
- ٤ - الوسط يعني وسطية الجهات والمقادير والمعاني .
- ٥ - الوسط يعني التجاوز للشيئين والتوسط بينهما .
- ٦ - الوسط يعني أنه أعدل الطرفين .
- ٧ - الوسط يعني العدل والخيار والأفضل ، والأمثل .
- ٨ - الوسط يعني التوسط بين خصمين .
- ٩ - الوسط يعني الحسب والشرف .
- ١٠ - الوسط محركة ما بين طرفي الشيء كمركز الدائرة . وبسكون السين  
اسم مبهم لداخل الدائرة .

ومما أود الإشارة إليه أن الوسطية لا ينبغي حصرها في الوسط المادي،  
وتفسيرها تفسيراً مادياً فقط ، باعتبارها موقفاً بين طرفين ، أو درجة بين  
(١) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ٤ ص ٢١٧ ، حديث رقم  
١٩٧٥ مرجع سابق .

الأعلى والأدنى ، ولكن يظهر مفهوم الوسطية بما هو أعم من ذلك وأشمل ، وذلك وفق النصوص التي ذكرنا طرفاً منها ، فهي تشمل جميع جوانب الحياة وجميع جوانب التشريع والتنظيم والعبادات والمعاملات والعدل في سائر التصرفات ، والتوازن في كل المجربات ، كما تعني الوسطية الخيرية والفضل ، وحسن السلوك والأخلاق ، والأدب ، وفي مقدمة ذلك كله الاعتقاد الذي هو الإيمان بالله تعالى ، وهذه الشمولية في مفهوم الوسطية تسهم ولا شك في بيان مجالات تطبيقاتها المتعددة في الأمة الإسلامية ، هي وسطية عقيدتها وعباداتها ومعاملاتها وسائر التصرفات ، وذلك اتساقاً مع وصف الله تعالى لها بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ﴿١٤٣﴾ (البقرة) ، ولأنها أمة الخير التي وصفها الله تعالى أيضاً بقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ﴿١١٠﴾ (آل عمران) .

وعلى ذلك فلم يبق معنى الوسطية مجرد التجاوز بين الشئيين فقط ، بل أصبح ذا مدلول أعظم ، ألا وهو البحث عن الحقيقة ، يمينا أو يسارا ، شمالا أو جنوبا ، وتحصيلها والاستفادة منها ، فنأخذ بحقائق اليمين ، وحقائق اليسار . وخير الشمال ، وخير الجنوب ، وتحصيلها والاستفادة منها ، وهذا معنى قوله تعالى: يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴿٣٥﴾ (النور) ، قال ابن عباس (\*) وغيره الشرقية التي تصيبها الشمس إذا أشرقت ، أي لا شرقية تقع عليها الشمس وقت الشروق فقط ، ولا غربية تقع عليها عند الغروب فقط ولا تصيبها في الغداة ، بل في مكان عليها الشمس مشرقة

---

(\*) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ؟ شهد ابن عباس مع علي رضي الله عنها وقعة الجمل وصفين والنهروان . وشهد الحسن والحسين ومحمد بنوه ، مات بالطائف سنة ٦٨ هـ .  
الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ، ج ٣ ص ٩٣٣ .

من أول طلوعها إلى آخر غروبها . كصحراء أو رأس جبل (١) .

أي أنها شجرة في صحراء ومنكشف من الأرض لا يوارىها عن الشمس شيء، بل تصيبها الشمس أعدل إصابة، فليست خالصة للشرق فتسمى شرقية، ولا للغرب فتسمى غربية، بل هي شرقية غربية (٢) فالوسطية ليست بالطرف المغالي، ولا هي بالطرف المقصر، بل هي الأخذ بمحاسن المغالي ومحاسن المقصر، وترك المساوىئ والردائل لكل منهما، والتفوق عليهما في جميع المحاسن ونبد المساوىئ . وهو معنى يتصل بكل خصلة محمودة، فإن لها طرفين مذمومين، فإن السخاء وسط بين البخل والتبذير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والإنسان مأمور أن يتجنب كل وصف مذموم (٣) .

فوسطية الإسلام بهذا الذي ذكرناه تعني جملة المحاسن والفضائل والعادات والتقاليد التي جرت عليها سنة الله في خلقه، وأبقاها الله وشرعها على لسان الرسول ﷺ لعموم الخلائق، فهذا هو الحق، وهذه هي الحقيقة التي لا يتعارض فيها النقل والعقل البتة، بل يتصادقان ويتوافقان .

وبناء على ذلك يتقرر لدينا أن الصراط المستقيم هو طريق الوسطية، وأن فاتحة الكتاب، أو أم الكتاب، أو السبع المثاني هي دعامة الوسطية، وهي المؤشر الوحيد للوسطية، وهي الخصوصية التي اختص الله تعالى بها أمة الإسلام، انظر إلى قول الحق تبارك وتعالى بعد الحمد والثناء، وتوحيد الله والتبرؤ من الشرك، ومن الحول والقوة، والتفويض إلى الله عز وجل .

(١) القاسمي (محاسن التأويل) ج ١٢ ص ٢٠٩ مرجع سابق .

(٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي (الجامع لاحكام القرآن) ج ١٢ ص ١٧١ مرجع سابق .

(٣) أبو السعادات المبارك محمد ابن الاثير (النهاية في غريب الحديث) ج ٥ ص ١٨٤، نشر دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، بدون تاريخ .

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ (الفاتحة) أي أهدنا الطريق الهادي ، وأرشدنا إليه ، ووفقنا له ، والهدي من الفعل هدى ، يقال هداه الله للدين يهديه هدى ، ومنه قوله تعالى: أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ (السجدة) أي أولم يبين لهم ، وهديته الطريق والبيت هداية عرفته وأصل الهداية في اللغة الدلالة على طريق الرشده<sup>(١)</sup> .

وقد ورد هدى في الكتاب العزيز على ثلاثة أوجه:

أ - معدى بنفسه ، كقوله جل شأنه: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ (الفاتحة) وقوله سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ﴿١٠﴾ (البلد).

ب - ومعدى باللام ، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ ﴿٤٣﴾ (الأعراف)، وقوله عز وجل: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ ﴿٣٥﴾ (يونس).

ج - ومعدى بلى ، كقوله تعالى: ﴿وَأَهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ ﴿٢٢﴾ (ص).

ومن مشتقات الكلمة (الهدي) وهو ما يهدي إلى الحرم من نعم ، والهدية ما يتهادى بها الناس ، ويقال: ما أحسن هديته بكسر الهاء وفتحها<sup>(٢)</sup>. قال الراغب الأصفهاني وهداية الله تعالى للإنسان تأتي على أربعة أوجه:

الأول: الهداية التي عم الله تعالى بجنسها كل مكلف من العقل والفتنة والمعارف الضرورية التي أعم منها كل شيء بقدر فيه حسب احتمالها.

(١) الرازي (مختار الصحاح) ص ٦٩٢ مرجع سابق .

(٢) الرازي (مختار الصحاح) ص ٦٨٢ مرجع سابق، ومحمد السيد عميم الإحسان (التعريفات الفقهية) ص ٥٥١ طبعة الهند بدون تاريخ وناشر .

كما قال: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ﴿٥٠﴾ (طه).

الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على السنة الأنبياء ، وإنزال القرآن ونحو ذلك ، وهو المقصود بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ ﴿٢٤﴾ (السجدة) .

الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى، وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ ﴿١٧﴾ (محمد). وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ ﴿١١﴾ (التغابن).

الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة ، وهي المعنى بقوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِهِمْ﴾ ﴿٥﴾ (محمد) .

وهذه الهدايات الأربع كما يقول الأصفهاني<sup>(١)</sup> مترتبة ، فإن من لم تحصل له الأولى ، لا تحصل له الثانية ، بل لا يصح تكليفه ، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة ، ومن حصل له الرابعة فقد حصل له الثالثة والتي قبلها ، ومن حصل له الثالثة فقد حصل له اللتان قبلها ، ثم ينعكس فقد تحصل الأولى ولا تحصل له الثانية ، ولا تحصل له الثالثة<sup>(٢)</sup> .

والإنسان لا يقدر أن يهدي أحدا إلا بالدعاء ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٥٢﴾ (الشورى)، وقوله تعالى: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾

(١) الراغب الاصفهاني (المفردات في غريب القرآن) ص ٥٣٨ مرجع سابق .

(٢) الراغب الاصفهاني (المفردات في غريب القرآن) ص ٥٣٨ مرجع سابق .

﴿٧٣﴾ (الأنبياء)، وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ﴿٧﴾ (الرعد) أي داع .  
والى سائر الهدايات أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ  
أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿٥٦﴾ (القصص).

هذا عن مفهوم الهداية ، فما هو الشيء الذي يطلبه الإنسان من الله وراء  
هذه الهداية ؟ إنه الصراط المستقيم ، إنه المطلوب والمبتغى من العبد المؤمن ،  
فما حقيقة هذا الصراط المستقيم ؟ تعددت عبارات المفسرين في مدلول  
الصراط المستقيم .

فبعضهم حملها على كتاب الله أو اتباع كتاب الله تعالى . وبعضهم  
حمله على الإسلام . وثالث يقول: هو أهل السنة والجماعة . ورابع يقول:  
هو طريق العبودية ، أو طريق الخوف والرضا والحب . وامثال المأمور ،  
واجتناب المحظور ، أو متابعة الكتاب والسنة أو العمل بطاعة الله<sup>(١)</sup> .

وأصل الصراط المستقيم الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ولا  
انحراف ، ويستعار لكل قول أو عمل يبلغ به صاحبه الغاية الحميدة .  
فالطريق الواضح للحس ، كالحق للعقل ، في أنه إذا سير بهما أبلغنا  
السالك النهاية الحسنى .

يقول الطوسي<sup>(\*)</sup>: الصراط المستقيم هو الدين الحق الذي أمر الله به من  
توحيده وعدله وولاية من أوجب طاعته<sup>(٢)</sup> .

وقيل: إنه كتاب الله.

---

(١) القاسمي (محاسن التأويل) ج ٢ ص ٢٠ مرجع سابق .  
(\* أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي من شيوخ الطائفة الشيعية الإمامية ، له مصنفات  
علمية، منها التبيان في تفسير القرآن عشرة مجلدات عاش ما بين ٣٨٥هـ - ٤٦٠هـ .  
(٢) الطوسي (التبيان في تفسير القرآن) ج ١ ص ٤١ .

وقيل: إنه الإسلام .

وقيل: إنه دين الله عز وجل الذي لا يقبل من العباد غيره .

والأولى حمل الآية على العموم ، لأننا إذا حملناها على العموم دخل فيه جميع ذلك وغيره ، وعليه فالتخصيص حينئذ لا معنى له .

وعن ابن عباس <sup>(١)</sup> رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ (الفاتحة) يقول: ألهمنا دينك الحق <sup>(٢)</sup> .

وعن جابر بن عبد الله في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ (الفاتحة) قال: هو الإسلام <sup>(٣)</sup> .

وروى الحاكم <sup>(٤)</sup> وأحمد <sup>(\*)</sup> والبيهقي <sup>(\*\*)</sup> وعن النواس بن سمعان <sup>(\*\*\*)</sup> عن رسول الله ﷺ قال: « ضرب الله صراطا مستقيما، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا، ولا تتفرقوا وداع يدعو من

---

(١) سبق ترجمته .

(٢) السيوطي (الدر المنثور في التفسير المأثور) ج ١ ص ٣٨ مرجع سابق .

(٣) السيوطي (الدر المنثور في التفسير المأثور) ج ١ ص ٣٨ مرجع سابق .

(٤) الحاكم النيسابوري سبق ترجمته .

(\*) أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي البغدادي ، إمام في الحديث والفقه ، مات سنة ٢٤١ هـ ، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩١ .

(\*\*) أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ، إمام في الحديث من مصنفاته : السنن الكبرى ، والأسماء والصفات ، مات سنة ٤٥٨ هـ - طبقات الشافعية ج ١ ص ١٩٨ للآسنوي .

(\*\*\*) النواس بن سمعان بن خالد بن عبد الله بن ربيعة الكلبي . صحابي ، سكن الشام . الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ج ٤ ص ١٥٣٤ .

فوق: الصراط ، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك، لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق واعظ الله تعالى في قلب كل مسلم»<sup>(١)</sup>.

وعن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتن ، قلت: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل وليس بالهزل، وهو حبل الله المتين، وهو ذكره الحكيم، وهو الصراط المستقيم»<sup>(٢)</sup> أي الطريق الذي لا اعوجاج فيه.

فالاستقامة هي الدوام على هدى الله، والاستمرار في التقيد بقيوده والوقوف عند حدوده، والاستجابة لأوامره، والانتهاز عن محارمه، وبالجملة فهي التي تجعل صاحبها على الدوام يحاسب نفسه، ويراقب ربه، ويعمر سلوكه وتصرفه بخلوص النية لله، وصدق التوجه إليه تعالى، فتكون استقامته نوراً يسعى بين يديه، فيهديه الطريق المستقيم، فلا يجور على أحد، ولا يهضم حقاً لأحد، ولا يأكل ما لا باطل، وأنه يلتزم بالواجبات ويتقيد بالحدود، ومن كان كذلك فلا يقع منه محذور، وأحب لغيره ما يحب لنفسه.

إن وصف الصراط بالاستقامة يجعلنا في مواجهة الوسطية فيما يهديننا إليه السياق القرآني في استخدامه للجذر اللغوي (ق و م) وما يشتق منه من مفردات، وما يتفرع عليه من معان، فقد وردت آيات كريات كثيرة تشير

---

(١) السيوطي ( الدر المنثور في التفسير المأثور) ج ١ ص ٣٩ مرجع سابق .

(٢) السيوطي ( الدر المنثور في التفسير المأثور) ج ١ ص ٣٩ مرجع سابق .

والحاكم النيسابوري ( المستدرک علی الصحیحین) ج ١ ص ٧٣ مرجع سابق ،  
والترمذي (الجامع الصحيح) ج ٥ ص ١٣٣ حديث رقم ٢٨٥٩ مرجع سابق .

إلى معنى الوسطية في هذه الكلمة ( قوم ) ومشتقاتها، نورد طرفا منها فيما يلي:

١ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ ﴿٦٧﴾ (الفرقان) كلمة قواما تعني الطريق الوسط بين طرفين:

- الإسراف: تطرف أول .

- والتقتير تطرف ثان .

وفي هذا المعنى يقول النسفي (\*) في تفسيره لهذه الآية الكريمة ، كان إنفاقهم أي المؤمنين بين ذلك، أي بين الإسراف والإقتار ، قواما أي عدلا بينهما ، فالقوام العدل بين الشئيين، وبمثل ذلك أمر عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ ﴿٢٩﴾ (الإسراء).

٢ - وفي قوله تعالى ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٦١﴾ (الأنعام)، فهذه الآية الكريمة تشير إلى الترغيب في الوسطية والعدالة والاستقامة، وتحذر في الوقت ذاته من التطرف بكافة صوره.

٣ - في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ ﴿١﴾ قِيَمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ ﴿٢﴾ (الكهف)، فالآية الكريمة تصف كتاب الله بأنه قيم معتدل لا اعوجاج فيه .

٤ - في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا

---

(\*) أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي .

عَلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ (الملك)، فهذه الآية الكريمة تصف الذي يتخبط في طريقه على وجهه بعيدا عن الطريق السوي المستقيم.

ومن جملة ما ذكرنا يتقرر أنه من سياق الوصف القرآني للصراط بالاستقامة، يعني أن هذا الطريق هو طريق القصد والاعتدال، وبعبارة أخرى يمكن القول انه طريق الوسط الذي يتعد عن التطرف بكافة صورته. ويعجبني في هذا المقام قول الجرجاني (\*) في تعريف الاستقامة بأنها ملازمة الصراط المستقيم بمراعاة الحد الأوسط في كل الأمور، في الطعام والشراب واللباس، وفي كل أمر ديني ودنيوي، فذلك هو الصراط المستقيم، كالصراط المستقيم في الآخرة<sup>(١)</sup>، ولذلك قال النبي ﷺ: «شيتني هود وأخواتها» إذ أنزل فيها: ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ﴾ ﴿١١٢﴾ (هود)، ويقول القرطبي (الخطاب هنا للرسول ﷺ ولغيره كما يفسر الاستقامة بأنها (الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال، فاستقم على امثال أمر الله)<sup>(٢)</sup>.

ومن فوائد مشتقات مادة (ق و م) أنها تؤكد المصدر الواحد للديانات السماوية فقد جاءت الكلمة في كثير من الآيات تشير إلى ذلك، ومنها: قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ ﴿١١٣﴾ (آل عمران)، واليهود والنصارى على سبيل المثال من أهل الكتاب. قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ ﴿٩﴾ (الإسراء)، فهي تشير إلى الإسلام.

وقوله جل شأنه: ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (\*) الجرجاني علي بن محمد بن علي السيد الزين الجرجاني. توفي سنة ٨١٦ هـ.  
(١) الجرجاني (التعريفات) ص ٥٣ مطبعة الحلبي بمصر ١٣٥٧.  
(٢) القرطبي (الجامع لاحكام القرآن) ج ٩ ص ٧١ مرجع سابق.

﴿١٠٥﴾ (يونس) وقوله جل شأنه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ ﴿٣٠﴾ (الروم).

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ (آل عمران).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ ﴿٩٥﴾ (آل عمران).

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ ﴿١٢٥﴾ (النساء).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ ﴿١٦١﴾ (الأنعام).

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة ، فكلها تشير إلى طريق العدالة والاستواء الذي يبدأ من دين الحنفية كما بشر بها إبراهيم عليه السلام ، وينتهي إلى دين الإسلام الذي جدد الحنفية بعد أن درست وانحرف بها بعض أهل الكتاب من الأمم السابقة عن الطريق القيم والذي أكده رسول الله ﷺ فيما أنزل عليه من القرآن الكريم ، والذي حارب فيه كل صور الانحراف والتطرف والاعوجاج ، سواء عند اليهود أو عند النصارى ، أو عند المسلمين .

ومن مجموع ما تقدم سواء في التحليلات اللغوية ، أو في السياق القرآني ، أو في أقوال المفسرين ، نعلم يقينا أن الصراط المستقيم هو طريق الوسطية ، بل هو دعامة الوسطية ، وفي كل جانب من جوانب الحياة ، دينية أو دنيوية ، وأنه لا ينبغي حصرها في الوسطية الدينية ، فهي وسطية عامة في الاعتقاد

والتصور الإنساني للكون وللحياة ، وفي العبادات ، وفي المعاملات والسلوك والاخلاق والآداب ، وغير ذلك من سائر جوانب الحياة، فالوسطية هي الأعدل والأمثل والأخير والأفضل في كل ذلك ، والانحراف عنها تطرف وغلو وبعد عن الحقيقة .

## التعريف بالإسلام

إذارجعنا إلى قواميس اللغة العربية نجد أن من معاني مادة (س ل م)<sup>(١)</sup> السلام والمسالمة ، والانقياد والطاعة والاستسلام والإذعان والأمان والإخلاص، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ ﴿٢٠﴾ (آل عمران)، أي فقل أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له ولا ند له ، ولا ولد له ، ولا صاحبة له ، وقوله جل شأنه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ﴿٦٣﴾ (الفرقان) ، وربما كان هذا السبب في تسمية العهد الذي قبل محمد ﷺ عهد الجاهلية ، وعهده ﷺ عهد الإسلام، علما بأنه ليس المراد بالجاهلية الجهل الذي هو ضد العلم ، بل إنها لحق بتلك المجتمعات وصف الجاهلية لما تأصل في نفوسهم من السفه والغضب والأنفة والمفاخرة، وهي أمور كانت سائدة في حياة العرب قبل الإسلام .

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسَلَّمْ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٣﴾ (آل عمران)، فكل من في السموات والأرض مسلم بهذا المعنى، أي خاضع لأمر الله ، مطيع لما شرعه الله من أنظمة وقوانين في هذا العالم .

وقد اشتهرت الكلمة - في عرف الناس - على من أسلم وجهه لله

(١) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج٨، ص ٣٤٠، مرجع سابق.

طوعاً، فكان المسلم هو الذي رضي بإطاعة الله تعالى، فاجتمعت له الطاعة الطبيعية والطاعة بالإرادة .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ﴾ ﴿٣٠﴾ (الروم) وبهذا المعنى تطلق كلمة مسلم على كل من خضع لله وأطاع أي نبي من الأنبياء ، فأتباع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد مسلمون ، قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلِيٌّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ (النمل).

وقوله سبحانه: ﴿وَوَصَّيْ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾ (البقرة).

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ (آل عمران).

ثم خصت في الاستعمال بالدين الذي أتى به محمد ﷺ ، وبهذا المعنى ورد قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ﴿٣﴾ (المائدة)، وقوله جل شأنه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ﴿٨٥﴾ (آل عمران)، فهذا الإسلام عماده الخضوع لله تعالى والانقياد له .

وأصل الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج بيت الله لمن استطاع إليه سبيلاً .

ففي الحديث عن (عمر بن الخطاب) (\*) رضي الله عنه قال: « بيننا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ... » (١) .

والإسلام له في الشرع اطلاقان:

- يطلق على الأعمال الظاهرة كما في هذا الحديث .

- ويطلق ويراد به الاستسلام والانقياد .

والتلازم بينه وبين الإيمان اعتبارا لما صدق شرعاً ، إنما هو باعتبار المعنى الثاني ، وأما باعتبار المعنى الأول فالإيمان ينفك عنه ، إذ قد يوجد التصديق والاستسلام الباطني بدون الأعمال المشروعة ، أما الإسلام بمعنى الأعمال المشروعة فلا يمكن أن ينفك عنه الإيمان لاشتراطه لصحتها وهي لا تشترط لصحته (٢) .

---

(\*) عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن عدي بن كعب القرشي ، ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة ، شهد بدرًا وبيعة الرضوان تولى الخلافة بعد أبي بكر فتح الله له الشام والعراق ومصر ، أول من أرخ التاريخ الهجري وأول من سمي بأمر المؤمنين ، وأول من اتخذ الدرّة . ( الاستيعاب في معرفة الأصحاب ) ج ٣ ص ١١٤٤ .

(١) انظر الحديث كاملا في دليل الفالحين ج ١ ص ٢١٧ وغيره من كتب الحديث .

(٢) انظر محمد بن علان ( دليل الفالحين ) ج ١ ص ٢١٩ دار الفكر بيروت .

وبعد: فهذا هو الإسلام الدين السماوي ، أنزله الله للناس رب الناس ، لم يتغير ولم يتبدل ، لأن الله تعالى تكفل بحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿٩﴾ (الحجر) ، فهو محفوظ في السطور وفي الصدور ورغم تطاول الأيام عليه وتصارع المدنيات حوله لم يدخله تحريف أو تغيير ، أما الذين تغيروا وتبدلوا ، وباعدتهم حاضرهم عن أمسهم ، فهم الذين أضاعوا القرآن وضلوا سواء السبيل ، إنهم المسلمون أتباع ذلك الدين القيم ، فهل يعود المسلمون إلى قرآنهم كما تنزل من السماء ويتدارسونه كمبدأ وعقيدة تقف وجهاً لوجه مع الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية وسواها من مبتكرات العقل البشري ، وأن يلم المسلمون بجوهره وروحه ، ويتفهموه جيداً ليتسنى لنا نحن المسلمين أن ننفي عنه ما شابهه من تلوث أفكار المغرضين ، وأن ننزه وجهه الكريم من الكلف المفتعل ، خصوصاً بعد أن استغل هذا الدين أعداؤه ، واتهموه بما ليس فيه ، وفي الوقت نفسه نسيه أبناؤه وقبل أن أنهى الحديث عن التعريف بالإسلام أود أن أذكر من الماضي مثلاً واحداً على سبق القرآن الكريم لكل مدنيات العصر الحاضر الذي يتفاخر به الغربيون ، ومن هنا نحوهم من إسلاميين وغير إسلاميين ، الرسول ﷺ الذي نقل إلينا القرآن الكريم عن رب العزة والجلال بواسطة الوحي المنزل من عند الله تعالى كان أول واضح ومقرر لحقوق الإنسان ، حيث قرر أن الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فرق بين هذا وذاك ، فهم جميعاً متساوون في الحقوق ، وتجيء الثورة الفرنسية بعد اثني عشر قرناً من الزمان لتقرر حقوق الإنسان في وثيقة الاستقلال عام ١٧٧٦ م وتدعي فرنسا أن لها الفضل في تقرير حقوق الإنسان ، فأين العقلاء المنصفون فيكشفون للعالم سبق الإسلام لكل مدنيات الغرب وغير الغرب التي هي من مبتكرات الإنسان ، ويظهر أنه على حقيقته عذباً صافياً كما تنزل ، يحترم كل الأديان ، أتباعه وغير أتباعه ، وبكل محبة وتقدير ، إنه الإسلام دين السلام لكافة البشر .

## التعريف بالانحراف عن الوسطية

### تمهيد

عرفنا فيما سبق معنى الوسط أو الوسطية ، وانتهينا إلى أن الوسطية تعني الطريق المعتدل المستقيم ، إذ هو المعنى المتعارف عليه في كل ما ورد من مشتقات كلمة ( وسط ) من اعتدال واستقامة وأفضلية وخيرية ونحو ذلك من فضائل الصفات ، وكرائم الأخلاق .

وفي هذا المقام نعرض لبيان مفهوم الانحراف عن الوسطية ، مع ذكر أهم صور الانحراف وبيان أثر ذلك على السلوك الإنساني .

فنقول وبالله التوفيق:

الانحراف في لغة العرب مشتق من الفعل (حرف) وحرف الشيء طرفه، وجمعه أحرف وحروف ، يقال حرف السيف ، وحرف السفينة ، وحرف الجبل ، وحروف الهجاء أطراف الكلمة .

والحروف العوامل في النحو أطراف الكلمات الرابطة بعضها ببعض ، وتحريف الشيء إمالته ، وتحريف الكلام عن مواضعه تغييره وتبديله<sup>(١)</sup> ، ومنه قوله تعالى: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴿١٣﴾ (المائدة).

والانحراف سلوك إنساني قديم ، لا يختص بالمسلمين كما قد تبادر إلى الكثير من الناس ، حيث ينصرف الذهن إلى تلك الحركات الدينية الغالية المتطرفة التي أساءت إلى الإسلام أكثر مما أساءت إلى غيره ، والانحراف

---

(١) الرازي (مختار الصحاح) ص ١٣١ مادة حرف، والأصفهاني (المفردات في غريب القرآن) ص ١١٤ .

أصاب الحركات الدينية أولاً ، وسواء أكان الدين صحيحاً أو باطلاً منذ أن تعرف الإنسان إلى الفكر الديني ، فالدين يملك من السطوة والسيطرة على النفس البشرية ما لا تملكه أية قوة أخرى ، تلك السيطرة التي تدفعه إلى الزجر ، وتهذيب الغرائز ، ومن هنا يمكن أن ندرك مدى سيطرة المعتقد الديني على الإنسان ، وإمكانية استغلال سلوكه وفق المفاهيم التي يعتقدونها صحيحة ، سواء أكان ذلك الاعتقاد قد تولد عن طريق الاقتناع الشخصي ، أو عن طريق مؤثر خارجي لسبب ما ، فالنفس البشرية تتفاعل مع البيئة ولا شك ، كما أنها تتميز بالفردية ، وأن طاقات الإنسان تجعله ضمن أحد صنفين: الأول: صنف باطني ، وهم الأشخاص المنقبضون الذين يغلب على توجيه طاقاتهم الانفعالية إلى داخل أنفسهم ، فيكثرون من التأمل والتفكير ، وغالباً ما يميلون إلى حب العزلة ، والاستغراق في عالم الخيال .

الثاني: صنف ظاهري ، وهم الأشخاص الذين يغلب عليهم توجيه طاقاتهم الانفعالية نحو الخارج ، فيميلون إلى القيام بأعمال العنف ، وعندها يأخذ الانحراف مجراه إلى نفوسهم .

والانحراف كما ذكرنا لا يعني المسلمين فقط ، فقد شهدت أمم كثيرة تطرفاً في المعتقدات على مختلف عصور التاريخ منذ عهد إبراهيم عليه السلام إلى يومنا هذا .

فالانحراف عن مركز الوسطية يمينة أو يسرة على اختلاف درجاته ، يدني لا محالة من إحدى النهايتين الصغرى أو العظمى التي عبر عنها أهل العلم بالإفراط والتفريط .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «دين الله وسط بين الغالي فيه والجباني عنه والله تعالى ما أمر عباده بأمر إلا اعترض الشيطان فيه بأمرين لا يبالي بأيهما ظفر، إما إفراط وإما تفريط»<sup>(١)</sup>.

وقال الإمام ابن قيم رحمه الله: «وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجباني عنه والغالي فيه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين، فكما أن الجباني عن الأمر مضيع له، فالغالي فيه مضيع له، هذا بتقصير عن الحد، وهذا يتجاوز الحد»<sup>(٢)</sup>.

فالانحراف عن منهج الوسطية له صورتان متباينتان هما: الإفراط والتفريط، أو إن شئت قلت: الغلو والتطرف .  
وفيما يلي بيان موجز لكل من الصورتين .

## الغلو

### تعريف الغلو:

الغلو لغة: يرد الغلو في اللغة بمعان منها الزيادة والارتفاع ومجاوزة الحد عن المعتاد، وهو من الفعل: غلا يغلو غلوا، أي جاوز فيه الحد، وغلا غلاء فهو غال وغلى ضد الرخص، وأصل الغلاء الارتفاع ومجاوزة القدر

(١) أحمد عبد الحليم ابن تيمية (مجموع الفتاوى) تحقيق عبد الرحمن بن قاسم، ج ٣ ص ٣٨١ طبعة الرياض ١٣٨١ هـ .

(٢) ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي) (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين) ج ٢ ص ٤٦٩ دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٢ م .

في كل شيء ، وغلا في الدين جاوز حده، وغلت القدر إذا زادت حرارتها وارتفعت ، وغلا الثمن إذا ارتفع وزاد سعره ، وغلا في مشيه إذا أسرع وزاد فيه<sup>(١)</sup> .

والغلو اصطلاحا: قال ابن تيمية: الغلو مجاوزة الحد ، بأن يزداد في الشيء في حمده أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك<sup>(٢)</sup> .

وقال الحافظ ابن حجر: الغلو المبالغة في الشيء والتشديد فيه بتجاوز الحد<sup>(٣)</sup> ويمثله قال الإمام الشاطبي<sup>(\*)</sup> .

وقد ورد النهي عن الغلو في كثير من النصوص ، سواء من القرآن الكريم أم من السنة النبوية .

فمن ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

قوله تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ ﴿١٧١﴾ (النساء).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ ﴿٧٧﴾ (المائدة).

---

(١) محمد بن أبي بكر الرازي (مختار الصحاح) ج ٤٨٠ ، وأبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المفردات في غريب القرآن) ص ٣٦٤ .

(٢) ابن تيمية (اقتضاء الصراط المستقيم) ج ١ ص ٢٨٩ ، تحقيق د/ ناصر العقل . الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ .

(٣) أحمد بن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١٣ ص ٢٧٨ مرجع سابق .

(\*) أبو اسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي الشهير بالشاطبي ، انظر مؤلفه الموسوم (الاعتصام) ج ٣ ص ٣٠٤ دار المعرفة ، بيروت ١٤٠٥ هـ .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرتان . يغلي منهما دماغه»<sup>(١)</sup>.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «اقرأوا القرآن ولا تأكلوا به ، ولا تستكثروا به ، ولا تحفوا عنه ، ولا تغلوا فيه»<sup>(٢)</sup>.

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «يا أيها الناس إياكم والغلو في الدين، فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»<sup>(٣)</sup>.

وهكذا نجد القرآن الكريم، والسنة النبوية تنفران وتحذران من الغلو لما فيه من إفراط في مجاوزة المقدار المعتبر شرعا في أمر من أمور الدين، وهو ما فهمه أهل اللغة من معنى الغلو<sup>(٤)</sup> وكثيرا ما يصفونه بالتطرف، وهو وصف له وجهه المسوغ له بأخذ أحد الطرفين مع ترك الوسط وهو الاعتدال. فإن ملازمة الطيبات مثلا يؤدي إلى الترف والبطر، ولا يأمن من الوقوع في الشبهات، فإن من اعتاد ذلك قد لا يجده أحيانا، ولا يستطيع الصبر عنه فيقع في المحذور، وإن عدم المنع من تناول ذلك أحيانا غالبا ما يفضي إلى التنطع، وهو التكلف المؤدي إلى الخروج عن السنة المنهي عنه في الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ ﴿٣٢﴾ (الاعراف).

(١) مسلم بن الحجاج القشيري (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ٣ ص ٨٦ حديث رقم ٢١٣، راجعه خليل الميس، دار القلم، بيروت.

(٢) النسائي (سنن النسائي) ج ٨ ص ١٢٢ حديث رقم ٥٠٣٤ مرجع سابق.

(٣) الحاكم النيسابوري (المستدرک علی الصحیحین) ج ١ ص ٤٦٦ مرجع سابق. وابن حجر العسقلاني (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١٣ ص ٢٩١ و ٢٧٨ مرجع سابق.

(٤) محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي (مختار الصحاح) ص ٤٨٠ مادة غلا. وأبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المفردات في غريب القرآن) ص ٣٦٤-٣٦٥.

والرسول ﷺ أخذ بالأمرين المتقدمين ، جواز استعمال الحلال من الطيبات وعدمه ، وكان يقول: « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ، فان قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم»<sup>(١)</sup> .

قال ابن تيمية: والنصارى أكثر غلوا في الاعتقادات والأعمال من سائر الطوائف ، وإياهم نهى الله عن الغلو في القرآن<sup>(٢)</sup> .

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ (المائدة)، أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق . ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجه من حيز النبوة إلى مقام الإلهية ، كما صنعتم في المسيح ، وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهاً من دون الله<sup>(٣)</sup> .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك المنتطعون» قالها ثلاثاً<sup>(٤)</sup> .

والمنتطعون هم المتعمقون في الكلام، الذين يرمون بجودة سبكه سبي قلوب الناس ، وقيل: هم الغالون في حوضهم فيما لا يعينهم ، وقيل: الغالون في عباداتهم بحيث تخرج عن تعاليم الشريعة الإسلامية ويسترسل مع الشيطان في الوسوسة<sup>(٥)</sup> .

(١) يوسف النبهاني (الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير) ج ٣ ص ٣٢٦ . دار الكتاب العربي ، بيروت ، بدون .

(٢) ابن تيمية (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) تحقيق وتعليق ناصر عبد الكريم العقل ج ١ ص ٢٨٩ الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ .

(٣) ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ج ٢ ص ٨٢ دار المعرفة ، بيروت مرجع سابق .

(٤) مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ٤ ص ٢٠٥٥ حديث رقم ٢٦٧٠ مرجع سابق .

(٥) محمد عبد الرؤوف المناوي (فيض القدير شرح الجامع الصغير) ج ٦ ص ٣٥٥ مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٩٣٨ م .

## أسباب الغلو:

وترجع أسباب الغلو إلى أمرين:

الأول: الغلو فيما يتعلق بأمور الاعتقاد، كالغلو في الأئمة والصالحين وادعاء العصمة لهم، أو الغلو في البراءة من المجتمع العاصي، وتكفير أفرادهم واعتزالهم<sup>(١)</sup>. وهذا الغلو أشد خطرا، وأكثر ضررا، فهو يؤدي إلى انشقاق الأمة، وهو المظهر للفرد وللجماعات الخارجة عن الصراط المستقيم.

الثاني: الغلو فيما يتعلق بالأعمال، سواء أكان قولاً باللسان، أم عملاً بالجوارح، فهو ليس عن عقيدة كمن يقوم الليل مصليا، أو يمتنع عن النكاح ليتفرغ للعبادة.

والغلو في كل صورته وأشكاله مذموم ومنهبي عنه في أكثر من نص من النصوص قرآنا كان أم سنة<sup>(٢)</sup>.

وهو إما فعل وإما ترك، كترك الحلال من أنواع الطعام، أو النوم إذا كان هذا الترك العبادة والتقرب إلى الله كما يفعل بعض الصوفية والنباتيين<sup>(٣)</sup> وكلاهما مذموم.

---

(١) أبو اسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (الإعتصام) ج ٢ ص ٢٠١ .  
(٢) انظر في ذلك ابن تيمية (مجموع الفتاوى) ج ٢٨ ص ٤٧٦، ٤٩٥. ومسلم (صحيح مسلم) ج ٢ ص ١٠٢٠، وابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ٣ ص ٣٧ طبعة ١٣٨٠ مصر .  
(٣) عبد الرحمن بن معلا اللويحي (الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة) ص ٨٤، مؤسسة الرسالة . بيروت.

ومن مظاهر الغلو الابتداع في الدين ، واتباع الهوى وهما أمران صريحان في مخالفتها لشريعة الإسلام ، فإن الرسول ﷺ قد حث أمته على التمسك بسننه وحذرهم من الإحداث والابتداع في الدين ، والنصوص في ذلك كثيرة فكل من خالف ما بعث الله به رسوله ﷺ من الأوامر والنواهي والعبادات والطاعات إنما يكون متبعا لهواه ، ولا يكون متبعا لدين شرعه الله (١) .

ومن مظاهر الغلو كذلك تحكيم العقل وتقديمه على النقل ، وقد جعل الله للعقل مجالا محدودا يصول ويجول فيه ولا يتعداه ، والذين يقدمون العقل على النصوص منحرفون عن الصراط المستقيم .

ومن مظاهر الغلو أيضا التقليد الأعمى والتعصب ، فهما أمران من أعظم أسباب الغلو والانحراف عن الصراط المستقيم ، ومن أهم العوامل التي أدت إلى انتشار البدع والضلالات ، وذلك كله من الأمور المنهي عنها لما تسببه من أضرار على الأمة الإسلامية (٢) .

---

(١) وعلى سبيل المثال انظر: الشاطبي (الإعتصام) ج ١ ص ١٠٦-١٣٣ حيث يتحدث عن الابتداع وآثاره ، وابن تيمية (مجموع الفتاوى) ج ١٠ ص ٩ و ١٧١ و ج ١١ ص ٦٨٤ ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد قاسم ، مطابع الرياض ١٣٧٢ هـ .

(٢) يمكن الرجوع إلى كتب التفسير والحديث والفقهاء للإفادة منها في ذلك ، ومنها : القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٢ ص ٢١١ دار الكتاب العربي . ابن الهمام (فتح القدير) ج ١ ص ١٦٧ . سيد قطب (في ضلال القرآن) ج ١ ص ١٥٥ دار الشروق لبنان ١٣٩٨ هـ ، ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ج ٢ ص ١٠٨ .

ولما كان المسلمون متوسطين في الدين بين المفرط والمفرط ، والغالي والمقصر في الأشياء لأنهم لم يغلوا كما غلت النصارى فجعلوا أبناء الله ، ولا قصروا تقصير اليهود في قتل الأنبياء ، وتبديل الكتب ، وغير ذلك مما قصروا فيه<sup>(١)</sup> كانت الوسطية صفة ملازمة للمسلمين .

## التطرف

### تعريف التطرف:

التطرف في لغة العرب: مجاوزة الحد والخروج عن القصد في كل شيء ، وهو مصدر الفعل ، تطرف ، وتطرف الشيء: صار طرفاً<sup>(٢)</sup> وطرف الشيء جانبه ، ويستعمل في الأجسام والأوقات وغيرها<sup>(٣)</sup> وعادة يكون الطرف بعيداً عن الحماية بخلاف الوسط .

والتطرف والتنتطح<sup>(٤)</sup> والغلو والتشديد هي كلمات ذات مدلول واحد ، وإذا كان التطرف مجاوزة الحد في الشيء ، فهو نقيض التقصير ، وقد نهى الله تعالى عن الأمرين ، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ (المائدة) وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (الفرقان).

(١) محمد بن أبي بكر الرازي ( التفسير الكبير ) ج ٤ ص ٦٨ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط ٢ ١٩٩٠ م .

(٢) محمد مرتضى الزبيدي (تاج العروس من جواهر القاموس) ج ٦ ص ١٧٦ ، الطبعة الأميرية بمصر .

(٣) الزبيدي (تاج العروس من جواهر القاموس) مرجع سابق ج ٦ ص ١٧٩ .

(٤) أي التشدد في غير موضع التشديد .

وقال ﷺ: «إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين»<sup>(١)</sup>، والغلو في الدين، التكلف والتشديد فيه، ومجاوزة الحد، والبحث عن غوامض الأشياء، والكشف عن عللها وغوامض متعبداتها.

وقد أنكر الرسول ﷺ على من أراد من الصحابة أن ينقطع عن أعمال الحياة بمبالغته في التقشف، قال أنس بن مالك: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادته ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا أئین نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال احدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: وأنا اعتزل النساء فلا أتزوج، فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم قلتُم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أنا أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»<sup>(٢)</sup>.

والتطرف حيث أطلق اسم يدل على مجموعة من الأفكار الدينية والسياسية والاجتماعية، حاول المتطرفون من خلالها إثارة الحقد في النفوس، والنيل من السلطات الحاكمة وزعزعة الأمن والاستقرار.

هذا وإن مفهوم التطرف المعاصر لا يخرج عن كونه مجاوزة الاعتدال في الفكر والسلوك، من خلال تبني أفكار دينية واجتماعية وسياسية، يتجاوز مداها الحدود التي ارتضاها المجتمع، واتخاذ موقف عدائي منه، ومن مؤسساته وحكومته، وبدعوى الحرص على الإسلام الذي انحرف عنه المجتمع، وخرجت عليه حكومته.

(١) محمد عبد الرؤوف المناوي (فيض القدير شرح الجامع الصغير) ج ٣ ص ١٢٥ ط الحلبي ١٩٣٨ م.

(٢) محمد بن اسماعيل الصنعاني (سبل السلام شرح بلوغ المرام) ج ٣ ص ١١ ط الحلبي ١٩٥٠ والحديث متفق عليه.

وعليه، فالتطرف ظاهرة قديمة موصولة للحلقات، وليست حديثة كما قد يتصور، وإن ما تعاني منه مجتمعات اليوم ما هو إلا حلقة من حلقات التطرف الذي عانت منه مجتمعات الأمس، ولكن موضع الخطورة في التطرف الديني المعاصر يكمن في أن القاعدة الفكرية التي ينطلق منها بالغة الاتساع، وأن التعاطف والتشجيع الذي يلقاه هؤلاء المتطرفون في بداية نشاطهم باعتبارهم مظهرًا حيًا من مظاهر الانبعاث الإسلامي، أو إن شئت قلت: الصحوة الإسلامية، يحول في كثير من الأحيان دون رؤية مظاهر الشطط والانحراف في منهج المتطرفين وأفكارهم وأسلوبهم في الدعوة والعمل.

### الصلة بين الغلو والتطرف:

ومما سبق ذكره في مفهوم كل من الغلو والتطرف يظهر لنا أن الغلو أخص من التطرف، إذ التطرف مجاوزة الحد، والبعد عن التوسط والاعتدال، إفراطًا أو تفريطًا، وإن شئت قلت: سلبيًا أو إيجابيًا، زيادة أو نقصانًا، سواء كان غلوًا أم لا، إذ العبرة ببلوغ طرفي الأمر وهو الغلو.

فالغلو أخص من التطرف باعتبار مجاوزة الحد الطبيعي في الزيادة والنقص، في حال النقص يسمى غلوًا إذا بالغ في النقص.

وفي حال الزيادة يسمى غلوًا كذلك إذا بالغ فيها.

والتطرف انحياز إلى طرفي الأمر، فيشمل الغلو، لكن الغلو أخص منه في الزيادة والمجازة.

### أسباب التطرف:

ظاهرة التطرف الديني ظاهرة مركبة، لها بواعثها الدينية، ولها فوق ذلك بواعثها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومن أهم هذه البواعث ما يلي:

## أولاً: البواعث الدينية:

المنهج الحر في تفسير النصوص، والذي يعتمد على انتقاء آيات وأحاديث معينة، والتمسك المطلق بحرفيتها، دون التفات للمقاصد العامة للإسلام في عقيدته وشريعته، ودون ملاحظة لوظيفة الواجبات الدينية في تحقيق أهداف عملية فردية واجتماعية، بل ودون التفات لأسباب النزول، أو معرفة بأصول الاستدلال اللغوي والفقهية، كإطلاق لفظ الحرام على المكروه، وإطلاق لفظ الأمر على الوجوب دائماً، ودون تمييز بين القاعدة العامة والاستثناء المرتبط بسببه، ومن هذا القبيل إباحة فريق من المتطرفين للعنف، وتخريب مؤسسات المجتمع استناداً إلى قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِيْنَةٍ أَوْ تَرَكَتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الحشر).

العزلة عن المجتمع من جراء الحكم عليه بالردة والكفر، والعزلة في منهج بعض الحركات المتطرفة تؤدي وظيفتين في آن واحد.

الوظيفة الأولى: تجنيد أعضاء الحركة ارتكاب المنكرات التي يعجب بها المجتمع. الوظيفة الثانية: تكوين مجتمع خاص بهم تطبق فيه مبادئ الإسلام وتعاليمه. وتتسع دائرته شيئاً فشيئاً حتى تستطيع في النهاية غزو المجتمع (الجاهلي) من خارجه.

فالوظيفة الأولى، يمكن القول بأنها دينية وفكرية.

والوظيفة الثانية، سياسية وحركية.

ومما لا يخفى على كل ذي لب أن فكرة اعتزال المجتمع - سواء كان هذا الاعتزال بالشعور وبالفعل، أو كان بالشعور فقط - تعتبر من أخطر مكونات المنهج الفكري والحركي للجماعات المتطرفة.

فالعزلة بطبيعتها هي البيئة السوداء التي تتفتح فيها أبواب العقل والقلب لتستقبل كل صور الانحراف .

## الطاعة المطلقة لمرشد الحركة

إن الطاعة المطلقة لمؤسس الحركة ومرشدها، والثقة العمياء به ، والتعظيم المبالغ فيه له ، وإضفاء هالة من التقديس له ولمن حوله ، والاعتقاد الجازم بصدق دعوته ، هي المدخل الذي يندفع منه جموع الأتباع ، وخاصة الشباب منهم ، فهم مادة هذه الحركات ووقودها إلى مصارعها ، وإلى إهلاك الحرث والنسل من حولها دون أن تتوقف لتراجع أو تتدبر ، في حين قد لا يكون هذا المرشد على علم كاف بأحكام الشريعة ومقاصدها ، أو دراية بأساليب العمل الجماعي والسياسي ، أو تقوى تجعله يتحرج في أمور الدماء والأموال والأعراض ، هذا إذا لم يكن مدفوعاً أو مؤثراً عليه من جهات أقوى لا تريد للمجتمع الأمن والاستقرار والنهوض .

## ثانياً: البواعث الاجتماعية والسياسية

يذكر بعض المحللين ومفكري الحركة الإسلامية كثيراً من البواعث والأبعاد الاجتماعية والسياسية للتطرف الديني فمن ذلك:

### أ- العنف

يرى البعض من الناس أن التطرف كان بمثابة رد فعل في صورة تمرد عنيف إزاء السلطات التي استخدمت العنف في قمع الحركة الإسلامية، ويشير هذا البعض إلى إعادة ظهور حركة التطرف في أعقاب تعذيب وقهر الإسلاميين في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي في كثير من الأقطار العربية .

## ب - غياب العدالة

مما لا شك فيه أن غياب العدالة التي تستقيم في ظلها موازين الثواب والعقاب ، ومعايير الفشل والنجاح من أهم بواعث إحياء ظاهرة التطرف الديني وغير الديني ، وانتشار موجات التمرد والرفض بين أفراد المجتمع ، وبخاصة الشباب منهم ، وعليه فإن ظاهرة التطرف الديني عبارة عن صورة من صور الرفض الإجتماعي ، والاحتجاج على غياب العدالة التوزيعية بصورها في نظام المجتمع .

## ج - التشويه

يرى كثير من المفكرين على أن إحياء التطرف الديني مرهون بمخططات أجنبية تستهدف الإسلام وأهله ، وربما يشهد لهم واقع الحركات المتطرفة ، فقد شوهدت كثيراً من تلك الحركات تعاليم الإسلام وقيمه ، وزرعت الانقسام والتطرف بين أهله ، وأشاعت الإرهاب في مجتمعاته .

## د - أجهزة الإعلام ودور الثقافة

إن أجهزة الإعلام ودور الثقافة لها دور فعال في خلق مشاكل الشباب حيث إن كثيراً من برامج الإذاعة والتلفزيون لا تربي المشاهد على العفة والفضيلة، فضلاً عن أن كثيراً من الكتاب اعتادوا الكتابة ، والإفادة برياء ونفاق ومداهنة وبالغش والخداع ولوي الحقائق وتسخيرها تارة لتأييد فكرة ما أو شخصية ما ، وأخرى لتأييد نقيض تلك الفكرة ، مثل هذا الموقف يجعل الناس يفقدون الثقة في هذا الكاتب أو ذاك .

## مظاهر التطرف

للتطرف الديني معالم متعددة ، ومظاهر كثيرة أهمها:

١ - التعصب للرأي: إن أول مظاهر التطرف ، هو التعصب لرأي تعصبا لا يعترف معه للآخرين بوجود، وجمود الشخص على فهمه جمودا لا يسمح له برؤية واضحة لمصالح المجتمع ، ولا مقاصد الشرع ، ولا ظروف العصر ، ولا يفتح نافذة للحوار مع الآخرين ، وموازنة ما عنده بما عندهم ، والأخذ بما يراه بعد ذلك أنصع برهانا وأرجح ميزانا ، فهذا التعصب المقيت الذي يثبت المرء فيه نفسه ، وينفي كل من عداه ، يعتبر من أبرز مظاهر التطرف ... فالتطرف كأنما يقول لك: من حقي أن أتكلم، ومن واجبك أن تسمع ، ومن حقي أن أقود، ومن واجبك أن تتبع ، رأيي صواب لا يحتمل الخطأ، ورأيك خطأ لا يحتمل الصواب، وبهذا لا يمكن أن يلتقي مع غيره أبدا .

٢ - التزام التشديد: من أهم مظاهر التطرف الديني ، التزام التشديد في العمل والسلوك ، والزام الآخرين به ، ورفض التيسير والتسامح ، ولا شك في أن التطرف في العمل نظير التطرف في الفهم والرأي . فكلاهما تحد لسماحة الإسلام ويسر شريعته ، وكلاهما تزيد في الدين ، واهتمام له بالتقصير ، وكأن الرسول ﷺ قد بلغ رسالة منقوصة يجيء هؤلاء المتطرفون ليكملوها ويتموها .

٣ - إثارة المسائل الجانبية: والأمر غير الضرورية ومناقشتها والتعصب لها، كرفع اليدين في الصلاة ووضعها على السرة أو تحتها أو فوقها، والإشارة بالسبابة في التشهد ، والافتراش والتورك ونحو ذلك كالملابس طولها وقصرها وألوانها، وتطويل الشعر وتقصيره ،

تاركين ما هو أهم من ذلك ، كالإلحاد والغزو الفكري والاستعمار وظلم العباد للعباد ونحو ذلك ، وقد قال ﷺ في ذم هؤلاء « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل »<sup>(١)</sup> .

٤ - الرؤية السطحية للإسلام، في ميدان الحياة المعاصرة، كالاعتقاد بأن الإسلام مهزوم أمام الأفكار والآراء الوافدة التي لها الحرية الكاملة في مبادئ الحياة ، فيحاول الداعي أن يتخذ من الوسائل التي يراها كفيلة لنصرة الإسلام، فيقع التطرف في الفكر والعمل.

٥ - التكفير: مما لا شك فيه أن التطرف يصبح في منتهى الخطورة عندما يخوض لجة « التكفير » ويتهم جمهور المسلمين بالخروج عن الإسلام، ويصف المجتمعات المعاصرة بالجاهلية ، وإن صلى أفرادها وصاموا، فإن « التكفير » كوصف عام للمجتمعات المعاصرة أفضى إلى ضرر عظيم وبلاء شديد .

٦ - الإرهاب: يعد الإرهاب بأنواعه المتعددة ، وأساليبه المتنوعة أبرز مظاهر التطرف الديني قديماً وحديثاً ، فقد كان ومنذ اغتيال الخلفاء الراشدين الثلاثة « عمر وعثمان وعلي » صفة ملازمة لحركات التطرف والغلو في الإسلام، ولعل سماته العامة تتلخص فيما يلي:

أ - اتباع العنف وممارسة القوة في فرض أفكار الحركة المتطرفة، ورؤيتها الخاصة بها في الكون والحياة .

ب - رفض رؤية الآخرين واتجاهاتهم، وعدم الاعتراف لهم بأي حق، وإجبارهم على تبني اتجاهات متطرفة، وإلا وسموا بالنفاق والكفر، وحق عليهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

---

(١) محمد عبد الرؤوف المناوي (فيض القدير في شرح الجامع الصغير) ج ٥ ص ٤٥٣  
مطبعة مصطفى محمد مصر ١٩٣٨ م .

ج- العنف في التعامل ، والخشونة في الأسلوب ، والغلظة في الدعوة ، خلافاً لهداية الله ، وهدى رسوله ﷺ ، فالله تعالى يأمرنا أن ندعو إلى دينه بالحكمة لا بالحماسة ، وبالموعظة الحسنة ، لا بالعبارات الخشنة ، وأن نجادل بالتي هي أحسن ، لا بالتي هي أخشن : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ١٢٥ (النحل) وخاطب الله رسوله مبينا علاقته بأصحابه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ ١٥٩ (آل عمران).

د- رفض القيم الدينية السائدة في المجتمع ، واستبدالها عن طريق العنف بقيم مناقضة لها تماماً ، حيث يصبح قتل غير المتطرفين واجبا دينيا ، ونهب أموالهم وهتك حرمتهم فريضة من الله ، واغتيال قادة المجتمع ومفكره عملا شرعيا ، وهدم المجتمع قريبا إلى الله ، وإراقة دماء المسلمين وشن الحرب عليهم جهادا في سبيل الله ، والكذب والدجل عملا مشروعا لنشر دين الله ، وتخريب مؤسسات الدولة إعلاء لكلمة الله ، والخروج على الأنظمة والقوانين تطبيقا لشرع الله ، والتمرد والعصيان مرصاة لله ، والخديعة والافتراء وشهادة الزور مشروعة للإيقاع بخصوم الإسلام وإسقاط الحكومات القائمة عملا يرضي الله ورسوله .

ومن هنا كانت الوسطية صفة للمسلمين ، فهم المتوسطون في الدين بين المفرط والمفرط ، والغالي والمقصر في الأشياء ، فقد أمر الإسلام بالتوسط في الأمور كلها ، والوسطية هي سمة هذه الأمة أمة الإسلام .

# الفصل الأول

## مجالات الوسطية



## ١ . مجالات الوسطية

### تمهيد

جعل القرآن الكريم للوسطية حدوداً في مجالاتها المتعددة ، فقد لفت أنظار الناس إلى الظواهر الطبيعية حولهم ، وما تحويه من كل زوج بهيج ، أخذ يتابع هذه الوسطية ويجعلها صفة للأمة الإسلامية ، ويرصد تطبيقاتها خلال سوره وآياته وحتى انقطع الوحي الكريم ، ولحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى ، وبما أن الوسط أعدل الطرفين ، والصراط هو الطريق الوسط<sup>(١)</sup> فالوسطية هي الصراط الذي يجمع بين الأمرين ، وقد اتصف هذا الصراط بالاستقامة ، فإنه بذلك يضيف أمراً ثالثاً للأمة الإسلامية لأن القبض على الصراط يحتاج إلى هداية ، وإلى نور يقذفه الله في القلب ، ويظل المسلم طوال حياته متعلقاً بالله تعالى يطلب منه الهداية والاستعانة ، ويخشى الانحراف عن جادة الطريق ، إلى واحدة من المشتبهات التي تترصد به على جانبي الطريق ، فقد ينزلق المرء ويخدع بذلك ، وقد يخيل إليه أنه على الصراط المستقيم ، وهو في الحقيقة على وهم ، حيث اختلطت الأمور عليه ، وأصبح يجمع بين الأمرين كتوفيق بينهما مرة ، وتلفيق أخرى .

والقرآن الكريم ينبه إلى مثل هذا الخطر في لفظة إعجازية بليغة ، ويحذر المسلمين من الوقوع في أحد هذين الأمرين - التوفيق والتلفيق - حتى لا يقع بالمشتبهات ، وفي انحرافات الوسطية التي يتبعها من في قلوبهم زيغ . قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ

---

(١) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٧ ص ١١٣ مرجع سابق.

وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٍ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ  
 وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا  
 بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ  
 إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ (آل عمران)،  
 وهكذا نلمس في القرآن الكريم حدوداً للوسطية، وصحابة رسول الله  
 ﷺ هم أقرب الناس من رسول الله ﷺ، وهو لا ينطق عن الهوى، كانوا  
 يعيدون كل البعد عن التوفيق والتلفيق، رغم أنهم كانوا بين ثقافتين<sup>(١)</sup>، كانوا  
 متمسكين بالوسطية منهجاً وسلوكاً.

لقد حاول نفر من علماء القرن التاسع عشر والقرن العشرين إصلاح  
 حال الأمة الإسلامية، عن طريق التوفيق بين التراث والمعاصرة، بين القديم  
 والجديد، بين الشرق والغرب، وأخيراً بين الإسلام وأوروبا، توفيقاً بين  
 حضارتين، حيث التبس عليهم الثرى بالثريا، والتلفيقية لا تقل شأنًا عن  
 التوفيقية، بل هي أشد منها، فهي لا تبني موقفاً إصلاحياً، وإنما تسعى  
 لتحقيق مصالحها، وتسير حسب الموجة الجارية، فمرة مع العلمانية، ومرة مع  
 الماركسية، ومرة مع هذا وذاك حسب هبوب الرياح، وما أكثر هذا الصنف  
 في عصرنا الحاضر.

ومن إعجاز القرآن الكريم أنه يشير إلى هذه الانحرافات، ولكن  
 بتعبيرات وألفاظ أخرى، لكنها في جوهرها تعني هذين الصنفين المنحرفين.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رَجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيْمَاهُمْ وَيُنَادُوا  
 أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا  
 صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

(١) الإغريقية والفارسية.

﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ (الأعراف).

فأهل الأعراف وقفوا على جبل حاجز بين الجنة والنار، ينظرون إلى أهل الجنة فيطمعون أن يكونوا معهم، وينظرون إلى أصحاب النار فيدعون الله ألا يكونوا معهم، فهو لاء وقفوا في منتصف الطريق لا هم من أصحاب الجنة، ولا هم من أصحاب النار، فأمرهم مفوض لمشية الله تعالى (١).

أما الصنف الثاني فقد عبر عنهم القرآن الكريم بالنافقين، فهم دائماً يتلونون ويتغيرون في مواقفهم عن خب وسوء نية، ويحاولون دائماً أن يرضوا الأطراف المعنية، جميعاً بين مختلف التيارات، وهم في الحقيقة لا يخلصون لهذا ولا لذلك، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿١﴾ (المنافقون)، وقد وصف القرآن الكريم هذا الصنف من الناس بأن في قلوبهم مرضاً يخادعون الله وهو خادعهم، يظنون أنهم على شيء وما هم إلا خشب مسندة، كما وصفهم الله عز وجل، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مَّسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٤﴾ (المنافقون).

ثم انظر آيات الزوجية في القرآن الكريم، ومنها:

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ﴿١٨٩﴾ (الأعراف).

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ ﴿٥٢﴾ (الرحمن).

وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا ائْمَلِ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ﴿٤٠﴾ (هود).

(١) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٧ ص ١٣٥، مرجع سابق.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ (الذاريات).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ﴿٣﴾ (الرعد).

إلى غير ذلك من الآيات الكريمات .

وكل واحد من هذه الزوجية لا يستغني عن الآخر ، إذ الاستغناء عن الغير هو من صفات الألوهية ، فالله سبحانه وتعالى مستقل بذاته مستغن بذاته عن مخلوقاته ، ليس كمثله شيء له أسماؤه الحسنی ، وصفاته الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد ، أما عالم البشر فهو عالم الوسطية عالم الأنا والآخر ، عالم الذكر والأنثى ، عالم الشيء وما يقابله ، والوسطية لا تتحقق إلا في عالم البشر ، عالم الزوج ، فما دام هناك شيء وما يقابله ، وما دام هناك خيار بين أمرين ، فإن الوسطية في مثل هذه الحالة واردة ، أما الأوامر والنواهي التي تصدر من الله عز وجل فلا مجال للوسطية فيها ، فلا وسطية بين الزنا والنكاح ولا بين السرقة والملكية ، ونحو ذلك من سائر الأوامر والنواهي .

وآيات الزوجية فضلاً عما فيها من عظات وعبر وتدبر وتفكر ولفت أنظار العقل لما سخره الله للإنسان ليجد ويجهد في إعمار هذا الكون ، فهي أيضاً تذكير بنعم الله تعالى على الإنسان ، وتعني كذلك أهمية التوازن على الطريق المستقيم في حياتنا الدنيا استلهاماً واستمداداً من الله تعالى وكل هذا الذي ذكرناه إنما يعني أن فكرة الوسطية ، لا تنظر إلى الحياة الدنيا وحدها ، وإنما تنظر إلى حياة أخرى تكملها ، ولا تركز على المادة فحسب ، وإنما تضيف إليها أموراً معنوية أخرى ، ولا تقف عند حدود مدركات العقل وإنما تضيف إليه قوة أخرى تكمله وتحفظه وترعاه وتوجهه إلى المنهج القويم .

وبعد أن وقفنا على حدود الوسطية في الإسلام ، يتعين بالضرورة بيان المجالات التي تتحقق فيها الوسطية ، ولما كانت بالكثرة التي يصعب

حصرها في كتاب ، فقد بذلت أقصى جهدي للوقوف على أهم المجالات التي تتحقق فيها الوسطية، وقد وقع ذلك في ثمانية فصول ترد - إن شاء الله - على النحو التالي

## ١ . ١ الوسطية في المنهج والأسلوب

### التعريف بالمنهج

#### المنهج لغة

اسم مصدر للفعل نهج ينهج نهجاً ومنهاجاً ، والمنهاج الطريق الواضح<sup>(١)</sup>، ومنه قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ ﴿٤٨﴾ (المائدة).

والمنهج خلاف الأسلوب ، إذ الأسلوب يعني الإطار الفكري ، أما المنهج فيعني الخطوات التطبيقية لذلك الإطار الفكري ، أي هو البرنامج الذي يحدد لنا السبيل للوصول إلى الحقيقة ، أو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة التي نريد تحصيلها<sup>(٢)</sup> وبناء على هذا الاعتبار ، فهناك منهج في الاعتقاد والتصور ، ومنهج في التشريع والعبادات والمعاملات ، ومنهج للتعليم والتعلم ، وثمرت منهج آخر للوصول إلى نتائج مادية كما هي الحال في العلوم العملية .

---

(١) الراغب الإصفهاني ( المفردات في غريب القرآن ) ص ٥٠٦ ، مرجع سابق .

والرازي ( مختار الصحاح ) ص ٦٨١ ، مرجع سابق .

(٢) محمد زياد عمر ( البحث العلمي مناهجه وتقنياته ) ص ٤٦ نشر دار الشروق ، جدة ، ط ٢ ، بدون تاريخ .

ومرادنا من المنهج هنا الكشف عن الحقيقة المراد الوصول إليها في مختلف المجالات .

ولا تعني التفرقة بين الأسلوب والمنهج تعارض المصطلحين ، فمن الناحية اللغوية يتقارب كثيرا معنى كل من الأسلوب والمنهج .

ولكن يقصد بهذه التفرقة التوضيح والتفسير لا غير ، فيستعمل الأسلوب للتنظيم الفكري ، والمنهج للجانب التطبيقي للدراسة موضوع البحث .

ومنهج الإسلام هو منهج الله تعالى الخاص وهو الصراط المستقيم ، قال الطبري: «أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه»<sup>(١)</sup> .

وقال ابن عباس<sup>(٢)</sup> رضي الله عنه: « وكل حائد عن قصد السبيل ، وسالك غير المنهج القويم هو ضال عند العرب ، لإضلاله وجه الطريق »<sup>(٣)</sup> .

ووجه وسطية المنهج انه ليس على منهج المقصرين ، وهم اليهود ، وليس كذلك على منهج المفرطين وهم النصارى ، فهما منهجان دائران بين الإفراط والتفريط ، الغلو والتقصير ، وأما الصراط المستقيم فهو المنهج الوسط .

قال ابن كثير<sup>(٤)</sup> في تفسير قوله تعالى: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ٧ ﴿ الفاتحة ﴾ وهم الذين فسدت إرادتهم فعملوا الحق وعدلوا عنه ، وهم اليهود الذين غضب الله عليهم ، لعدم اتباعهم الصراط المستقيم رغم علمهم به ، وأنه المنهج القويم من رب العالمين ، وهو المنهج الوسط

---

(١) الطبري ( دامع البيان عن تفسير آي القرآن ) ج ١ ص ٧٣ مرجع سابق .

(٢) سبق ترجمته .

(٣) ابن كثير ( تفسير القرآن العظيم ) ج ١ ص ٢٩ مرجع سابق .

(٤) ابن كثير ( تفسير القرآن العظيم ) ج ١ ص ٢٩ مرجع سابق .

الذي جمع بين العلم والعمل، بين التوحيد بالقلب، والعمل بالجوارح، فهو أحسن العمل الذي تعبد الله الناس به وخلقهم لأجل التنافس في تحقيقه في كل أمور حياتهم، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿٢﴾ (الملك) .

وغير صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم، فهم الهائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق<sup>(١)</sup>، وهؤلاء هم النصارى الذين سلكوا طريق الروحانيين ومن نحى نحوهم من صوفيين أو مشعوذين، وغير ذلك من طرائق محرمة، فانحرفت عن الطريق المستقيم، ففقدت الإصابة المنشودة، فكانت النهاية المهلكة لهم، قال سبحانه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ ﴿١﴾ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ ﴿٢﴾ ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ ﴿٣﴾ ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ ﴿٤﴾ .

ومن هذا الذي ذكرنا يتضح أن هناك ثلاثة طرق، أو ثلاثة مناهج:

- منهج الذين أنعم الله عليهم، وهو الصراط المستقيم .
- ومنهج المغضوب عليهم، وهم اليهود .
- ومنهج الضالين، وهم النصارى .

وإنما كان منهج الذين أنعم الله عليهم هو الوسط؛ لأنه بين سبيلين منحرفين ضالين، وكل طريق منحرف عن منهج الصراط المستقيم يرجع إلى أحد هذين السبيلين، فضلاً عن أن الاستقامة تعني الوسطية، فتقرر بذلك أن طريق الإستقامة هو طريق الأمة الوسط، فإن كل آية وردت في الاستقامة، وإن تنوعت أساليبها، فهي متقاربة الألفاظ متحدة المعاني، تدور حول تحقيق الوسطية في المنهج والدعوة إلى الأخذ به .

---

(١) ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ج ١ ص ٢٩ مرجع سابق.

إن المتأمل لطريقتي الفلاسفة والمتكلمين وطريقة القرآن الكريم يجد أن طريقة القرآن أصل كل الطرق الصحيحة، وتأتي في أصول الدين وفروعه بأكمل المناهج، فتترك الاستدلال على المقدمات الضرورية؛ لأنها في حكم البداءة العقلية، وإنما تحتج بها على أنها مسلمة، وهذه هي الطريقة الصحيحة بخلاف ما يدعيه الذين يظنون أن القرآن ليس فيه طريقة برهانية، وهم يستدلون على المقدمات الضرورية البديهية ومن ثم يحتجون بها .

وعدم سلوك القرآن الكريم لطريقة الفلاسفة والمتكلمين في المقدمات والنتائج، لا يعني أن طريقته ليست برهانية، لأن طريقة القرآن حذف المقدمة الظاهرة والاكتفاء باستقرارها في الفطر، فجاءت أدلة القرآن كلها قوة وحيوية وهي بذات الوقت أدلة برهانية<sup>(١)</sup> .

انظر مثلاً إلى دليل خلق الإنسان الوارد في القرآن بأساليب متعددة، ومنها قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ (الواقعة)، إن هذا الدليل وارد بشكل سؤال موجه إلى المشركين، وهو معتمد على مقدمة بديهية هي: أن الإنسان مخلوق، لكنه لم يذكرها ولم يستدل عليها، لأن ذكرها لا يزيد الدليل قوة، إنما استدل بها والإجابة عن هذا السؤال موجودة في ذهن كل مستمع، وما دام أنه مخلوق ولم يخلق نفسه فخالقه يستحق أن يفرد بالألوهية، والمتكلمون يستدلون على هذه المقدمة الظاهرة وهي كون الإنسان مخلوقاً، ومن ثم يدعون أن أدلتهم برهانية، وأن أدلة القرآن إقناعية لحذفه المقدمة الظاهرة البديهية .

وانظر كذلك لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ﴿٢٢﴾ (الأنبياء)، فلو قال: وبما أنهما لم تفسدا إذن فليس فيهما آلهة إلا الله

(١) ابن تيمية (مجموع الفتاوى) ج ٢ ص ٤١ و ج ٦ ص ٢٩٩ مرجع سابق.

لكان ذلك غير مناسب ، فترك القرآن لهذه المقدمة اعتماداً على استقرارها في الفطر أبلغ وأشد تأثيراً .

وقد تنوعت الأساليب التي يعرض القرآن بها أدلته ، وهذا التنوع له فائدة كبيرة في تقرير الحقيقة وتأكيدھا وإقناع المدعوين ھا، لأن بعض الناس قد يؤثر فيه أسلوب أكثر من أسلوب آخر غيره ، وقد يقتنع إنسان بأسلوب ، ويقتنع غيره بأسلوب آخر وهكذا ..

يقول د. محمد عبد الله دراز متحدثاً عن اختلاف وسائل الاقتناع عند الناس: « ولا جرم أنه من أجل هذا الاختلاف في وسائل الاقتناع عند الناس تنوعت في القرآن وسائل الدعوة إلى الله وُصُرفت فيه الآيات تصرفاً بليغاً حتى إن الذي يستعرض أساليب الهداية القرآنية إلى عقيدة الألوهية يجدها قد أحاطت بأطراف هذا المسلك ، وأشبعت تلك النزعات جميعاً، بل ربما زادت في كل منهج عناصر جديدة لم يفتن إليها الباحثون»<sup>(١)</sup> .

ومن هذه الأساليب التي وردت في القرآن الكريم على سبيل المثال لا الحصر:

- ١- أسلوب الحوار والجدل .
- ٢- أسلوب التلقين .
- ٣- أسلوب الاستفهام الإنكاري .
- ٤- أسلوب الاستفهام التقريري .
- ٥- أسلوب التكرار .
- ٦- أسلوب الترغيب والترهيب .

---

(١) محمد عبد الله دراز (الدين) ص ١٨٠ ، مرجع سابق .

٧ - أسلوب التحدي والتهكم .

٨ - أسلوب الدعوة إلى النظر والتفكير والتدبر .

## ١ . ٢ . الوسطية في الاعتقاد والتصوير

### ١ . ٢ . ١ الوسطية في الإعتقاد

#### التعريف بالعقيدة

العقيدة لغة: مأخوذة من العقد على زنة فعيلة، وهو نقيض الحل، يقال: عقد الشيء يعقده عقداً، وانعقد وتعقد، والمعاهد هي مواضع العقد، وعقدت الحبل أعقده عقداً وقد انعقد<sup>(١)</sup> ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ شَرَّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ (٤) (الفلق)، أي الساحرات اللواتي يعقدن الخيوط وينفنن فيها، وقد استعمل العقد في المعاني والأجسام<sup>(٢)</sup> من المعاني كأن يقال: عقد العهد واليمين، أي أكدهما، ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (١) (المائدة).

واستعمل كذلك في البيع والشراء، فيقال: عقد البيع، وعقد النكاح، ومنه اعتقد الأمر أي صدقه، واعتقدت كذا عقدت عليه القلب والضمير، حتى قيل: العقيدة هي ما يدين الإنسان به<sup>(٣)</sup>.

---

(١) ابن منظور (لسان العرب) ج ٣ ص ٤١٣ .  
(٢) القرطبي (الجامع لاحكام القرآن) ج ٦ ص ٣١ مرجع سابق .  
(٣) أبو الحسين أحمد بن فارس (معجم مقاييس اللغة) ج ٤ ص ٨٨ تحقيق عبد السلام هارون، دار احياء الكتب العربية، مصر، الطبعة الاولى .

واستعمل كذلك في الأجسام ، كأن تقول عقد العسل أي اشتد .  
ومن مجموع ما تقدم نعلم أن العقيدة تطلق ، فيراد منها الأمر الذي  
يعتقده الإنسان ، ويعقد عليه قلبه وضميره بحيث يصير عنده حكماً لا يقبل  
الشك فيه لدى معتقده ، فاعتقد كذا بقلبه ، أي صار له عقيدة<sup>(١)</sup> .

العقيدة شرعاً: ما يدين به الإنسان ربه ، والعقيدة الإسلامية مجموعة  
الأمر الدينية التي يجب على المسلم أن يصدق بها قلبه ، وتطمئن إليها  
نفسه، وتكون يقينا عنده لا يمازجه شك، ولا يخالطه ريب، فإن كان فيها  
ريب أو شك كانت ظناً لا عقيدة<sup>(٢)</sup> لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا  
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ  
هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ ١٥ ﴿ (الحجرات) وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ  
فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ٢ ﴿ (البقرة).

وفي لسان العرب<sup>(٣)</sup>: « والعقيدة في الدين ما يقصد به الاعتقاد دون  
العمل ، كعقيدة وجود الله تعالى وبعثة الرسل ... » .

وقد جاءت هذه العقيدة الإسلامية في زمن كان العالم فيه يموج بالعقائد  
الفاسدة ، فقد كان كفار قريش ومن حولهم من العرب يؤلهون الأصنام ،  
ويعبدونها ، وحتى في يومنا هذا يوجد في الهند من يعبد الحيوانات ويقدها ،  
والذين يعبدون الأحجار والأخشاب والأبقار لا يزالون موجودين حتى  
اليوم في بلدانهم المختلفة ، ومن تأليه الأحجار إلى تأليه الأنبياء ، قال تعالى:

---

(١) أحمد محمد الفيومي ( المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ) ج ٢ ص ٧١ تصحيح  
مصطفى السقا المكتبة العلمية بيروت ، بدون .

(٢) محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي ( عقيدة التوحيد في القرآن الكريم )  
ص ٢٠ نشر دار ابن تيمية بالرياض ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .

(٣) ابن منظور ( لسان العرب ) ج ٣ ص ٤١٣ مرجع سابق .

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة) ٣٠.

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ (٧٣) (المائدة). وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (٧٢) (المائدة). وهناك فئة أخرى من المجتمعات البشرية تنادي بنفي الألوهية لإله هذا الكون، وجعلوها شعار التطور والمعاصرة .

يقول الزيد<sup>(١)</sup> وكما تسببت الكنيسة في الإلحاد ، بسبب موقفها من العلم والعلماء ، فقد كان لها أيضاً موقف آخر دفعت به طبقة أخرى من طبقات المجتمع الغربي إلى الإلحاد ، فإن عالم الصناعة والإنتاج مع تطوره ، وتضخم رؤوس الأموال ، أصبح في ميدان العمل معسكران منفصلان:  
الأول: معسكر أصحاب رؤوس الأموال .

الثاني: معسكر العمال . وبينهما هوة كبيرة ، وفارق طبقي ملموس ، وصار لأصحاب رؤوس الأموال السلطة والنفوذ ، فانضمت الكنيسة إلى معسكر أصحاب رؤوس الأموال الذين بيدهم السلطة الحقيقية ، فوجدت الطبقة العاملة نفسها في مواجهة الكنيسة ، وأن الدين بهذا المفهوم لا يغذي رغبتها ، بل يقف في صف خصومها .

وبإزاء هذين الاتجاهين المنحرفين الباطلين ، اتجه الوثنيين والملحدون يأتي الاتجاه الوسط الخير الملائم للفطرة البشرية الملبي لحاجتها أحسن تلبية بإحكام وشمول وانسجام موزون .

(١) زيد عبد الكريم الزيد (الوسطية في الإسلام تعريف وتطبيق) ص ٣٤ نشر دار العاصمة بالرياض ١٤١٢ هـ .

وهذا ما جاءت به العقيدة الإسلامية في دعوتها للعالم كله .

وقد عبر القرآن الكريم في كثير من آياته عن العقيدة بالإيمان ، وعن الشريعة بالعمل الصالح ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ (الكهف)، وقوله جل شأنه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (النحل)، وقوله سبحانه: ﴿وَالْعَصْرُ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ (العصر).

ومن هذه الآيات الكريمة نلاحظ أن العقيدة هي الأصل والأساس الذي تبنى عليه الشريعة، وعلى ذلك فإن الشريعة تعد أثرا للعقيدة، حيث لا تقوم الشريعة بدون العقيدة، فهما أمران متلازمان مترابطان بحيث لا يصح إهمال أحدهما والإبقاء على الآخر. فالعقيدة أصل يدفع إلى الشريعة والشريعة تلبية واستجابة لانفعال القلب بالعقيدة .

وقد تميز الدين الإسلامي عن غيره من الأديان والعقائد بوضوح العقيدة وسهولة الإيمان بالله تعالى، حيث أمر الناس بعبادة الله وحده ، وأنه الإله الواحد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، بيده ملكوت السموات والأرض ، لا معبود سواه، وأنه لا وساطة بين العباد وخالقهم ، ولا شركاء معه، فليس في العقيدة الإسلامية ألغاز لا يعرفها إلا فئة من الأحناف والرهبان، وليس فيها غموض وغبش كما في العقائد الأخرى من تجزئة الواحد إلى ثلاثة، وليس فيها استهانة بالعقل الإنساني ليعبد أحجارا وأشخاصاً وحيوانات كما في البوذية وغيرها، وليس فيها من التحريف والتغيير والتبديل ، لا يتطرق إليها العقائد الزائفة من انحرافات الأديان الأخرى والوثنية، ومن عقائد

النسخ والحلول، و(الماركسية<sup>(١)</sup>)، و(الدارونية)<sup>(٢)</sup> و(الفرويدية)<sup>(٣)</sup>، ودعاوي الإلحاد و(الوجودية)<sup>(٤)</sup> وغيرها، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ (البينة).

والأصول التي تقوم عليها العقيدة ستة على النحو التالي:

- الأصل الأول: الإيمان بالله تعالى .

- الأصل الثاني: الإيمان بالملائكة .

(١) نسبة إلى كارل ماركس عاش ما بين ١٨١٨ م - ١٨٨٣ م يهودي من ابوين يهوديين ألمانيين أساس مذهبه انكار وجود الله، واعتبار المادة أزلية أبدية، وهي كل شيء في الوجود، والتفسير المادي لحركتي المادة وتغيراتها وهورائد الفكر الشيوعي بعدهيجل .

(٢) نسبة إلى تشارلز داروين عاش ما بين عام ١٨٠٨ م - ١٨٨٢ م من بريطانيا، صاحب نظرية النشوء والارتقاء بمعنى أن الكائنات الحية تسير في تطورها مرتقية من أدنى الأحياء إلى الأعلى فالأعلى، وأن الإنسان في قمة تطورها .

(٣) نسبة إلى سيجموند فرويد عاش ما بين ١٨٥٦ م - ١٩٣٩ م يهودي من أبوين يهوديين من النمسا، مؤسس مدرسة التحليل النفسي، له آراء في تفسير نشأة المجتمع والدين والحضارة وتطورها .

(٤) الوجودية رأي فلسفي قديم منذ عهد سقراط منتقد من جميع الفلاسفة والمفكرين . وفي أواخر القرن العشرين تجددت الفلسفة الوجودية باسم جان بول سارتر يهودي فرنسي من مواليد ١٩٠٥ م ومات سنة ١٩٧٩ م ويرى مجدد هذه النظرية أو هذه الفلسفة أن الإنسان حر بمعنى أنه لا يخضع لماهية أو طبيعة محددة ؟ بل هو مستمر . إذ ليس هناك طبيعة بشرية فرضت من الأزل . وليس هناك تعريف ثابت للإنسان كيف ينبغي أن يكون ، فإن الإنسان يوجد أولاً ثم يخلق ماهيته بما يختار لنفسه . وهذا ولا شك مما لأتقبله العقول السليمة، فإن كل موجود لابد له من وجود . وموجد هذا الكون وما فيه هو الله تعالى لاغير . ولزيت من المعلومات عن الوجودية انظر: عبد الرحمن حسن حبنكة (كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة) ص ٣٦٠ . دار القلم دمشق ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

- الأصل الثالث: الإيمان بالكتب السماوية .

- الأصل الرابع: الإيمان برسول الله .

- الأصل الخامس: الإيمان باليوم الآخر .

- الأصل السادس: الإيمان بالقدر خيره وشره .

وبهذا نرى أن عقيدة الإسلام وسط لا إفراط فيها ولا تفريط ، فهي وسط بين العقائد التي تنكر الخالق ، وتنكر كل ما وراء الطبيعة المحسوسة ، وبين العقائد التي تزعم أن للعالم أكثر من إله ، وتقول بالتعدد ، وتدعي حلول الإلهية في الملوك والحكام والأنبياء والأشياء والحيوانات .

إن عقيدة الإسلام بريئة من الإلحاد وإنكار وجود الله ، كما هي بريئة من الشرك والوثنية ، فهي تفرد الله سبحانه بالألوهية والربوبية ، لأنه لا يستحق ذلك غيره ، يقول سبحانه: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ (المؤمنون).

وهذه العقيدة الإسلامية وسط في صفات الله تعالى، فلا مغالاة في التجريد الذي يجعل صفات الله بلا معنى، كالجهمية المعطلة، ومن نحا نحوهم، إنما تقول هذه العقيدة الإسلامية الوسط: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ (الشورى) فهي خلت من التشبه والتمثيل الذي لجأت إليه اليهودية والنصرانية وغيرهم من المشبهة الذين وصفوا الله بصفات المخلوقين.

وعقيدة الإسلام وسط أيضاً بين المقلدين لآبائهم تقليداً أعمى ، كما حكى القرآن أنهم قالوا: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ (الزخرف)، وبين الذين يبحثون عن كنه ذات الله تعالى وهم بعد لم يعرفوا حقيقة أنفسهم كما قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُخَذِلِينَ الْمُضِلِينَ عَصُدًا ﴿٥١﴾ (الكهف).

فهي عقيدة وسط تفتح الباب للنظر في هذا الكون المفتوح للتفكير والتدبر والعظة والاعتبار ، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ (يونس)، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ (الروم)، وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ (الذاريات).

وبهذا الذي ذكرنا يمكن القول بأن المسلمين وسط بين الأطراف المتجاذبة لا سيما اليهود والنصارى ، فقد كانت هاتين الملتين على طرفي نقيض فيما بينهما، سواء في التوحيد والتشريع وغير ذلك، ولما كان المسلمون هم الذين يدعون الله أن يهديهم الصراط المستقيم الذي هو وسط بين سبيل المغضوب عليهم (اليهود) والضالين (النصارى)، ومن هنا كانت أمة

الإسلام أمة الوسط، حيث كانت مباينة لكل منهما ، سالكة سبيلاً وسطاً بين هذين السيلين المنحرفين .

## ١ . ٢ . ٢ الوسطية في التصور الإسلامي

لا ريب أن الإنسان أرقى المخلوقات التي نلمسها ونشاهدها ، وهو المتميز عنها بالتفكير والنظر والقدرة على التصور والتصرف ، ولذلك استطاع بإرادة الله تعالى أن يسخر الموجودات التي حوله من حيوان ونبات وجماد لمصلحته ومنفعته ، واستطاع بعقله أن يتخذ منها أدوات ووسائل تعينه على حياته بشكل أرقى وأكثر رفاهية ، وفيما يلي بيان لمكانة الإنسان في هذه الحياة الدنيا وتصوره لما فيها من مخلوقات الله تعالى ، وقد جاء الكلام في ما يلي :

- التصور عند غير المسلمين .

- التصور الإسلامي للكون وللحياة وللإنسان .

### التصور عند غير المسلمين

التصور البشري لكثير من الناس لقضايا الألوهية والكون والحياة والإنسان يقوم على أساس مادي بحت ، باعتبار أن المادة هي الشيء الوحيد الأصيل في هذا الكون ، وأن كل ما في الكون ومن فيه منبثق من المادة ومحكوم بقوانين المادة ، ولا وجود له خارج نطاق المادة .

كما يقوم هذا التصور من جهة أخرى على أساس وجود التناقض في طبيعة المادة ، ومن ثم كل ما ينبثق عنها من مخلوقات ، ومن كيانات بما في ذلك الكيان الإنساني ، فهو كيان مادي من جهة ، ومحكوم بصراع المتناقضات

من جهة أخرى ، تلك هي حقيقة كل أفكار ومشاعر هذا الجمع من الناس ،  
وعليها تقوم كل أنظمتهم ومؤسساتهم ، وكل قيمهم ومبادئهم خلال  
التاريخ (\*).

كما يقول أتباع هذه الفكرة ، وهذا التصور : « أن حوادث الطبيعة  
بموجب هذه النظرية هي متحركة متغيرة دائماً وأبداً ، وتطور الطبيعة هو  
نتيجة تطور تناقضات الطبيعة نتيجة القوى المتضادة في الطبيعة »<sup>(١)</sup> ، « أن  
الطبيعة توجد مستقلة عن كل فلسفة ، فهي الأساس الذي نمونا عليه ، نحن  
الناس نتاج هذه الطبيعة »<sup>(٢)</sup> .

ويتضح من هذا الذي أوردناه عن أصحاب فكرة المادة الجدلية ، أو  
المثالية كما يسميها هيغل ، أنهم يعتبرون المادة هي الأصل الذي انبعثت منه  
كل الكائنات الحية منها وغير الحية ، بما في ذلك الإنسان ، وأنها جميعاً قد  
انبثقت عنها بطريق الخلق .

وبمعنى آخر إن المادة هي الخالق لهذا الكون وما فيه ، وعنها نشأت  
الحياة ، ونشأ الإنسان وكل ما يحتوي عليه عالم الإنسان من أفكار ومشاعر .

---

(\* ) يقول هيغل الفيلسوف الألماني « إن حركة الفكر التي يجسدها باسم الفكرة ، هي  
مبدعة الواقع الذي ليس هو سوى الصورة الظاهرية للفكرة » .  
ويقول تلميذه ماركس الروسي من أصل يهودي : « إن حركة الفكر ليست سوى  
انعكاس حركة الواقع وقد انتقلت إلى ذهن الإنسان » .  
للمزيد انظر : محمد قطب ( مذاهب فكرية معاصرة ) ص ٢٦٨ ، دار الشروق بيروت ،  
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

- (١) محمد قطب ( مذاهب فكرية معاصرة ) ص ٢٦٩ ، مرجع سابق .
- (٢) محمد قطب ( مذاهب فكرية معاصرة ) ص ٢٧٩ ، مرجع سابق .

ونحن في بحثنا هذا لسنا بصدد ومناقشة هذه الأفكار الخاطئة ولا شك، ولا بصدد إثبات وجود الله تعالى، فذلك معلوم بالضرورة، ولا ينكره عاقل، وإنما نحن بصدد بيان وسطية الإسلام في تصورهِ للكون وللحياة وللإنسان ودوره في هذه الحياة وفي هذا الكون الذي يعيش فيه، وفيما يلي بيان ذلك إن شاء الله تعالى .

## التصور الإسلامي للكون وللحياة وللإنسان

ينفرد التصور الإسلامي في منهجه القويم في نظره للكون وللحياة وللإنسان، من بين سائر المناهج والتصورات العقائدية الأخرى، والسائدة في أنحاء المعمورة، حيث يقوم التصور الإسلامي على أساس أن هناك ألوهية وعبودية، ألوهية ينفرد بها الله تعالى، وعبودية يشترك فيها كل ما عداه، وكما ينفرد الله بالألوهية، كذلك ينفرد تبعاً لذلك بكل خصائص الألوهية، وكما يشترك كل حي، وكل شيء في العبودية كذلك يتجرد كل حي وكل شيء من خصائص الألوهية، فهناك إذاً وجودان متميزان، وجود الله تعالى، ووجود ما عداه من عبيد الله، والعلاقة بين الوجودين، هي علاقة الخالق بالمخلوق، والإله بالعبيد<sup>(١)</sup> وفي ما يلي بيان لهذا التصور .

كانت السمات الحضارية السابقة للإسلام، تبرز في الاهتمام بالمطالب المادية للإنسان، التي غالباً ما تتمثل في حب الذات، والأنانية المفرطة، والتميز العنصري المتمثل في الاستعلاء الطبقي، وهذا من شأنه أن يجعل أصحاب الحضارات يعتمدون على القوة المادية وحدها في تفاعلهم مع تلك الحضارات وتفهمهم لها .

---

(١) سيد قطب ( خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ) ص ٢١٥ ، مرجع سابق .

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ (الفجر).

فعاد قبيلة من العرب البائدة ، وتلقب بإرم أيضاً ، وهم الذين بعث الله فيهم هوداً عليه السلام ، فكذبوه فأهلكهم بريح صرصر عاتية ، وقد كانت لهم خيام ذات أعمدة عالية ، وهم أهل قوة وبطش من الله تعالى بها عليهم ، حيث قال جل شأنه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ (الأعراف) .

فقد كانت لهم يد طولى على من سواهم ، مغرورين بقوتهم متجاهلين الحق والعدل والكرامة الإنسانية لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ (فصلت).

وأما ثمود فهم قوم صالح عليه السلام ، قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتاً ، وفرعون صاحب الجند الذين يشدون له أسرته ، أو صاحب أوتاد يشد بها من يعذبه ، أو بمعنى القوة التي تم له بها ملكه ، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ (العنكبوت). أي بالبغي على أهلها ، وقطع الطريق على الناس وظلمهم ، وأكل حقوقهم ، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ (العنكبوت). وهذه هي عقوبتهم بسبب جورهم وفسادهم ، معتمدين على قوتهم وشوكتهم ، قال تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا

في الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ (العنكبوت). أي ما كانوا يفوتون الله أن يفعل بهم ما يريد<sup>(١)</sup>، قال تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ أي عاقبناه بتكذيبه، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾: يعني قوم لوط، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾: يعني ثموداً وقوم شعيب، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾: يعني قوم نوح وفرعون، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ فيعذبهم على غير ذنب، ﴿لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: بالإقامة على المعاصي .

ويصور الله تبارك وتعالى الذين يعملون في هذه الحياة الدنيا بمحض قوتهم وإرادتهم وتكتلاتهم دون اعتبار لقدر الله تعالى وإرادته كمثل العنكبوت الذي يتخذ له بيتاً معتمداً على قوته، يدفع بها الحر والبرد، ولكن هذا البيت من أوهن البيوت، أي أضعفها، لأنه لا يتحمل مس أدنى الحيوانات، وأضعف الرياح، ولا يدفع شيئاً من الحر والبرد .

وهكذا كانت نظرة الأقبام السابقة للحياة على أنها القوة والغلبة والبطش في الأرض ، وأما العدل والمساواة واحترام حقوق الإنسان، وتوحيد الله الخالص وعبادته وحده، والعمل بشره فلم يكن يعرف ذلك - ماضياً ولا حاضراً - إلا قلة ممن آمنوا برسل الله وبقوا على إيمانهم، فإن معظم حضارات العالم اليوم لم تقم على أسس أخلاقية ثابتة ، بل قامت على أسس نفعية مادية ، وما دامت هي كذلك فلا ضير عند أصحابها أن تنتشر في ظلها الفواحش والمنكرات ، ويألفها الجميع ، فتصبح عرفاً سائداً في مجتمعاتهم ، وعادة مقبولة في نفوسهم كشرب الخمر مثلاً، واعتبار الزنا تكسباً ، والنهب والسلب وأكل أموال الناس بالباطل شجاعة، إلى غير ذلك من الأمور التي أعطتها الأعراف والقوانين البشرية صبغة نفعية مادية .

(١) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ١٣ ص ٢٢٨ مرجع سابق .

ومن هنا فإننا نجد انحرافاً كبيراً في العقيدة لدى كثير من الأمم ، يتمثل هذا في الشرك بالله تعالى ، والتشبيه والتمثيل ببعض مخلوقاته ، كقولهم: الملائكة بنات الله ، وتسمية الله أباً ، وانحرافاً في تطبيق شريعة الله الخالدة ، والإسلام يرفض هذا وذاك، فهو يرى الحياة ميداناً فسيحاً للعمل الجاد المثمر الذي ينتهي بالإيمان بالله .

وفي مجال النظر إلى الكون: يقر الإسلام أن الله تبارك وتعالى ، هو خالق الكون وما فيه ، وأنه تعالى وحده المتصرف فيه ، وأن الجميع يخضع لإرادته ومشيئته ، فالعلم لم يخلق النظريات أو المادة ولم ينشئها ابتداءً ، وكل ما عمله الإنسان أنه اكتشف هذه النظريات والقوانين العلمية ، واستخدمها بحسب أنظمة الله في الكون ، فالله تعالى خالق كل شيء ، ومالك كل شيء ، وواهب كل شيء ، وأن الإنسان مهما بلغت قوته ، وعظمت سطوته ، ومهما قهر من قوى الطبيعة ، وسخرها لمشيئته فهو عبد الله ، وأن الله تعالى هو الذي سخر ما في الكون للإنسان ، فحري به أن يستخدم نعم الله وفق إرادته ، وطبقاً لمشيئته فهو أي الإنسان مستخلف في الأرض لعمارتها وعبادته وحده تعالى ، وقد أكد الإسلام على الإنسان ذلك ، ونهاه عن السلبية بأن يتهاون في حياته أو حياة غيره من إنسان أو حيوان أو نبات ، أو يتهاون في الانتفاع بما سخر الله له في هذا الكون سواء براً وبحراً وجواً .

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ (الحج).

وقال سبحانه: ﴿وَأَيُّهُ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مَنَّ

الْعِيُونَ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾  
سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا  
يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ (يس).

ورغب الإسلام الإنسان في المحافظة على البيئة ، فحرم عليه الإسراف  
والتبذير في استعمال المياه ، ونهى عن التبول في الماء الراكد ، ونهى عن التبرز في  
ظل الناس وفي الطريق العام ، ونهى عن قطع الأشجار إلا لحاجة ضرورية ،  
وحتى في الحروب نهى عن تغريب العامر ، و قطع الأشجار ، كل هذا من  
قبيل المحافظة على البيئة .

وفي مجال النظر إلى الإنسان: يعتبر الإنسان مستخلفاً في الأرض، يخلف  
الناس بعضهم بعضاً لعمارة الأرض، واستثمار خيراتها، وهذا معنى قوله  
تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ (الذاريات).

أي يعرفون الله حق معرفته فيقدرونه حق تقديره ، وقد من الله تعالى  
على الإنسان بالقدرة على تسخير جميع منافع ما في الكون لصالحه ، فالأرض  
خاصة ، والكون وما فيه عامة مسخر للإنسان ومذل له ليتمكن من تحقيق  
هذا الاستخلاف .

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا  
مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ ﴿١٥﴾ (الملك) .

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي  
الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ  
لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٦٥﴾ (الحج) .

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ

وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ (الجمالية).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ (لقمان).

ومن رحمة الله تعالى بالإنسان أن ضمن كل رسالة سماوية تذكيراً قوياً بهذه الخلافة للإنسان حتى لا يفتنه المال ، أو يغريه السلطان ، بل يظل على ذكر دائم وتفكير مستمر ، فقد كانت جميع الرسائل السماوية تتجه بعد غرس التوحيد في القلوب إلى تعميق معنى الاستخلاف حتى يظل ماثلاً أمام العيون ، قال تعالى في سياق هذا المعنى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (الأنبياء) .

وقال جل شأنه: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ (الحج).

وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (النور) .

وحين لا تحسن الأمة الاستخلاف، فإنه سبحانه يزلزل الأرض من تحت أقدامهم، ويسلط عليهم من يغلبهم وينزع الأرض منهم قال سبحانه: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونَ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (الدخان).

إن تسخير الأرض والكون للإنسان واستخلاف الله له في الأرض يقتضي ذلك بالضرورة انتفاع الإنسان بما خلق الله في الكون، واستثماره لما في الأرض من خيرات وثمرات، وقد أطلق القرآن الكريم على هذه المنافع لفظ الطيبات في كثير من آياته كقوله سبحانه: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ﴿٩٣﴾ (يونس) (الإسراء، ٧٠) (الجاثية، ١٦).

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ﴿٧٢﴾ (النحل).

وقوله تعالى: ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْكُمْ الغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ (البقرة).

إلى غير ذلك من الآيات الكريبات، وجعل الله تعالى العمل والسعي لتحصيلها ابتغاء من فضله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ (الروم).

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٧٢﴾ (البقرة).

وبذلك يكون السعي في طلب الرزق، واستثمار ما خلق الله في الكون والانتفاع به أمراً مستحسناً امتثالاً لأمر الله، وابتغاء مرضاته، واستفادة من نعمه الكثيرة، وأن الإعراض عنها انحراف وشذوذ، قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ (الأعراف).

فحين يتنكر الإنسان لهذه الخلافة ، ويسند الملك لنفسه في غير استحياء تقضي سنة الله بإخراجه من هذه الأرض وإجلائه عنها ، كما قال سبحانه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكُمْ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ (إبراهيم).

إن السعي في طلب الرزق والانتفاع بما خلق في الأرض والكون، أو بعبارة أخرى، إن النشاط الاقتصادي عملاً وإنتاجاً واستثماراً واستهلاكاً ليس غاية في ذاته في النظرة الإسلامية، بل هو وسيلة ضرورية تقتضيها طبيعة الإنسان، وفطرته التي فطره الله عليها ، فهو إنسان ذو غرائز يحتاج إلى الطعام والشراب والملبس والمسكن، وقادر على الاستفادة من أنواع المنافع، والتمتع بضرور من المتع ، فتحصيل ذلك كله بالنسبة للإنسان من قبيل الضروريات التي لا بد منها ، أو الحاجيات المطلوبة ، أو الكماليات المرغوب فيها .

والمسلم بهذا النشاط الاقتصادي يعد السعي والكسب، والانتفاع والإستثمار وسيلة لا غاية، فالغاية وراء ذلك هي إرضاء الله بعمل الخير، وبشكره على نعمه، ومراعاة حقوقه وحقوق عباده، والسعي في نفعهم ومعونتهم .

وقد ذم الإسلام الذين يتخذون من جمع المال هدفاً لحياتهم وكسبهم ، كما ذم الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، فكنزهم للمال دليل أنهم اتخذوا المال غاية لذاته<sup>(١)</sup> .

(١) الشيخ محمد المبارك ، « نظام الإسلام » - الاقتصاد ص ٢٦ ، طبعة ١٩٧٤ م .

ومما نود الإشارة إليه ، والتنبيه عليه أن استخلاف الله تعالى عام في عموم البشر ، لا يختص به فريق دون آخر، فالكل عباد الله، وتسخير الأرض وما فيها وعليها لهم جميعاً، وعلى كل فرد من مجموع البشر أن يقوم بأمانة الاستخلاف، ويستفيد من تسخير الكون لمنافعه بقدر استطاعته وحسب قدرته ، ويحسن أداء هذه الأمانة فيقوم بحقوقها .

على أن ما يقتنيه الإنسان ويدخره نتيجة لكسب لا يعطى صاحبه امتيازاً خاصاً ، كما لا يلحق به فقدان المال أو الفقر غضاضة ، ولا ينقص شيئاً من حقوقه الإنسانية والاجتماعية فليس للأغنياء باعتبارهم أغنياء فقط أي امتياز أو حق زائد على غيره ، ولا ينقص الفقر صاحبه حقاً من حقوقه .

وكل إنسان يتحمل نتيجة عمله ونشاطه وهو المسئول عنه ، مسئولية دنيوية بالنسبة لغيره من الناس ، ومسئولية أخروية أمام الله تعالى، فالمسئولية الدنيوية تحددها أحكام الشريعة وتطبق عليه في الدنيا ، والمسئولية الأخروية هي التي تحصل المواجهة بها في الحياة الآخرة أمام الله، فيستشعر المسلم في ضميره رقابة الله له ويخشى عقوبته وحسابه .

وقد حث الإسلام على العمل والنظر والتأمل والتفكير والتدبر ، فمن ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿١٠١﴾ (يونس).

ودعوة القرآن الكريم إلى إيقاظ العقل وحسن النظر، وإعمال الفكر جاءت في كثير من آيات الله، بل لا تكاد تخلو منها سورة من السور، واستيعاب ذلك مما يضيق به المقام، ونكتفي بالإشارة إلى مثال واحد لذلك، قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤﴾ (الرعد).

فالأرض فيها قطع متجاورات تختلف بنية كل منها عن الأخرى رغم تجاورها، ورغم أنها تسقى من ماء واحد فتجد بعضها ينبت الزرع وبعضها لا ينبت، وبعضها يصلح لأنواع معينة من الزرع دون غيرها .

وقال تعالى في سياق مخاطبته العقل البشري: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِي تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ (المؤمنون) .

فإذا سلم الإنسان ابتداءً بأن الأرض وما فيها من صنع الله وإنشائه ، وهو مالکها والمتصرف فيها .

وإذا سلم بأن السماوات السبع هي الله هو منشئها ، وهو ربها ورب العرش العظيم ، وإذا سلم بأن ملكوت كل شيء لله هو المدبر فيه وحده ، وهو الذي يجير بقوته ولا يجار عليه .

إذا سلم الإنسان بكل هذا فقد لزمه أن يسلم بالنتيجة التي تؤدي إليها هذه المقدمات وهي أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وهذا هو سبيل تكوين الأمم وإنشاء الحضارات ، فالتصور الإسلامي هو تصور للمجتمع كله في احتياجاته وإنتاجه، سواء في ذلك الاحتياجات المادية كالمأكولات أو المصنوعات ، أو المعنويات كالتعلم والطب والسياسة والوظائف العامة .

إن المجتمع في التصور الإسلامي هو مجتمع التعاون والتكامل في سائر أنشطة الحياة لا مجتمع التنافس والصراع ، إذ إن المجتمع يتألف من مجموعة أفراد العاملين في مجالات النشاط الاقتصادي النافع للمجتمع ، وهم مسئولون عن كفاية العاجزين من إخوانهم المسلمين .

إن الإنسان هو المستخلف في الأرض، وقد أودعه الله من القوى والقدرات والمزايا ما أهله أن يكون سيد هذا الكون، والقوة الموجهة والمؤثرة فيه، بصلاحه ورشاده تصلح الحياة ويسودها الخير، وبفساده وظلمه وطغيانه وكفره النعم تفسد الحياة ويسودها التناقض، ليس ذلك على مستوى الحياة الاقتصادية فحسب، بل على مستوى جميع العلاقات الحياتية، ولكن ليس معنى هذا أن الإنسان لا يتأثر بالعمل المادي أو الاقتصادي، نعم هو يتأثر به ويؤثر فيه غير أن مفتاح الموقف والكلمة الخيرة تعود إلى الإنسان المتفوق على القوة المادية بقدرته وإرادته وعقله من علاقات اقتصادية وأنظمة.

وهكذا يتضح لنا من خلال ما ذكرنا أن الكون في المذهب الاقتصادي الإسلامي ليس متروكاً للمادة تسيره وتدبره، بل له خالق ومدبر والإنسان خليفة فيه منحه الله من القوى ما جعله مسئولاً عن إصلاحه وتعميره أمام الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة).

ومن خلال ما قدمنا يتضح أن الفطرة البشرية تجد في التصور الإسلامي للكون والاستخلاف فيه ما يلبي أشواقها كلها من معلوم ومجهول، ومن غيب لا تحيط به الأفهام، ولا تراه الأبصار، ومكشوف تجول فيه العقول، وتدبره القلوب، ومن مجال أوسع من إدراكها تستشعر إزاءه جلال الخالق وعظمته، ومجال يعمل فيه إدراكها، وتستشعر إزاءه قيمة الإنسان في الكون، وكرامته على الله تعالى، وتتوازن الكينونة الإنسانية بهذا أو ذاك، وهي تؤمن بالمجهول الكبير، وفي الوقت ذاته تتدبر المعلوم الكبير<sup>(١)</sup>.

(١) بتصرف انظر سيد قطب (خصائص التصور الإسلامي ومقوماته) ص ١٣٩، مرجع سابق.

فالإسلام منهج وسط في الاعتقاد والتصوير، بل وفي كل شيء على نحو ما سيجيء إن شاء الله تعالى، وهذه الوُسطية هي التي ميزت الإسلام وأهله عن الأمم الأخرى، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ﴿١٤٣﴾ (البقرة)، فهي أمة العدل والاعتدال التي تشهد على كل انحراف يميناً أو يساراً عن خط الوسط المستقيم .

## ١ . ٣ . الوسطية في التشريع والأنظمة

### ١ . ٣ . ١ . الوسطية في التشريع

#### مفهوم التشريع الإسلامي

التشريع مصدر للفعل شرع يشرع تشريعاً ، وشرع الدين يشرعه سنّه ، ومنه الشريعة ، والشريعة في لغة العرب تُطلق على الطريقة المستقيمة ، ومنه قوله تعالى: ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ (الجاثية).

وفي القاموس المحيط<sup>(١)</sup>: الشريعة ما شرع الله تعالى لعباده والظاهر المستقيم من المذاهب ، ومنه قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا ﴿٤٨﴾ (المائدة)، أي طريقة مستقيمة لا اعوجاج فيها ولا التواء .

ثم أطلق لفظ الشريعة في لسان الفقهاء على الأحكام التي سنّها الله تعالى لعباده ليكونوا مؤمنين عاملين بها على ما يسعدهم في الدنيا والآخرة .

(١) الفيروز آبادي ( القاموس المحيط ) ج ٣ ص ٤٤ .

ومن الشريعة بهذا المعنى اشتق - شرع - بمعنى أنشأ الشريعة ، فيقال : شرع الدين يشرعه شرعاً ، إذا سنَّ القواعد وبين النظم وأظهر الأحكام<sup>(١)</sup> .  
فالتشريع سنُّ الشريعة وبيان الأحكام وإنشاء القوانين التي تُستمد منها الأحكام لأعمال المكلفين وما يحدث لهم من الأقضية والحوادث<sup>(٢)</sup> .  
وإن كان مصدره الناس - سواء أكانوا أفراداً أم جماعات - فهو التشريع الوضعي .

والتشريع الإسلامي منه ما سنه الله بآيات قرآنية وأحاديث ألهمها رسوله ﷺ ، وأقره عليها ، وهذا تشريع - قانون - إلهي محض .  
ومنه ما سنه مجتهدو المسلمون من الصحابة وتابعيهم والأئمة المجتهدون استنباطاً من نصوص التشريع الإلهي وروحها ومعقولها ، وما أرشدت إليه من مصادر ، وهذا يُعد تشريعاً إلهياً باعتبار مرجعه ومصدره ، ويعد تشريعاً وضعياً باعتبار جهود المجتهدين في استمداده واستنباطه ، ومرادنا في هذا المقام التشريع الإسلامي بنوعيه .

## مدى الحاجة إلى التشريع

ليس يُخفى أن مراد الله تبارك وتعالى في التشريعات كلها منذ النشأة إلى ختمها بتشريع الإسلام واحد وهو حفظ نظام العالم وصلاح أحواله ، إذ لا بد في حياة الناس من نُظم تلم شتاتها وترفه حياتها ، وتضمن لها أسباب النهوض والتقدم ، ويعيش الناس في ظل هذه النظم على قواعد الحق والعدل ، وفي أمن

(١) محمد علي السائس وآخرون (تاريخ التشريع الإسلامي) ص ٦ طبعة ١٩٣٩ م مطبعة صبيح بالقاهرة .

(٢) عبد الوهاب خلاف (تاريخ التشريع الإسلامي) ص ٣ طبعة ١٩٤٢ م .

وسلام ، وقد كرم الله تعالى الإنسان بالعقل لكنه أودع فيه نفساً أمارة بالسوء ، وهو يعيش في صراع بين عقله الهادي إلى الصلاح ونفسه الأمارة بالسوء ، فكان من تمام نعمته عليه أن وضع له التشريعات التي توصله إلى التغلب على النفس ، وسد منافذ الشيطان ، فحملة أمانة التكليف ، وأخذ عليه العهد بأن يعبد ولا يشرك به شيئاً ، وأمه بهداية الرسل عليهم الصلاة والسلام .

والإنسان في حياته الدنيا تتعدد مطالبه ، وتتجدد حاجاته ورغباته بتأثير من ميوله وغرائزه ، وهو مع ذلك محدود الطاقة تتفاوت أفراده في القوة والإدراك ، لذلك كان حتماً عليه أن يتعاون مع بني جنسه يأخذ ليعطي ويعين الناس ليعينوه ، وقد تتعارض ميوله مع غيره لما في طبيعة الإنسان من حب الاستئثار بكل ما يجده ، فيؤدي ذلك إلى التنازع والتخاصم ، فلو ترك الناس وشأنهم لساد فيهم الظلم ، وتغلب الشر وأهله ، فانعدم بذلك التعاطف والتراحم ، فكان لا بد من قيود تحد من الجشع ، ونظام تترتب على أساسه النفس البشرية لتظل كما أراد الله في حمل أمانة التكليف وفي تعارف وتعاطف وإخاء .

ولهذا كان من رحمته سبحانه وتعالى بعباده أن أرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين ، فكانت التشريعات السماوية على اختلاف ضروبها .

### الحكمة من تعدد التشريعات السماوية

خلق الله تعالى الناس ولم يتركهم وشأنهم ، بل اختار لهم نظاماً وأحكاماً تسعدهم في الدنيا والآخرة ، وذلك لأن الإنسان عاجز عن إدراك المغيبات ، ويتأثر تفكيره بمؤثرات من الزمان والمكان والمجتمع ، وهو عاجز عن حمل غيره على طاعته لعدم قدرته على القهر الذي يربي الناس على كمال الطاعة ،

ولهذا جعل تعالى في كل أمة رسولا لها منها، وأيده بالمعجزات ، وأمه بتعاليم السماء لينشر الخير ويعالج الشر ويبلغهم الوعد بالشواب والوعيد بالعقاب: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ ١٦٥ (النساء).

وقد شرع الله تعالى للخلق ما يناسب حالهم ويتلائم مع ظروف حياتهم، وقوة إدراك عقولهم ، وقوة احتمالهم ، لهذا تعددت شرائعه في عباده على لسان رسله عليهم الصلاة والسلام ، ففرض سبحانه من التكاليف على كل أمة ما يتناسب مع هذه الظروف المختلفة ، حتى المعجزات التي أيد الله بها الرسل اختلفت لتكون في كل طور آية الله عند كل فريق يؤمنون بها ، ويصدقون على أساسها دعاء التوحيد: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ ٤٨ (المائدة).

## محتوى التشريع الإسلامي

احتوى التشريع الإسلام على جملة من الأحكام الاعتقادية ، كالأحكام المتعلقة بذات الله تعالى وصفاته ورسله والشواب والعقاب والجنة والنار والموت والبعث والنشور ونحو ذلك من المغيبات .

كما حوى جملة من الأحكام العملية المتعلقة بما يصدر عن المكلفين من تصرفات وأقوال وأفعال وغير ذلك، كالأحكام الخلقية وتكوين الأسرة ونظام حياتها وسياسة الحكم، وموقع الراعي من الرعية، والرعية من الراعي، والعلاقات الدولية، وقواعد العدالة الاجتماعية وسائر معاملات الناس وصلاتهم المالية ، وما إلى ذلك مما يقصد به تنظيم علاقات الناس ، سواء مع بعضهم البعض أو مع الله تعالى كما في العبادات مثلاً .

وهو في كل ذلك إما كلي وإما جزئي ، وقد فسر العلماء الكلية والجزئية باعتبارات ثلاثة:

الأول: أن الكلية هي الأوامر والقواعد التي اشتركت جميع الشرائع في الدعوة إليها كالعقائد من توحيده تعالى واتصافه بكل كمال ، وتنزيه ذاته وصفاته عن كل نقص ، ومكارم الأخلاق كالعدل والإحسان ، والوفاء بالعهد ، والنهي عن الفحشاء والمنكر ، ونحو ذلك .

وقد أطلق على هذا النوع اسم الكلية، لأنها لا تختص بزمان أو حال، أو بعض من العباد، دون زمان أو حال أو بعض آخر ، وبعضهم يسمي هذا النوع باسم: أصلية أو اعتقادية .

وأما التشريعات الجزئية المقابلة لهذا النوع -الكلي- فهي الأوامر المتعلقة بأفعال العباد مما يمكن الاختلاف فيه بين شريعة وأخرى، مثل هيئة الصلاة وعددها ، والصيام والزكاة وما يحل ويحرم من النساء وما يجوز ولا يحل في المعاملات .

وقد سميت هذه جزئية لتعلقها بجزئيات الأعمال ، واختلافها بالزمان والأهم، وقد سمى العلماء هذا النوع: الأحكام الفرعية أو العملية .

الثاني: إن الكلية هي المقاصد العامة التي اتجهت الشريعة الإسلامية إلى حفظها في الناس بواسطة التكاليف ، وهي الضروريات والحاجيات والتحسينيات .

والجزئية على هذا الوجه في التكاليف العملية أو الاعتقادية التي ترجع إلى أي واحد من هذه الثلاثة:

- والضروريات خمس: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ المال ، وحفظ العقل ، وحفظ النسل .

ولهذه الضروريات تكاليف يحفظ بها كل نوع منها وهي من الجزئيات ولو احتوت على تفصيلات .

والحاجيات وهي ما لا بد منه للتوسعة على الناس ودفع الحرج عنهم، وتجري هذه فيما ألزم الله به عباده من العبادات، وما يقع لهم من عادات ومعاملات وجنایات، حيث وقع التخفيف في العبادات بشرعية الرخص كقصر الصلاة، والجمع بين الصلاتين في وقت واحد، والفطر في رمضان بعذر السفر أو المرض، وفي العادات بإباحة الأكل من طيبات الرزق أكثر من المقدار الضروري، والتمتع بما تيسر من مأكول ومسكن .

- وفي المعاملات بشرعية القرض مع تحقق علة ربا الفساد فيه، والسلم مع أنه بيع معدوم .

- وفي الجنایات بالتخفيف على الجاني ما أمكن بفرض الدية على العاقلة في القتل الخطأ ودرء الحدود بالشبهات<sup>(١)</sup> .

- والتحسينات وهي مكارم الأخلاق، وتتحقق في محاسن العادات، وتجنب ما تأنف منه النفوس والعقول . وتجري في العبادات كستر العورات، والتطهر من النجاسة وأخذ الزينة . وفي العادات بآداب الأكل والشرب والابتعاد عن أكل النجس وشرب المستخبث .

- وفي المعاملات بعدم بيع النجاسات وفضل الماء والكلاء .

- وفي الجنایات بعدم قتل الحر بالعبد، وعدم قتل النساء والصبيان في الجهاد.

وبمقتضى هذا الذي ذكرنا تكون الكليات قطعية لا نسخ فيها .

وأما الجزئيات فقد تكون ظنية تحتمل النسخ .

---

(١) مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ١٢، ص ٢.

فالمقاصد العامة كلية لا محالة ، أما ما به حفظ هذه المقاصد فقد يكون نصوصاً جزئية كالنص الوارد بتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، قال ﷺ: « لا تنكح المرأة على عمتها ، ولا العمة على بنت أخيها . ولا المرأة على خالتها ، ولا الخالة على بنت أختها لا الكبرى على الصغرى ولا الصغرى على الكبرى »<sup>(١)</sup> ، أو نصوصاً كلية مثل: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ﴿٧٨﴾ (الحج) وكحديث: « لا ضرر ولا ضرار »<sup>(٢)</sup> .

فهذه النصوص أفادت علة الحكم في محله ، فيمكن تعديته إلى أي محل تتحقق فيه العلة فيأخذ حكم الأول .

الثالث: إن القواعد الكلية العامة التي تشتمل على جزئيات كثيرة تدرج تحتها ، والجزئية بمعنى الأحكام المتعلقة بجزئيات الحوادث التي تعرض للناس في حياتهم ، وقد يرجعون في معرفتها إلى الضوابط الكلية، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ ﴿٤﴾ (المائدة)، يتناول كل طيب من مطعم وملبس، فهو كلي ، ومثل: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ﴿٧٨﴾ (الحج)، كلي يشمل رفع كل حرج أو ما يؤدي إليه ، ومثل: « كل مسكر حرام »<sup>(٣)</sup> .

وبعد هذا الذي قدمناه عن مفهوم التشريع ، ومدى الحاجة إليه ، ومجالاته نأتي إلى بيان وسطية الإسلام في مجال التشريع ، فنبدأ بقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ﴿٢٨٦﴾ (البقرة) ، فالله سبحانه وتعالى لا يطالب عباده المؤمنين إلا بما يسهل عليهم ، قال القاسمي<sup>(٤)</sup> والمعنى: « أنكم إذا

(١) الشوكاني (نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار) ج ٦ ص ١٤٦ مرجع سابق .

(٢) ابن حجر العسقلاني (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١٠ ص ٤٢ .

(٣) ابن حجر العسقلاني (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١٠ ص ٤٢ مرجع سابق .

(٤) القاسمي ، محاسن التأويل ، ج ٣ ص ٣٩٠ مرجع سابق .

سمعتم وأطعتم، وما تعمدتم التقصير، فعند ذلك لو وقع منكم نوع تقصير على سبيل السهو والغفلة فلا تكونوا خائفين منه فإن الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ﴿٢٨٦﴾ (البقرة).

قال القرطبي: «لم يكلفنا الله تعالى بالمشقات المثقلة ولا بالأموال المؤلمة، كما كلف من قبلنا بقتل أنفسهم، وقرض موضع البول من ثيابهم وجلودهم، بل سهل ورفق ووضع عنا الإصر والأغلال التي وضعها على من كان قبلنا فله الحمد والمنة، والفضل والنعمة»<sup>(١)</sup>.

وقال السيوطي<sup>(\*)</sup>: «روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ﴿٢٨٦﴾ (البقرة)، قال: هم المؤمنون، وسع الله عليهم أمر دينهم فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ﴿٧٨﴾ (الحج)، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ ﴿١٨٥﴾ (البقرة)، وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ﴿١٦﴾ (التغابن).<sup>(٢)</sup>

وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ ﴿٧﴾ (الطلاق).

وقال سبحانه: ﴿لَا تَكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ﴿٢٣٣﴾ (البقرة)، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ﴿١٥٢﴾ (الأنعام).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ﴿٤٢﴾ (الأعراف).

(١) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٣ ص ٢٧٧ مرجع سابق.

(\*) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي الشافعي. له تصانيف علمية كثيرة منها: الإتيقان في علوم القرآن، الدر المنثور بالتفسير المأثور، الجامع الصغير، لباب النقول في أسباب النزول، تاريخ الخلفاء وغير ذلك. توفي سنة ٩١١ هـ بالقاهرة.  
(٢) عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (الدر المنثور في التفسير المأثور) ج ٢ ص ١٣٣.

وقال تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ ﴿٦٢﴾ (المؤمنون) .

وظاهر الدلالة من هذه الآيات الكرييات أن الله تعالى لم يكلف عباده المؤمنين إلا في حدود القدرة والاستطاعة ، وهو سبحانه أعلم بذلك على خلاف الأمم السابقة ، فقد شق عليهم في كثير من التكليف وهذا مما يؤكد لنا منهج الوسطية في التشريع والتكليف خصوصاً إذا ما أضفنا إلى هذه الآيات الكرييات قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ ﴿٦﴾ (المائدة) وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ﴿٧٨﴾ (الحج) وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ ﴿٣٨﴾ (الأحزاب)، فهذه آيات كرييات تنفي الحرج والمشقة في جميع التكليف وهذا ولا شك راجع إلى الوسط والاعتدال فلا إفراط ولا تفريط .

ومن هنا فالتوسط هو منبع الكمالات، والتخفيف والسماحة ورفع الحرج على الحقيقة هو في سلوك طريق الوسط والاعتدال الذي هو من سمات أمة الإسلام ، ولهذا قال ﷺ: « بعثت بالحنفية السمحة »<sup>(١)</sup> .

وقال لمعاذ بن جبل<sup>(\*)</sup> ، وأبي موسى الأشعري<sup>(\*\*)</sup> حين بعثهما إلى اليمن: « بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا »<sup>(٢)</sup> .

- (١) الهيثمي (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) ج ١ ص ٦٥ مرجع سابق .  
(\*) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي ، شهد العقبة وبدراً ، من فقهاء الصحابة ، بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن قاضياً ومرشداً ، مات بالطاعون في الأردن سنة ١٨ هـ ، (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) ج ٣ ص ١٤٠٢ لابن عبد البر .  
(\*\*) أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن الأشعر صحابي جليل تولى البصرة في خلافة عمر والكوفة في خلافة عثمان مات سنة ٤٢ هـ (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) ج ٤ ص ١٧٦٢ لابن عبد البر .  
(٢) مسلم ، صحيح مسلم ، ج ٣ ص ١٣٥٩ حديث رقم ١٧٣٣ مرجع سابق .

وكان رسول الله ﷺ مما يدعو به: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَيَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ ﴿٢٨٦﴾ (البقرة)، والإصر هو العهد الثقيل الذي في تحمله أشد المشقة ، والأغلال هي الشدائد التي كانت في عبادتهم .

قال الطبري في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَيَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ ﴿٢٨٦﴾ (البقرة): « التشديد الذي شدته على من قبلنا من أهل الكتاب»<sup>(١)</sup>،

وقال مالك: « الإصر الأمر الغليظ الصعب »<sup>(٢)</sup> .

وقال مجاهد: « من اتبع محمد ودينه من أهل الكتاب ، وضع عنهم ما كان عليهم من التشديد في دينهم »<sup>(٣)</sup> .

وقال سعيد بن جبير<sup>(\*)</sup>: « الإصر شدة العمل وما غلظ على بني إسرائيل من البول ونحوه »<sup>(٤)</sup> .

قال القرطبي: « الإصر في اللغة العهد ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذُلِكُمْ إِصْرِي ﴾ ﴿٨١﴾ (آل عمران)، والإصر الضيق والذنب والثقل ، وعلى كل حال فيمكن أن يؤخذ من ذلك كله كل عبادة ادعى الخصم ثقيلها فهو نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْ عَلَيْنَكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ﴿٧٨﴾ (الحج)، وقوله ﷺ: « الدين يسر فيسروا ولا تعسروا »<sup>(٥)</sup> .

(١) الطبري ( جامع البيان في تفسير آي القرآن ) ج ٣ ص ١٥٨ مرجع سابق .

(٢) الطبري ( جامع البيان في تفسير آي القرآن ) ج ٣ ص ١٥٨ مرجع سابق .

(٣) الطبري ( جامع البيان في تفسير آي القرآن ) ج ٩ ص ٨٥ مرجع سابق .

(\*) سعيد بن جبير بن هشام الوالبي ، مولا هم الكوفي ، المقرئ الفقيه سمع ابن عباس وابن عمر وغيرهم قتله الحجاج سنة ٩٥ هـ ( طبقات الفقهاء ) ص ٧٢ للشيرازي .

(٤) القرطبي ( الجامع لأحكام القرآن ) ج ٣ ص ٢٧٨ مرجع سابق .

(٥) القرطبي ( الجامع لأحكام القرآن ) ج ٣ ص ٢٧٩ مرجع سابق .

ويحتج بهذا كله في نفي الحرج والضيق المنافي ظاهره للحنيفية السمحة، وعلى أن شريعة الإسلام أسهل الشرائع، وأنه تعالى وضع عن أمة محمد ﷺ كل ثقل كان في الأمم السابقة، وإذا علم أن مبنى التكليف على الوسع، زادت الرغبة في ذلك الاكتساب لحصوله بما فيه يسر لا عسر<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر بعض العلماء شيئاً من الآصار والأغلال التي كانت على من قبلنا:

١ - قطع موضع النجاسة من الثوب ومن البدن .

٢ - إحراق الغنائم .

٣ - تحريم السبت .

٤ - قطع الأعضاء الخاطئة .

٥ - تعيين القصاص في العمد والخطأ من غير شرع الدية .

٦ - أنهم أمروا بقتل أنفسهم علامة على التوبة .

٧ - أنه طلب منهم أداء ربع المال في الزكاة .

٨ - عدم جواز الصلاة منهم إلا في البيع .

٩ - حرمة الجماع في أيام الصوم بعد العتمة والنوم .

١٠ - عدم التطهير بالميم .

١١ - كتابة ذنب الليل بالصبح على الباب<sup>(٢)</sup> .

---

(١) القاسمي (محاسن التأويل) ج ٧ ص ٨٤ مرجع سابق.

(٢) صالح بن حميد (رفع الحرج في الشريعة الإسلامية) ص ١٥٨، دار الاستقامة، الطبعة الثانية، ١٤١٢ هـ، الرياض .

وأما في شريعة الإسلام فلا يكلف أحد إلا بما في وسعه واستطاعته ودون بلوغ غاية الطاقة إذ الحرج مرفوع ، والشريعة مبنية على التيسير وعدم التعسير، فهي حنيفية سهلة سمحة ، وبمعنى آخر وسطية بين الشرائع السماوية ، قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ﴿٢٨٦﴾ (البقرة)، والتكليف هو الالتزام بما فيه كلفة ، والوسع ما تسعه قدرة الإنسان من غير حرج ولا عسر ، أو هو ما يسهل عليه من الأمور المقدور عليها ، وهو ما دون مدى طاقته ، فهناك ولا شك أوامر ونواه وتكاليف ، ولكنها في حدود الوسع ، وعدم المشقة ، وليس فيها تضيق وعسر وإحراج.

ومن هذا الذي تقدم كله يتقرر منهج الوسطية في التشريع والتكليف ، فإن الله تعالى ما كلف عباده ما لا يطيقون ، وما ألزمهم بشيء يشق عليهم إلا جعل الله لهم فرجاً ومخرجاً ، ولقد كانت الشدائد والعزائم في الأمم السابقة، فأعطى الله تعالى أمة محمد ﷺ من المسامحة واللين ما لم يعط أحد قبلها ، رحمة منه تعالى وتفضلاً<sup>(١)</sup> ، فأعظم حرج رفع المؤاخذة بما نبدي في أنفسنا ونخفيه ، وما يقترن به من إصر وضع ، ومنها التوبة بالندم ، والعزم على ترك العود في المستقبل ، والاستغفار بالقلب واللسان ، وقيل لمن قبلنا: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ﴿٥٤﴾ (البقرة).

يقول ابن العربي<sup>(\*)</sup>: « ولو ذهب إلى تعديد نعم الله في رفع الحرج لطل المرام »<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن العربي (أحكام القرآن) ج ٣ ص ١٣٠٥ ، مطبعة الحلبي بمصر ، تحقيق علي محمد البجاوي ، بدون تاريخ .

(\*) ابن العربي : هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الأشيلي المالكي ، أبو بكر ، ختام علماء الأندلس ، أخذ عنه القاضي عياض ، له تصانيف منها ، عارضة الأحوذى شرح الترمذي ، أحكام القرآن ، الناسخ والمنسوخ ، مات سنة ٥٤٣ هـ .

(٢) ابن العربي (أحكام القرآن) ج ٣ ص ١٣٠٥ ، مرجع سابق .

ومن جملته أيضاً أنه لا يؤاخذنا تعالى إن نسينا أو أخطأنا فقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن عمرو وغيره أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع ، فجعلوا يسألونه ، فقال رجل : لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح ، قال اذبح ولا حرج ، فجاء آخر ، فقال : لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي ، فقال : ارم ولا حرج ، فما سئل يومه عن شيء قدم ولا أخر إلا قال : افعل ولا حرج<sup>(١)</sup> ، فدل هذا وما قبله من الآيات الكريبات على أن الله تعالى أراد بهذه الأمة اليسر والتخفيف ونفي إرادة العسر والمشقة وأن جملة النصوص الواردة في التيسير والتخفيف جاءت لإرساء قواعد هذا الدين ، فالوسطية ركن من أركان ديمومة هذا الدين وشموله وعالميته .

## ١ . ٣ . ٢ الوسطية في النظام السياسي

### في سياسة الحكم

#### التعريف بالنظام السياسي

السياسة : مصدر للفعل ساس يسوس سياسة ، و ساس الرعية يسوسها ، و ساس الأمر سياسة ، قام به ، و سوس الرجل أمور الناس ، ملك أمرهم ، وهي القيام على الشيء بما فيه مصلحة<sup>(٢)</sup> .

وفي التعريفات الفقهية<sup>(٣)</sup> : السياسة هي استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في الدنيا والآخرة .

---

(١) ابن العربي ( أحكام القرآن ) ج ٣ ص ١٣٠٥ مرجع سابق .  
(٢) الرازي ( مختار الصحاح ) ص ٣٢١ ، مادة سوس طبعة ١٩٨٣ م .  
(٣) محمود السيد عميم الإحسان ( التعريفات الفقهية ) ص ٣٣٠ ، طبعة الهند .

وقال الشيخ عبد الرحمن تاج (\*): السياسة اسم للأحكام والتصرفات التي تدبر بها شؤون الأمة في حكومتها وتشريعها وقضائها، وفي جميع سلطاتها التنفيذية والإدارية في علاقاتها الخارجية التي تربطها بغيرها من الأمم<sup>(١)</sup>.  
ولكل أمة في هذه الأمور سياسة وأحكام خاصة تتفق وعاداتها وأسلوب معيشتها ودرجة رقيها، والسياسة في جملتها غالباً ما تكون:

أ- سياسة دستورية: وهي النظام الأساسي الذي يبين شكل الحكومة، ويحدد سلطاتها، ويضع الطريقة التي تتبع في اختيارها، كما يحدد السلطات اللازمة لتصريف شؤون الأمة، ويقرر الحقوق الواجبة للأفراد والجماعات.

ب- سياسة تشريعية: وهي التي تتعلق بسن القوانين، وإنشاء الأحكام التي تتبعها السلطات المختلفة في تصريف شؤون الأمة ومنها السياسة الجنائية.

ج- سياسة قضائية: وهي التي تختص بتطبيق تلك القوانين والأحكام على الحوادث والقضايا، وبالطريقة التي يسار عليها في هذا التطبيق.

د- وهناك سياسات أخرى مالية وإدارية وتنفيذية وخارجية، وكل واحد من هذه السياسات تتمثل في مجموعة من الأحكام تدبر بها شؤون الأمة في الناحية الخاصة بها.

وجملة هذه القوانين والنظم يمكن أن يطلق عليها اسم السياسة الشرعية، إذا أخذنا هذه الكلمة في معناها الواسع الشامل الذي يتناول أحكام الفقه الإسلامي. والسياسة الشرعية التي تنظم بها مرافق الدولة، وتدبر بها شؤون الأمة يجب أن تتفق مع روح الشريعة الإسلامية، وان تكون نازلة على أصولها الكلية، محققة أغراضها الاجتماعية ولو لم يدل عليها شيء من النصوص التفصيلية الجزئية الواردة في الكتاب أو السنة.

---

(\* من كبار العلماء في مصر، تولى مشيخة الأزهر في الخمسينيات وأواخر القرن الماضي.  
(١) عبد الرحمن تاج (السياسة الشرعية والفقه الإسلامي) ص ٧، طبعة ١٩٥٣ م.

فقاعدة رفع الحرج ، وقاعدة سد الذرائع ، ومبدأ الشورى ، والرجوع بمعضلات الأمور إلى أهل الذكر والرأي هي من أصول الشريعة المحكمة، ومبادئها العامة التي يجب أن تعتمد عليها السياسة الشرعية ، فكل حكم تتطلبه حاجة الأمة ، وكل نظام يؤخذ به في تصريف شؤونها ، فإنه يكون من السياسة الشرعية متى كان قائماً على تلك الأصول الكلية التي لم يقصد بها إلا تحصيل المصالح ، ودفع المفاسد ، فقد كان فقهاء السلف يعملون بقاعدة سد الذرائع فيسدون باب بعض المباحات إذا اتخذها الناس مسلكاً لشيء من المحظورات .

وقد يراعون في اجتهاداتهم ما اعتاده الناس وجرى به عرفهم ، كما كانوا يسيرون على قاعدة الاستحسان وغيره من القواعد الأخرى .

ونظراً لأن المصالح تختلف باختلاف الظروف والأحوال ، وأن عرف الناس يختلف من زمن إلى آخر ، وأن عرف أمة قد يغير عرف أمة أخرى في الزمن الواحد ، فإن ما خلفه الفقهاء الإسلاميون من أحكام جزئية<sup>(\*)</sup> روعيت فيها مصالح الناس وعرفهم في الوقت الذي استنبطت فيه ، لا يصح أن يؤخذ قانوناً دائماً ، وشريعة ثابتة تطبق مع اختلاف أوجه المصلحة وتغير العرف .

فإذا اختلف العرف ، أو تبدلت أوجه المصلحة كان لنا أن نغير في الأحكام ، فنعدل منها ، أو نأخذ بغيرها على ما تقضي به المصالح الراهنة .

فباسم السياسة الشرعية يستطيع ولاة الأمور أن يسنوا من القوانين ما يحقق مصلحتها ، ويستجيب لداعي حاجاتها العارضة ومطالبها المتجددة ، مما لا نجد له دليلاً خاصاً من الكتاب أو السنة أو الإجماع .

---

(\*) خلافاً للأحكام الثابتة ، فهي لا تتغير ولا تتبدل ، ولا تختلف المصلحة فيها باختلاف الأحوال والأزمان .

- ١ - فمن السياسة في التشريع ما فرضه عمر بن الخطاب من ضريبة الخراج.
- ٢ - ومن السياسة في التشريع الحد في شرب الخمر ثمانون جلدة، كما فعله عمر وقد كان العمل به على خلاف ذلك<sup>(١)</sup>.
- ٣ - ومن السياسة في التشريع ما أمضاه عمر من الطلاق الثلاث بكلمة واحدة، حيث كان يعتبر واحدة في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر، ولما تتابع الناس في الطلاق جعلها عمر ثلاثاً سداً للذريعة<sup>(٢)</sup>.
- ٤ - ومن السياسة الشرعية أن يحكم بقتل المجرم المفسد إذا كان في قتله مصلحة.
- ٥ - ومن السياسة الشرعية التصوير الشمسي لعظم منفعته، وحاجة الأمة إليه<sup>(٣)</sup>، إلى غير ذلك من السياسات التي تحقق مصالح الأمة، وتتمشى مع أسباب نهوضها، ومراحل تطورها، وهي في جملتها لا تكون جديرة باسم السياسة الشرعية إلا إذا كانت في درجة الاعتدال، وسطاً بين الإفراط والتفريط، تقدم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد.

والسياسة على ما يؤخذ من تبصرة ابن فرحون نوعان سياسة ظالمة يجرمها الشرع، وهي ما كانت مصادمة لدليل من الأدلة الشرعية من كتاب أو سنة أو إجماع، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظلم وتدفع كثيراً من المظالم، وهذه يجب المصير إليها، والاعتماد عليها في إظهار الحق وهي إن استعملت على وجه يتوصل به إلى الحقوق من غير إفراط فيها ولا تفريط فهي ممدوحة والواجب على الإمام أن يسلكها خصوصاً في باب التعزيرات ما لم يرد فيه حد مقدر من

---

(١) أبو الوليد الباجي (المنتقى) ج ٣ ص ١٤٤، مطبعة السعادة بمصر، ط ١، ١٣٢٢هـ.  
(٢) ابن تيمية (مجموع الفتاوى) ج ٤ ص ١٨ مرجع سابق.  
(٣) تاج (السياسة الشرعية والفقہ الإسلامي) الطبعة الأولى ١٩٥٣م، مصر مرجع سابق.

الشارع ، وفي باب الوصول إلى تعرف الحقيقة لتحليل الشاهد والاستقصاء معه في تأدية الشهادة سيما في الأزمنة التي شاعت فيها شهادات الزور ، وقل فيها التمسك بأوامر الدين ، وعلى الجملة فهذا باب واسع ، ولولاة الأمور أن يستعملوه في سبيل تنفيذ أحكام الله تعالى ، ودرء المفسد دون أن يخالفوا نصاً صريحاً من كتاب أو سنة أو إجماع ، فسبيلهم في ذلك سبيل المنفذ لأوامر الله تعالى التي ترجع في مجموعها إلى رعاية ما فيه مصلحة العباد تفضلاً منه سبحانه وتعالى وإحساناً ، وليس معنى السياسة الشرعية تغيير معالم الشرع الشريف وإحداث قوانين وأحكام لا يقرها الشرع ، وذلك منهي عنه .

هذا وقد استكثر (ابن فرحون) (\*) من ذكر أمثلة للسياسة الشرعية وقعت في عهد الخلفاء الراشدين ، وكلها لا تخرج عما قرر بها في تحديد السياسة الشرعية التي هي حق واجب على ولي الأمر استعماله عند الحاجة إليه وهي مما لا تتنافى مع الدين ، ويؤيد ما قلناه أيضاً ما جاء في إعلام الموقعين عن رب العالمين (١) ما نصه: وجرت في ذلك (العمل بالسياسة) مناظرة بين أبي الوفاء ابن عقيل وبين بعض الفقهاء ، فقال ابن عقيل: العمل بالسياسة هو الجزم ولا يخلوا منه إمام . وقال الآخر .. لا سياسة إلا ما وافق الشرع فقال ابن عقيل السياسة ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد ، وإن لم يشرعه الرسول ﷺ ولا نزل به وحي (٢) فإن أردت بقولك لا سياسة إلا في ما وافق الشرع أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح ،

---

(\*) برهان الدين إبراهيم بن علي بن أبي القاسم بن محمد بن فرحون فقيه مالكي ، له تصانيف منها تبصرة الحكام في أصول الأفضية ومناهج الأحكام ، توفي سنة ٧٩٩هـ .  
(١) ج ٣ ص ٥٤٢ لابن قيم الجوزية ، والشيخ عبد الرحمن تاج (السياسة الشرعية والفقهاء الإسلاميين) ص ١٤ مرجع سابق .  
(٢) ابن قيم الجوزية (الطرق الحكمية) ص ٣ ، مطبعة الآداب والمؤيد ، بدون تاريخ الطبعة .

وإن أردت ما نطق به الشرع فغلط وتغليط للصحابة ، فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والمثل ما لا يجحده عالم بالسير ، ولو لم يكن إلا تحريق المصحف كان رأياً اعتمدوا فيه على مصلحة . وكذلك تحريق علي رضي الله عنه الزنادقة في الأخاديد ، ونفي عمر نصر بن حجاج أ. هـ .

ومنه يعلم أن السياسة الشرعية لا تصادم الشرع الشريف، بل لا بد أن تكون راجعة إلى نص كلي فيما لا نص فيه بخصوص، ومرجعها إلى اتخاذ التدابير في تنفيذ الأحكام الشرعية، وفيما يعود على الأمة بالمصلحة العامة من درء مفسدة أو جلب مصلحة، أما السياسة التي تعطل نصاً قد ثبت عن الشارع إطلاقه وعدم تقييد العمل به بوقت دون وقت فليست من السياسة الشرعية، بل هي من القسم الأول. وهي السياسة الظالمة التي يجرمها الشرع الشريف .

وقد منحت الشريعة الإسلامية ولاية الأمور صلاحيات واسعة في أن يعملوا ما تقضي به المصلحة مما لا يخالف أصول الشريعة ومبادئها العامة وقواعدها الكلية، فهي ترعى مصالح الناس في تدبير شؤون حياتهم من إثبات حقوقهم ودفع الأضرار عنهم، ونحو ذلك مما يكفل سعادتهم فإن تدابير شؤون الخلائق والعمل على الارتقاء بهم نحو الكمال، بإقامة الحق بينهم، والفصل في المنازعات، وقطع دابر الخصومات بالقضاء العادل جزء لا يتجزأ من رسالة الحكم وسياسته، إذ لا يستقيم حكم صالح إلا بقضاء صالح، ولا تتم رسالة التشريع إلا برسالة القضاء ولهذا أصبح تدبير شؤون الناس وتنظيم حياتهم بما يكفل لهم الاستقرار والأمن من لوازم الحياة الاجتماعية .

وهذا هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ، ولا مخالفة فيه للفطرة أو للعقل ، إذ هو المنهج الذي يحقق السعادة لكل معتنقيه ولعموم الخلائق إن هم امتثلوا إليه وعملوا به كلاً لا يتجزأ .

وهذا هو ما ميز أمة الإسلام عن غيرها في مجال السياسة والحكم على خلاف النظريات الأخرى الذي أخذ بها كثير من الخلائق .  
فقد تعددت آراء الفلاسفة والمفكرين حول النظرية السياسية للدولة ،  
وتحديد السند الشرعي للسلطة ، أو تبرير وجوب طاعة المحكومين للحكام .  
وأشهر هذه النظريات هي :

### أ - النظرية الدينية

وهذه النظرية تعرف في الفكر الغربي بحق الملوك الإلهي ، وقد نشأت  
هذه النظرية بشكل واضح في القرن السادس عشر ، وكان الدافع إلى نشأة  
هذه النظرية ، هو بحث كثير من الدول الأوروبية عن وسائل تكفل النظام  
والثبات السياسي ضد أخطار الحروب الدينية ، وضد تسلط رجال الدين في  
شئون الحكم .

وليس معنى هذا أن الملك مطلق الحرية في أن يفعل ما يشاء ، فحيث  
إنه في مكان أعلى من الآخرين ، فمسئولته أعلى من الآخرين ، فشرعية الله  
ملزمة له .

### ب - النظرية الديمقراطية

وهذه النظرية تقوم على مبدأين أساسيين :

الأول : الحكم الشعبي أو حكم الشعب لنفسه عن طريق اختياره لحكامه  
أولاً ، وعن طريق قيامه بالرقابة عليهم واشتراكه المتصل في أمور  
الحكم ثانياً :

الثاني: مبدأ الحريات الفردية ، أي وجود حقوق وحرّيات للأفراد يمتنع على الدولة إهدارها أو المساس بها ، بحيث تعتبر قيدياً على سلطات الدولة وسلطات الحكم .

والديمقراطية الحديثة بهذا المعنى قد وجدت أصولها الفكرية في نظريات سياسية مختلفة أهمها:

### نظرية القانون الطبيعي:

ومؤدى هذه النظرية أنه إلى جوار القانون الوضعي الذي يضعه الناس للناس، توجد فواعد أزلية في نشأتها، مطلقة في عدالتها، يمكن أن تسمى بقواعد القانون الطبيعي، وهذا القانون يسود بحكم خصائصه تلك على كافة القوانين التي يضعها الناس للناس، والتي ليست في حقيقتها إلا محاولات جزئية ناقصة لاستخلاص هذه الأحكام العامة الخالدة، ومن أهم المثل التي خدمتها فكرة القانون الطبيعي ، وجود حقوق فردية مستقلة عن كل قانون وسابقة على نشأة الدولة، ومرتبطة بالإنسان بحكم كونه إنساناً، استمداداً من القانون الطبيعي الذي يعلو على كل تنظيم سياسي .

### نظرية العقد الاجتماعي:

هذه النظرية مؤداها أن الناس كانوا قبل نشأة الجماعة السياسية يعيشون على الفطرة ، متمتعين بحقوقهم وحرّياتهم المطلقة ، فلما تبينوا استحالة استمرارهم على هذه الحالة ، اجتمعوا وقرروا تكوين جماعة منظمة يعيشون فيها بدون عدوان ، وعلى ذلك يكون التراضي أساساً لنشأة الجماعة ، وتكون السلطة السياسية وليدة التعاقد ومردّها إلى إرادة الأمة ، ولا تكون امتيازاً أو حقاً شخصياً للحاكم .

## نظرية المنفعة :

يرى أصحاب هذه النظرية أن الغرض من قيام الدولة ينبغي أن يكون توفير أكبر قدر ممكن من السعادة لأعظم عدد من الناس ، وليس هناك من حق ما لم يكن مصدره القانون الذي ليس إلا مجرد أمر من ذي السلطان ، أما حقوق الإنسان الطبيعية التي ذهب إليها أنصارها فلا أثر لوجودها ولا قيمة لها ، والدولة والقانون إنما يستمدان وجودهما من نفعهما العام ، وطاعتها واجبة على أساس هذا النفع ، ومقياس السعادة عند أصحاب هذه النظرية هو: وفرة القوت والرخاء والمساواة والأمن وهو أكبرها شأنًا .

## الخلاصة:

مما تقدم نعلم أن الديمقراطية الحديثة تقوم على نظريات العقد الاجتماعي أو المنفعة ، على اختلاف في وجهات النظر ، حيث رأينا أن منهم من يجعل الأفراد هم الأساس في العقد ، ومنهم من يجعل الجماعة بعد تكوينها هي الأصل ، ولا وجود للفرد ولا لحقوقه الطبيعية التي اقتضتها طبيعته كإنسان ، ومنهم من ينظر إلى المنفعة العامة أو القاصرة .

والنظرية الإسلامية هي نظرية وسط بين كل ذلك ، فالإسلام يقر للفرد قبل نشوء الحكومات حقوقاً طبيعية تثبت له كإنسان كما يثبت ذلك من النصوص التي تقرر كرامة الإنسان واستخلافه في الأرض وتسخير ما في الكون من مخلوقات لخدمته ، والإسلام يعتبر الرضا أساساً لنشأة السلطة السياسية في الجماعة ، وهو ما تقول به نظرية العقد الاجتماعي ، فإن الإمامة عقد يثبت بالاختيار والاتفاق كما هو عند جمهور المسلمين .

## الفرق بين نظام الإسلام السياسي والنظريات الديمقراطية الغربية

الفرق بين نظام الإسلام والديمقراطية المعاصرة فارق جوهري فيما يتصل بطبيعة السيادة الشعبية، فالسيادة الشعبية في الديمقراطية الغربية معناها أن ما تقرره أغلبية الجماعة يكون قانوناً نافذاً، ومعنى استقرار السيادة في الشعب أن إرادته هي العليا، وأنها في أمور السياسة والحكم والتشريع تبرم ما تشاء وتنقض ما تشاء، لا يجدها في ذلك حد.

أما الدولة الإسلامية فلا تأخذ بهذا النظر على إطلاقه وإنما هي دولة من طراز خاص، لأن الحكام والمحكومين فيها مقيدون بفكرة معينة، وبمجموعة من القيم الخلقية والتشريعية التي تكون إطاراً ملزماً للجماعة بأسرها، وهذا الإطار هو ما يسميه علماء القانون المعاصرون بالقانون الأساسي للجماعة أو الدستور الجامد الذي لا تملك أغلبية نواب الشعب تعديله، كما تملك تعديل سائر القوانين، وبهذا الدستور الثابت تميز النظام الإسلامي السياسي بأنه نظام يطلق عليه في العصر الحديث نظام قانوني، أي يخضع الحاكم والمحكوم فيه لحكم القانون، وينزلون على مقتضاه، بناء على قوله ﷺ: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»<sup>(١)</sup>.

فسلطة الحاكم والمحكوم، وسلطة الأمة أغليتها وإجماعها مقيدة بهذا الإطار القانوني.

---

(١) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١٣ ص ١٢١، ومسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ١٢ ص ٢٢٧ باختلاف يسير في بعض ألفاظه.

هذا الإطار محدود في أمور المعاملات والحدود ونحوها ، أما في السلوك فهو محدود بحدود الأخلاق التي اعتنى بها الدين الإسلامي ، وما عدا ذلك فيترك للأفراد وما منحهم الله من حقوق طبيعية باعتبارهم متساويين في الإنسانية .

فالحكومة في الإسلام حكومة قانون وليست حكومة رجال كما هو عند رجال القانون الوضعي ، وعلى هذا فالإسلام مجرد تصرفات الحكام المخالفة للقانون - ولو كانت صادرة بأغلبية أهل الشورى - من كل قيمة ملزمة إذا كانت متعارضة مع حدود هذا الإطار القانوني الأساسي .

والسلطة العليا للجماعة الإسلامية سيادة أو سلطة مزدوجة ذات محورين :  
- سيادة معلقة للدستور الثابت ، أي لحدود الله المبينة في الكتاب والسنة .  
- وسيادة شعبية محدودة لجمهور المسلمين ، أي لأغليتهم فيما دون هذه الحدود .

وأساس هذا الازدواج أن الإسلام لا يترك الناس لأهوائهم ، ولا يرى في الكثرة وحدها دليلاً قاطعاً على الصواب ، كما هو الحال في النظم الديمقراطية التي تعول على رأي الأغلبية عن طريق الاستفتاءات أو البرلمانات في كل الأمور ، قال تعالى : ﴿وَإِنْ تَطَعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿١١٦﴾ (الأنعام) . ويقول جل شأنه : ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ ﴿٣٦﴾ (يونس) .

وليس معنى ذلك أن النظرية الإسلامية تستبعد السيادة الشعبية أو أن النظام السياسي الإسلامي ينكر الحكم عن طريق الأغلبية ، وإنما هي تفرق بين مجالين :

أ- مجال النص القطعي الواضح .

ب- مجال النص الغامض ، أو عدم وجود نص .

فإذا كان في الأمر نص صريح واضح فليس للأغلبية بل ولا لإجماع الأمة من سبيل .

أما في المجال الآخر حيث يكون النص محتمل التأويل، أو حيث لا يعالج المسألة نص على الإطلاق، فإن الإسلام هنا يجعل الوزن الأكبر لرأي الجماعة جاعلاً منه دليلاً على الحق، وشاهداً له عند انعدام المعيار الموضوعي الذي يكشف عن الحق في ذاته المستمد من النص القطعي، وفي ذلك يقول ﷺ: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن»<sup>(١)</sup>، ويقول أيضاً: «ولا تجتمع أمتي على ضلالة»<sup>(٢)</sup>.

وأما بالنسبة لحكم القاضي والحاكم وولي الأمر فقد جاء الأمر صريحاً في كل النصوص بالحكم بالعدل بين العدو والصديق، والقريب وغير القريب على حد سواء .

ومن هذه النصوص الواردة في هذا الشأن، قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء) ٥٨ .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل) ٩٠ .  
وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ (الأعراف) ٢٩ .

(١) السخاوي (المقاصد الحسنة) ص ٥٨١ ، حديث رقم ٩٥٩ .

(٢) أحمد بن حنبل (المسند) ج ٥ ص ١٤٥ . المكتب الإسلامي ، دمشق ، ١٣٩٨ هـ .

وقوله تعالى: ﴿فَاخِمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٢٦﴾﴾ (ص).

وقوله تعالى: ﴿فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ﴿١٥﴾﴾ (الشورى).

يقول عز وجل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هَوَٰءَ أَقْرَبَ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٨﴾﴾ (المائدة).

ويقول عز وجل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ (المائدة).

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴿١٥٢﴾﴾ (الأنعام)  
يعني إذا حكمتم بين الناس فتكلمتم، فقولوا الحق بينهم، واعدلوا وأنصفوا ولا تجوروا، ولو كان الذي يتوجه الحق عليه والحكم ذا قرابة لكم ولا يحملنكم قرابة قريب، أو صداقة صديق حكمتم بينه وبين غيره أن تقولوا غير الحق فيما احتكمتم إليه فيه<sup>(١)</sup>.

فكل الآيات الكريهات الواردة في الحكم تأمر بالعدل والإنصاف مع الجميع ودون محاباة أو تمايز، وذلك طريق الوسط الذي لا ميل فيه ولا اعوجاج، ولا إفراط ولا تفريط.

(١) الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ج ٨ ص ٨٦ مرجع سابق.

## في الشورى وحكمتها

وفيه مسألتان:

الأولى: التعريف بالشورى .

الثانية: حكمة مشروعية الشورى .

## المسألة الأولى: التعريف بالشورى

### الشورى في اللغة:

الشورى مصدر الفعل (شار) قال ابن منظور: الشورى والمشورة ، بضم الشين ، مفعلة ولا تكون مفعولة ، لأنها مصدر ، والمصادر لا تجيء على مثال مفعولة ، وإن جاءت على مثال مفعول ، وكذلك المشورة ؛ يقال: شاورته في الأمر واستشرته بمعنى ، وفلان خيرٌ شير أي يصلح للمشاورة . وشاوره مشاورة وشواراً واستشارة: طلب منه المشورة... وأشار عليه بالرأي وأشار يشير إذا ما وجه الرأي<sup>(١)</sup>

ومن معاني الشورى ، ما قاله الفيروز أبادي: أشار عليه بكذا: أمره ، وهي الشورى والمشورة: مفعلة لا مفعولة . واستشارة: طلب منه المشورة<sup>(٢)</sup> . وعند الزمخشري ، أن الاستشارة هي طلب الرأي من المستشار . يقول الزمخشري: استشاره فأشار عليه بالصواب وشاوره وتشاوروا واشتورا ، وعليك بالمشورة والمشورة في أمورك ، وترك عمر رضي الله عنه الخلافة شورى<sup>(٣)</sup> .

(١) ابن منظور : (لسان العرب) مادة شورج ٤ ص ٤٣٧ .

(٢) الفيروز أبادي (القاموس المحيط) مادة شور ، ص ٤٢١ .

(٣) أبو القاسم محمود بن عبد عمر الزمخشري (أساس البلاغة) مادة شورج ١ ص ٥٠٨ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ م .

وجاء كذلك أن الاستشارة بمعنى المراجعة ليرى المستشار رأي المستشار. يقول شاورته في كذا واستشرته: راجعته لأرى رأيه فيه فأشار علي بكذا: أراني ما عنده من المصلحة، فكانت إشارة حسنة، والاسم المشورة... وتشاور القوم واشتوروا، والشورى اسم منه (١).

ويقال: «المشاورة مشتقة من شار إذا اختبر جريها، وفعل شار الدابة مشتق من المشوار وهو المكان الذي تركض فيه الدواب. وأصله معرب من الفارسية. وقيل مشتقة من شار العسل أي جناه من موضعه، وبها يستخرج الحق والصواب، إنما تكون في الأمر المهم المشكل من شؤون المرء في نفسه، أو شؤون القبيلة، أو شؤون الأمة» (٢).

وقال الراغب: «والتشاور والمشاورة والمشورة، استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض من قولهم: شرت العسل إذا اتخذته من موضعه واستخرجته منه، قال تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾. والشورى الأمر الذي يتشاور فيه» (٣).

وقيل: «المشاورة مأخوذة من قولهم: شرت العسل أشوره إذا أخذته من موضعه واستخرجته، وقيل: مأخوذة من قولهم: شرت الدابة شوراً إذا عرضتها، والمكان الذي يعرض فيه الدواب يسمى مشواراً، كأنه بالعرض يعلم خيره وشره، فكذلك بالمشاورة يعلم خير الأمور وشرها» (٤).

- 
- (١) الفيومي (المصباح المنير) مادة شور، ص ٣٢٧ مرجع سابق.  
(٢) محمد الطاهر ابن عاشور (تفسير التحرير والتنوير) ج ٣ ص ١٤٦ - ١٤٧. الدار التونسية للنشر والتوزيع ١٩٨٤ م  
(٣) الراغب الأصفهاني (المفردات في غريب القرآن) مرجع سابق.  
(٤) الفخر الرازي (التفسير الكبير) ج ٩ ص ٥٤ مرجع سابق.

من خلال النظر في المعاني اللغوية نلاحظ ما يأتي:

- ١ - أن الشورى تكون بين طرفين، بغض النظر عن العدد الذي يمثله كل طرف .
- ٢ - أن الأطراف تجتمع حول أمر معروض للنقاش للتفكير فيه، وإبداء الآراء ووجهات النظر المختلفة، في سبيل الوصول إلى أجود الآراء وأفضلها مما في العقول .
- ٣ - أن ثمة علاقة بين استخراج العسل من الخلية، واستخراج الرأي من العقول. فالعسل أفضل ما في الخلية، والرأي المستخرج بالشورى أفضل .
- ٤ - في الشورى «استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض» كما قال الراغب الأصفهاني، أي أن الأفكار والآراء لا تجتمع وتتلاقح وتتكامل وتتناسق إلا عن طريق الشورى، وينتج عن ذلك التفكير الجماعي، والعقول المفكرة المجتمعة، الرأي الجيد الصائب المقبول النافع، يقدم للحاكم هدية من الأمة، وأهل الشورى فيها، كما ينتج العسل من اجتماع جهود شغالات النحل التي تأخذ أحسن ما في الورود والأزهار من شذى ورحيق»<sup>(١)</sup> .

## الشورى اصطلاحاً

عرف أبو بكر بن العربي الشورى بقوله: «هي الإجتماع على الأمر ليستشير كل واحد منهم صاحبه، ويستخرج ما عنده في جميع جوانب الحياة»<sup>(٢)</sup> .

وذهب الدكتور قحطان الدوري إلى أن هذا التعريف «لا يستقيم في علم المنطق، لأن كلمة (ليستشير)، واردة في تعريف الشورى، مع أن المقصود

(١) صلاح الخالدي (الشورى في القرآن) بحث في موسوعة الشورى في الإسلام .

مؤسسة آل البيت (الأردن) ص ٥١ .

(٢) ابن العربي (أحكام القرآن) ج ١ ص ٢٩٧ مرجع سابق .

من التعريف تفهيم المعرف بالمعرف ، فإذا كان كل واحد منها يتوقف فهمه على الآخر ، فهذا يعني توقف الشيء على نفسه ، وهو الدور الباطل»<sup>(١)</sup> .  
وعرفها الراغب في المفردات بأنها «استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض»<sup>(٢)</sup> .

وعرفها الأستاذ عبد الرحمن عبد الخالق بأنها «استطلاع الرأي من ذوي الخبرة فيه للتوصل إلى أقرب الأمور للحق»<sup>(٣)</sup> .

واعتبر الدكتور عبد الحميد الأنصاري في كتابه «الشورى وأثرها في الديمقراطية أن هذا التعريف يصدق على نوع خاص من الشورى ، هي الشورى الفنية الخاصة باستشارة أهل الرأي والخبرة في المسائل الفنية»<sup>(٤)</sup> .

وعرفها الأنصاري بقوله: الشورى هي «استطلاع رأي الأمة أو من ينوب عنها في الأمور المتعلقة بها»<sup>(٥)</sup> .

واعتبر الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى في بحثه «خصائص الشورى ومقوماتها» أن السمة الفقهية غير واضحة في هذه التعاريف ، وأن سلطان الدلالة اللغوية هو المتغلب عليها . واعتبر أن أجمع تعريف للشورى بمعناها الفقهي العام الشامل لمختلف أنواعها ، هو القول إنها: «رجوع الإمام أو القاضي أو آحاد المكلفين في أمر لم يتبين حكمه بنص قرآن أو سنة

---

(١) قحطان الدوري (الشورى بين النظرية والتطبيق) ص ١٤ مطبعة الأمة، بغداد، ١٩٧٤ .

(٢) الراغب الأصفهاني (المفردات في غريب القرآن) ص ٢٧٢ مرجع سابق .

(٣) عبد الرحمن عبد الخالق (الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي) ص ١٤ ط ٢ - الدار السلفية . الكويت ١٩٨٨ م .

(٤) عبد الحميد الأنصاري (الشورى وأثرها في الديمقراطية) ص ٤ ط ٢ - المكتبة العصرية . بيروت .

(٥) المرجع السابق ، ص ٤ .

أو ثبوت إجماع إلى من يرجى منهم معرفته بالدلائل الاجتهادية من العلماء المجتهدين ، ومن قد ينضم إليهم في ذلك من أولي الدراية والاختصاص»<sup>(١)</sup>. ولو تمعنا في التعاريف التي ذكرها العلماء لمفهوم الشورى ، لوجدنا أن كل عالم يبرز جانب اختصاصه في مفهومه للشورى ، فاللغوي يبرز الجانب اللغوي ، والفقيه يبرز الجانب الفقهي ، والسياسي يبرز الجانب الدستوري وعلاقة الشورى بالحكم .

وبالنظر في كل هذه التعاريف يبرز لنا المفهوم التربوي والأخلاقي للشورى وهو: الاجتماع على رأي بعد النظر فيه ..... لا بعقل واحد ولا بخبرة واحدة ولكن بمجموعة من العقول والخبرات ، ليكون الرأي بعد ذلك أقرب إلى الصواب ، وأقوم سيلا وأهدى طريقة .

وبذلك تظهر لنا ثمرة المشاركة بين الجميع ، وأهمية التعاون بين الأفراد، والتمازج بين الآراء ، وصولاً إلى قرار يخدم الأمة، ويحقق المصلحة ، ويلتزم جانب الصواب ، فلا غلو ولا إفراط ولا تفريط ولا استبداد وإنما كل ذلك يتم على أساس من المشاركة البناءة في صنع القرار ، والاحترام المتبادل بين الأطراف المشاركة فهي بذلك الأمثل والأعدل والأفضل والأخير في اتخاذ القرار .

## المسألة الثانية: حكمة مشروعية الشورى

إنه لمن المسلمات العقلية أن يكون الرأي الذي يصدر عن الجماعة بعد التشاور أكثر ملاءمة للواقع الذي يراد أخذ الرأي فيه، لأن التشاور في المسألة إما أن تكون شرعية والناس متفاوتون في الإحاطة بفهمها وأدلتها. فما عند

---

(١) محمد سعيد رمضان البوطي (خصائص الشورى ومقوماتها) بحث في : موسوعة الشورى في الإسلام . مؤسسة آل البيت (الأردن) : ٢ / ٤٩٨ .

شخص من البراهين قد لا يكون عند غيره، وإما أن تكون في أمر فني فإنه حينئذ يكون لأصحاب الخبرة في مجاله وميدانه.

أما إن كان الرأي في عمل تريد الأمة أن تقوم به فإن الرأي الذي يصدر عن جماعتهم المعبر عن إرادتهم يتبع، وإن كان مجانباً للصواب ما دامت الجماعة قد رضيت القيام به فهذا شأنها وحدها. والله تبارك وتعالى حين وصف المؤمنين ذكر من صفاتهم التي يجبها أنهم لا يرمون أمراً إلا بعد الاجتماع على الرأي يتشاورون فيه بقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ﴿٣٨﴾ (الشورى). ولا تكون صفات المؤمنين إلا خيراً وأمرًا يرغب فيه الشارع الحكيم. لذلك توجه الأمر إلى رسول الله ﷺ بطلب مشاورة المسلمين في الأمور بقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ﴿١٥٩﴾ (آل عمران) في سياق إرشاد الرسول ﷺ بالتودد إلى جماعة المسلمين بوصفه رئيساً للدولة الإسلامية.

فجاءت الشورى إلى جانب صفة الرحمة واللين والابتعاد عن الفظاظة والعفو عن زلاتهم وهفواتهم والاستغفار لهم.

وظاهر الآية يرشد إلى أنها جاءت تبين سلوكاً يجعل رئيس الدولة محبوباً مرغوباً لدى جماهير الناس وجميع النصوص الشرعية التي وردت في مشروعية الشورى لم تنص صراحة على حكمة الشورى.

ولكن الشارع العظيم لما جعلها ضرباً من ضروب الحياة السياسية في الإسلام فلا بد وأن يكون لها أثر في نظام الحكم على مستوى الحكام والمحكومين. فما حكمة الشورى؟ وما الآثار السياسية المترتبة على ممارستها في الدولة الإسلامية؟

اختلف أهل التأويل وجمهور العلماء وتعددت أقوالهم في حكمة  
مشروعية الشورى إلى ستة أقوال وهي:

### القول الأول: إرشاد الحكام لممارسة الشورى في الحياة السياسية:

وقد ذهب إلى هذا الرأي كل من الحسن البصري، عبد الله بن عباس،  
سفيان الثوري<sup>(\*)</sup>، ابن تيمية. عن الحسن أنه قال: (قد علم الله تعالى ما به  
إليهم حاجة ولكن أراد أن يستن به من بعده.

وعن ابن عباس، قال: «لما نزلت ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ قال رسول  
الله ﷺ أما إن الله ورسوله لغنيان عنها ولكن جعلها الله تعالى رحمة لأمتي  
فمن استشار منهم لم يعدم رشداً ومن تركها لم يعدم غيا»<sup>(١)</sup> وروي ذلك  
أيضاً عن الحسن البصري والضحاك قالاً: «ما أمر الله تعالى نبيه بالمشاورة  
لحاجة منه إلى رأيهم وإنما أراد أن يعلمه ما في المشاورة من الفضل لتقتدي به  
أمته من بعده»<sup>(٢)</sup>.

وقال آخرون: «ليتبعه المؤمنون من بعده فيما حزبهم من أمر دينهم  
ويستنوا بسنته في ذلك ويحتذوا المثل الذي رأوه يفعله في حياته من مشاورته  
في أموره مع المنزلة التي هو بها من الله»<sup>(٣)</sup>.

---

(\*) سفيان الثوري: هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري من بنى ثور ولد ونشأ في  
الكوفة ومات في البصرة سنة ١٦١ هـ. الزركلي (الأعلام ج ٣ ص ١٥٨ ط ٣).

(١) الألوسى (روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني) ج ٤ ص ١٠٦.  
الشافعي (الأم) ج ٧ ص ٨٦.

(٢) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٤ ص ٢٥٠ مرجع سابق.

وسيد قطب (في ظلال القرآن) ج ٢ ص ١١٩ مرجع سابق.

(٣) الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ج ٤ ص ١٥٢ مرجع سابق.

فالأمر بمشروعية المشاورة لیتخذها الحکام سنة في حياتهم السياسية فيرجعون إلى الأمة يشاورونها في أمورهم لأن هذا هو شأن من كانوا مؤمنين يأخذون ما جاء به رسول الله ﷺ.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: (ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من النبي ﷺ<sup>(١)</sup>).

### القول الثاني: احترام الشخصية السياسية للأمة

يفهم ذلك من سياق الآية: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ (آل عمران)، وقد كانت سادات العرب إذا لم يشاوروا في الأمر شق عليهم فأمر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يشاورهم الأمر، فإن ذلك أعطف لهم وأذهب لأضغانهم وأطيب لنفوسهم<sup>(٢)</sup>. فإذا فعل ذلك رئيس الدولة وشاور المسلمين فإنه يظهر أنه ممن يثق بأقوالهم ويرجع إلى آرائهم، فيؤلف بذلك: «من لم تكن بصيرته بالإسلام البصيرة التي يؤمن عليه فتنة الشيطان»<sup>(٣)</sup>، فيثبت قلبه على الإيمان ويشعر بكرامة شخصه وأن له قيمة عند الدولة. فرجوع رئيس الدولة إلى الناس يطلب رأيهم يشعر بأنه يعلي من أقدارهم ويرفع من مكانتهم، فتطيب النفوس وتطمئن القلوب ويشيع الوئام وترتفع الشحنة، ولئلا تقع الأمة

(١) الترمذي (الجامع الصحيح) ج ٤ ص ٢١٣ حديث رقم ١٧٦٤ مرجع سابق؛ وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (السنن الكبرى) ج ٧ ص ٤٥، دائرة المعارف العثمانية، الهند ١٣٥٤ هـ.

(٢) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٤ ص ٢٤٩؛ وابن قيم (زاد المعاد في هدي خير العباد) ج ٢ ص ٢؛ والألوسي (روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني) ج ٤ ص ١٠٦.

(٣) الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ج ٤ ص ١٥٢ مرجع سابق.

تحت تصور تجاه رئيس الدولة بأنه يبرم الأمور متجاهلا رأيهم غير عابئ بأثر الرأي العام لهم، فأمر الله تعالى بالشورى، لئلا يثقل عليهم استبداده بالرأي دونهم<sup>(١)</sup> وفي هذا تحقير لعقلية العلماء والمفكرين وغيرهم.

### القول الثالث: استظهار الخليفة برأي المسلمين

يري أصحاب هذا الرأي أن المشورة كانت استظهارا برأي المسلمين ليتبين الرأي الصواب الجدير بالاتباع حتى يكون الإبرام بعد تنقيح وترو، وفي هذا عون كبير لصاحب الصلاحية عند قيامه بتنفيذ الرأي. إذ شعور رئيس الدولة بأنه إنما ينفذ ما تريده أكثرية المسلمين يعطيه العزيمة في العمل. يقول سعد بن معاذ عن مشاورة الرسول ﷺ للأَنْصَارِ قَبْلَ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ: إِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَسْتَنْطِقُ الْأَنْصَارَ شَفَقَةً أَلَا يَسْتَجِيبُوا مَعَهُ عَلَى مَا يَرِيدُ مِنْ أَمْرِهِ.. «أي ما يستشيرهم إلا خوفا من أن يتركوا إعانتة» فاستطلاع رأي أهل الشورى إنما كان أيضا ليستقر الرأي الصحيح فيعمل عليه، وإنه لما شاور الرسول ﷺ في حادثة الإفك لم يكن هذا من النبي ﷺ سؤالا لهم عن الواجب وإنما أراد أن يستخرج ما عندهم<sup>(٢)</sup> وهذا ما ذهب إليه ابن القيم<sup>(٣)</sup> وجزم الجصاص بأنه لا بد أن يكون لمشاورته زيارتهم فائدة هي الاستظهار بما عندهم<sup>(٤)</sup> لأن في ذلك خيرا وعونا.. ولتقريب الوجوه وتخمير الرأي لتسير الحياة السياسية

(١) الزمخشري (الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل) ج ١ ص ٤٧٤ دار الكتاب العربي - بيروت

(٢) ابن العربي (أحكام القرآن) ج ١ ص ٧٢ مرجع سابق.

(٣) ابن قيم (زاد المعاد في هدي خير العباد) ج ٢ ص ١٢٧ مؤسسة الرسالة. بيروت ١٤٠٧هـ.

(٤) شهاب الدين السيد محمود الألوسي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) ج ٤ ص ١٠٦ دار احياء اثار العربي. بيروت ١٤٠٥هـ.

بين المسلمين لما فيه خير الأمة والدولة والإسلام. فإن رأي الجماعة تطمئن إليه النفوس ويكون أبعد عن الزلل من رأي الفرد. والرأي بعد المشاورة أفضل من رأي يبرم دون شورى.

### القول الرابع: لرضا الخصم والحجة عليه

إذ بعد أخذ جميع الآراء ومناقشتها والعزم على إبرام الأمر بعد تبين الرأي الصواب من سواه فإنه لا يكون حجة لمعترض على ذلك وتكون النفوس أميل إلى الرضا والقبول وهو قول للشافعي<sup>(١)</sup>.

### القول الخامس: لتمييز الناصح من الغاش

وإليه ذهب الشافعي في قول ثان<sup>(٢)</sup>. وكأن صاحب هذا الرأي قصد وقوف رئيس الدولة على آراء أهل الشورى ليكون مطلعاً على اتجاهاتهم وأفكارهم وميولهم ويتعرف على رجال السياسة عن طريق مشورتهم له فتكون له القدرة على تمييز القادر من غير القادر والذي ينصح المسلمين ممن لا ينصح وما شاكل ذلك.

هذا ما يمكن أن يقال في حكمة مشروعية نظام الشورى في الإسلام وجميعها لا تخلو من إصابة وجه الحق لأنها تتضمن مقاصد شرعية تشهد لها النصوص وحث عليها الإسلام، فقد أوجبت الشريعة الإسلامية على كل من يتولى الحكم أن يكون تصرفه على الرعاية قائماً على رعاية الأصلح لها بتنمية مبدأ الشورى الواجبة، وقرر الرسول ﷺ في أحاديثه الثابتة أن الإمام راع

(١) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٤ ص ٢٥٠ مرجع سابق.

(٢) الشافعي (الأم) ج ٧ ص ٨٦ ط كتاب الشعب بمصر.

وهو مسئول أمام الله والأمة عن التدابير الأصلاح للرعية ، وهكذا تميز نظام الحكم في الإسلام مما جعله يتفوق على سائر الأنظمة لا سيما المعاصرة منها .

وفيما يلي بعض الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ في فضل الشورى والترغيب في اتخاذ القرارات :

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( المستشار مؤتمن )<sup>(١)</sup> .

٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : ( من تقول علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار ، ومن استشاره أخوه المسلم فأشار عليه بغير رشده فقد خانته ، ومن أفتى بفتيا غير ثبت فإنما إثمه على من أفتاه )<sup>(٢)</sup> .

٣ - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : استشار رسول الله ﷺ في الأسارى أبا بكر ، فقال : قومك وعشيرتك فخل سبيلهم ، فاستشار عمر ، فقال : اقتلهم ، قال : ففداهم رسول الله ﷺ ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثَخَّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ٦٧ ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ٦٨ ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنَمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ ٦٩ ﴿ (الأنفال) ، قال فلقي النبي ﷺ عمر ، قال ( كاد أن يصيبنا في خلافك بلاء )<sup>(٣)</sup> .

٤ - عن عائشة رضي الله عنها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا : قالت : ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبت الوحي يسألها ، وهو يستشيرهما في فراق أهله ،

(١) الهيثمي ( مجمع الزائد ومنبع الفوائد ) ج ٨ ص ٩٧ ، مرجع سابق .

(٢) الحاكم النيسابوري ( المستدرک علی الصحیحین ) ج ١ ص ١٠٣ مرجع سابق .

(٣) الحاكم النيسابوري ( المستدرک علی الصحیحین ) ج ٢ ص ٣٢٩ مرجع سابق .

فأما أسامة، فأشار بالذي يعلم من براءة أهله، وأما علي فقال: لم يضيّق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك، فقال: (هل رأيت من شيء يريبك؟) قالت: ما رأيت أمراً أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله، فقام على المنبر فقال: «يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيراً»، وذكر براءة عائشة، وقال أبو أسامة عن هشام وعنها قالت: إن رسول الله ﷺ خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: «ما تشيرون علي في قوم يسبون أهلي ما علمت عليهم من سوء قط» وعن عروة قال: لما أخبرت عائشة بالأمر، قالت: يا رسول الله ﷺ أتأذن لي أن أنطلق إلى أهلي؟ فأذن لها، وأرسل معها الغلام، وقال رجل من الأنصار: سبحانك ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم»<sup>(١)</sup>.

وعن ميمون بن مهران، قال: كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا ورد عليه أمر نظر في كتاب الله، فإن وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به، وإن علمه من سنة رسول الله ﷺ قضى به، وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنة فإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم واستشارهم<sup>(٢)</sup>.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه (الرجال ثلاثة: رجل ترد عليه الأمور، فيسددها برأيه، ورجل يشاور فيها أشكل عليه وينزل حيث يأمره أهل الرأي، ورجل حائر بائر لا يأتمر رشداً ولا يطيع مرشداً)<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١٣ ص ٣٣٩ حديث رقم ٧٣٦٩ مرجع سابق.

(٢) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١٣ ص ٣٥٤ مرجع سابق.

(٣) علي بن حبيب الماوردي (أدب الدنيا والدين) ص ٢٦٠، دار الريان للتراث الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠١هـ.

وقال علي رضي الله عنه (نعم المؤازرة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستعداد<sup>(١)</sup>).

وعن المسور بن مخرمة رضي الله عنه أن الرهط الذين ولاهم عمر اجتمعوا فتشاوروا، فقال لهم عبد الرحمن، لست بالذي أنافسكم على هذا الأمر، ولكنكم إن شئتم اخترت لكم منكم فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن، فلما ولوا عبد الرحمن أمرهم، فمال الناس إلى عبد الرحمن، حتى إذا كانت الليلة التي أصبحنا منها، فبايعنا عثمان - قال المسور - طرقيني عبد الرحمن بعد هجع من الليل، فضرب الباب حتى استيقظت، فقال: أراك نائماً، فوالله ما اكتحلت هذه الثلاث بكثير نوم، انطلق فادع الزبير وسعدا، فدعوتهما له فشاورهما، ثم دعاني فقال: ادع لي عليا، فدعوته، فناجاه حتى ابهار الليل<sup>(٢)</sup>، ثم قام علي من عنده، وهو على طمع، وقد كان عبد الرحمن يخشى من علي شيئاً، ثم قال ادع لي عثمان، فدعوته، فناجاه حتى فرق بينهم المؤذن بالصبح، فلما صلى للناس الصبح واجتمع أولئك الرهط عند المنبر، فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين والأنصار، وأرسل إلى أمراء الأجناد - وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر - فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن ثم قال: أما بعد يا علي إني قد نظرت في أمر الناس، فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن على نفسك سييلاً. فقال أبايعك على سنة الله وسنة رسوله والخليفتين من بعده، فبايعه عبد الرحمن وبايعه الناس، المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون<sup>(٣)</sup>.

(١) الماوردي (أدب الدنيا والدين) ص ٢٦٠، مرجع سابق.

(٢) أي منتصف الليل.

(٣) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١٣ ص ١٩٢ حديث رقم ٧٢٠٧.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم جلد في الخمر بالجريد والنعال، ثم جلد أبو بكر أربعين، فلما كان عمر، ودنا الناس من الريف والقرى، قال: ما ترون في جلد الخمر؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: أرى أن تجعلها كأخف الحدود قال: فجلد عمر ثمانين<sup>(١)</sup>.

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن عمر رضي الله عنه أنه استشارهم في إملاص المرأة، فقال المغيرة قضي النبي صلى الله عليه وسلم بالغرة عبد أو أمة<sup>(٢)</sup>.

وقال عمر بن عبد العزيز: (إن المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة، لا يضل معها رأي، ولا يفقد معها حزم)<sup>(٣)</sup>.

وقال الشافعي رحمه الله (إنما يؤمر الحاكم بالمشورة لكون المشير ينهه على ما يغفل عنه، ويدله على ما لا يستحضره من الدليل، لا يقلد المشير فيما يقوله، فإن الله لم يجعل هذا لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم)<sup>(٤)</sup>.

وقال الماوردي (اعلم أن من الحزم لكل ذي لب ألا يبرم أمرا ولا يمضي عزمًا إلا بمشورة ذي الرأي الناصح، ومطالعة ذي العقل الراجح)<sup>(٥)</sup>.

فهذه جملة من الآثار المروية عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض فقهاء الإسلام تؤكد فضيلة الشورى وأهميتها في الوقوف على الرأي الصائب والسديد، الأمر الذي يؤكد الاعتدال والاستقامة والأخذ بالأكمل والأفضل وهو الطريق المستقيم.

(١) مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ١١ ص ٢٢٧ حديث رقم ١٧٠٦ مرجع سابق.  
(٢) أحمد بن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١٢ ص ٢٤٧ حديث رقم ٦٩٠٥ مرجع سابق.

(٣) الماوردي (أدب الدنيا والدين) ص ٢٦٠، مرجع سابق.  
(٤) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١٣ ص ٣٥٤ مرجع سابق.  
(٥) الماوردي (أدب الدنيا والدين) ص ٢٦٠، مرجع سابق.

## ١ . ٣ . ٣ الوسطية في النظام الاقتصادي

### التعريف بالاقتصاد

#### الاقتصاد لغة

مصدر للفعل اقتصد يقتصد اقتصاداً ، والاقتصاد هو الاعتدال والتوسط في الأمر ، فلا إفراط ولا تفريط ، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ (فاطر).

أي منهم من يتوسط في أمر الدين فلا يميل إلى جانب الإفراط ولا إلى جانب التفريط ، وقوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ (لقمان).

أي توسط في مشيك وليكن بين الإسراع والإبطاء ، والقصد في المعيشة أو النفقة هو التوسط بين السرف والتقتير ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ (الإسراء).

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ (النحل) ، أي على الله تبيين الطريق المستقيم .

ومن هذا الذي تقدم يتقرر أن القصد في الأمر عدم تجاوز الحد والرضا بالتوسط<sup>(١)</sup> .

(١) من المراجع اللغوية : الرازي (مختار الصحاح) ص ٥٣٦ ، الفيروز آبادي (القاموس المحيط) ج ١ ص ٣٢٧ .

## الاقتصاد اصطلاحاً:

تعددت التعاريف الموضوعية لعلم الاقتصاد عند رجالاته ، فقد عرف قديماً بأنه: العلم الذي يبحث في إنتاج الثروة وتحقيق الغنى للمجتمع؛ وقيل: هو العلم الذي يختص بدراسة القوانين المنظمة للثروة وتوزيعها واستهلاكها.

وقيل: إنه العلم الذي يدرس كيفية حصول الإنسان على الدخل وكيفية استعماله له ، وقيل هو العلم المختص بدراسة الرفاهية الاقتصادية<sup>(١)</sup>،

وقيل: هو العلم الذي يعنى بدراسة النشاط الإنساني في الإنتاج والتوزيع والتبادل والاستهلاك في ظل ظاهرة ندرة الموارد الاقتصادية وتعدد الحاجات الإنسانية ، وبالنظر في هذا التعريف نجد أن علم الاقتصاد يعنى بدراسة الخيارات الاجتماعية والفردية في استغلال وتوجيه الموارد النادرة لإنتاج السلع المختلفة - أو استهلاك هذه الموارد مباشرة - وتوزيعها وتبادلها بين الأفراد والجماعات<sup>(٢)</sup>.

ومن المحدثين من قال: الاقتصاد علم من العلوم الاجتماعية الغاية منه بيان طرق إنتاج وتبادل وتوزيع واستهلاك السلع والخدمات في المجتمع، وتطوير هذه الطرق لتنمية الإنتاج وتسهيل التداول ، وإحسان التوزيع حتى يمكن إشباع وسد حاجات المجتمع المادية على أحسن وجه في الحاضر والمستقبل<sup>(٣)</sup>.

---

(١) محمد عبد المنعم (نحو النظرية الاقتصادية في الإسلام) ص ١٦ ، طبعة ١٩٨١ م .

(٢) سعد الشهراني و خالد الخليوي (مفاهيم أولية ومواضيع في الاقتصاد) ص ١٥ ، الطبعة الثانية ١٩٩٠ م .

(٣) طاهر عبد المحسن سليمان (علاج المشكلة الاقتصادية في الإسلام) ص ١٧ طبعة ١٩٨١ م .

وربما يكون هذا التعريف أنسب التعاريف لعلم الاقتصاد لأنه يتناول توضيح أبحاث العلم وصلته بالمجتمع في الحاضر والمستقبل ، ولكنه يؤخذ عليه أنه نسي البحث في إشباع الحاجات المعنوية والروحية في الإنسان، بل نسي أكثر كثير من الدوافع الإنسانية في الإنتاج والتوزيع والاستبدال والاستهلاك .

وأما في المفهوم الإسلامي فيمكن القول إن علم الاقتصاد علم سلوك الإنسان في تعامله من أجل كسب معاشه والحصول على مقومات حياته ، وطرق الإنفاق والإنتاج والتداول والتوزيع إلى غير ذلك من سائر وجوه الأنشطة الاقتصادية .

ويسود عالمنا المعاصر مذهبان اقتصاديان:

الأول: المذهب الرأسمالي ( الفردي ) .

الثاني: المذهب الاشتراكي .

يمثل المذهب الأول ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ومن دار في فلورها من الدول الأوروبية واليابان .

ويمثل المذهب الثاني ، دول المنظومة الاشتراكية برعاية روسيا والصين ، على أن هناك بلداناً أخرى ، هي ما تسمى بلدان العالم الثالث المختلفة ، ولمواجهة تحديات عصر التقدم والتكنولوجيا عمداً الكثير من هذه الدول المتخلفة والنامية إلى التدخل في جميع قطاعات النشاط الاقتصادي ، وموارد الطاقة عن طريق ما يسمى بالتخطيط الاقتصادي لاستخدامها من أجل معركة الخروج من التخلف الاقتصادي والتكنولوجي .

يقوم المذهب الرأسمالي ( الفردي ) على المبادئ التالية:

- ١ - الملكية الفردية المطلقة .
- ٢ - الحرية الاقتصادية المطلقة .
- ٣ - الحصول على أقصى ربح ممكن .
- ٤ - المنافسة الحرة .
- ٥ - جهاز الثمن الذي يلعب دوراً مهماً في إرشاد الإنتاج والاستهلاك والادخار والاستثمار<sup>(١)</sup> .

ويقوم المذهب الاشتراكي على أساس تحريم الملكية الفردية لعوامل الإنتاج ويحرم أي فرد من استخدام الآخرين من العمال لحسابه الخاص، كما أنه يعتبر العمل مقياساً لقيمة الأشياء الاقتصادية، ويرى أصحاب هذا المذهب أن الحياة مادة، وأن المادة هي التي تحرك الحياة، وأن الدين خرافة، وأن الله اخترع الاقطاعيين والرأسماليين للتأثير به على بعض الناس للاحتفاظ بالميزات الاجتماعية للرأسمالية<sup>(٢)</sup> .

وهكذا نرى الكثرة من الناس، والغالبية العظمى قد ضلوا الطريق، وحادوا عن سواء السبيل، ولهذا جاء القرآن الكريم والسنة النبوية مبينين خطورة هذا الانحراف، وهاديين إلى الصراط المستقيم، فقد وردت عدة آيات تبين خطورة الانهالك في جمع المال والمبالغة والإفراط في حبه، ومن ذلك:

- 
- (١) محمد طه و عبد المنعم فوزي ( الاشتراكية بين الفكر والتطبيق ) ص ٢٦ طبعة ١٩٦٩ م ، وأحمد شلبي ( النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور ) ص ٤١ طبعة ١٩٧٦ م .
  - (٢) طاهر عبد المحسن سليمان ( مناهج المشكلة الاقتصادية في الإسلام ) ص ٢٨ طبعة ١٩٨١ م إبراهيم دسوقي اباطة ( الاقتصاد الإسلامي مقوماته ومناهجه ) ص ١٢ ، طبعة ١٩٧٤ م .

قوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمَّا﴾ ١٩ ﴿وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ ٢٠ ﴿(الفجر)، وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ ١١ ﴿(الفتح).

وقوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ١ ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ٢ ﴿(التكاثر)، وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ ١ ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ ٢ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ ٣ ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ ٤ ﴿(الهمزة).  
وقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ١ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ ٢ ﴿(المسد).

هذه بعض آيات الكتاب المبين تبين خطورة الانحراف عن الصراط المستقيم في طريقة جمع المال والاستفادة منه وهو الطريق الخاطيء الذي يسلكه كثير من الناس لا سيما في عصرنا الحاضر، حيث أفرطوا في ذلك وبالغوا فيه، وكانت النتيجة الطبيعية أن أصبح هذا المال نقمة ووبالاً عليهم في الدنيا والآخرة .

ومما أود التنبيه عليه ، والإشارة إليه أن الإسلام ليس ضد جمع المال كما قد يتوهم البعض، بل إنه أمر مشروع لماله من أهمية في الحياة الدنيا ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ ٦ ﴿(الإسراء). فالقرآن في جملته يرغب في جمع المال لحاجة الناس إليه، لكنه يحذر من الانحراف فيه، وقضاء الحياة في جمعه. وتحصيله دون أداء حق الله فيه، والاستفادة منه بالطريق المشروع، وهذا هو المنهج القويم والصراط المستقيم .

فالنظام الاقتصادي في الإسلام يتسم بمعامله الواضحة التي يتميز بها عن غيره من الأنظمة الاقتصادية الأخرى ، فقد جاء هذا النظام متفقاً مع الطباع الإنسانية ، ومقرر المصالح كل من الفرد والمجتمع ، وهو في إجراءاته

وقوانينه الاقتصادية يسير جنباً إلى جنب مع القواعد التشريعية الاجتماعية والخلقية والروحية .

وقد أتاح للأفراد الحرية الاقتصادية في العمل والتملك والتصرفات الاقتصادية المختلفة، وأطلق لهم الحوافز بشرط عدم الإضرار بالمجتمع، ووضع للمنافسة بينهم قواعد وضوابط أتاح للدولة التدخل في المعاملات الاقتصادية حين لا يحسن الأفراد التصرف ، أو حين ينحرفون عن هذه القواعد ، وحرم الاكتناز والربا والاحتكار والغش والتطفيف في الكيل والميزان والغبن والغرر في البيوع، وتلقي الركبان وغير ذلك من أنواع المعاملات المحرمة .

ورغب كافة الأفراد في العمل وحثهم عليه وأوجب على الدولة توفير سبله لكل من يرغب فيه ويقدر عليه .

وكفل لعموم افراد الرعية حداً أدنى من مستوى المعيشة حتى لو لم تحققه لهم جهودهم الخاصة .

وفرض على الأغنياء في أموالهم حقوقاً للفقراء والمعوزين في هذه الأموال ، وعمل على تقليل التفاوت في الدخل ، وعدم وجود صراع داخل المجتمع بين الفقراء والأغنياء .

ولم يضع حدوداً على الواردات ليكون ذلك حافزاً لأصحابها لبذل أقصى الجهود في خدمة أنفسهم ومجتمعاتهم ، والإفادة من كافة الوسائل العلمية والتقنية المعينة لهم على القيام بأنشطتهم وزيادة دخلها<sup>(١)</sup> .

---

(١) محمد عبد المنعم ( نحو النظرية الاقتصادية في الإسلام ) ص ٥٨ ، مرجع سابق .

والإسلام يجعل المسلم مسئولاً أمام الله قبل كل شيء ، فيجب عليه أن يجعل كل تصرفاته ضمن حدود الشريعة الإسلامية ، فهو يثاب إن كانت أعماله ضمن هذه الحدود ، ويعاقب إن خرج عنها ، ولذلك تجد الوازع لديه داخلياً ، بخلاف الأنظمة الأخرى فإن الفرد فيها لا يضع اعتباراً إلا للقواعد المنظمة وهو يستطيع الإفلات من قيودها.

كذلك من السمات البارزة في النظام الاقتصادي الإسلامي أنه لا يعارض جمع المال، ولا يحصره في طريق واحد، بل أرشد إلى طرق جمعه وبالسبل المشروعة، وبين أن الانحراف يكون في الإفراط أو التفريط، فالأمر المنهي عنه هو الغلو في حبه وتقديسه والتوسط في ذلك هو المشروع قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿٤٦﴾ (الكهف). وقال سبحانه: ﴿زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَإِ﴾ ﴿١٤﴾ (آل عمران).

وبهذا الذي ذكرنا يتضح لنا أن النظام الاقتصادي الإسلامي يتميز على غيره من الأنظمة الاقتصادية الأخرى لمناسبته عموم الطبائع البشرية، وتقديمه لحلول أنسب لعلاج المشاكل التي تواجه جهود التنمية والتطور الاقتصادي والاجتماعي للمجتمعات المختلفة<sup>(١)</sup>.

وحينما نقول وسطية الإسلام في النظام الاقتصادي، إنما نعني التوازن المالي بين الناس، وهذا التوازن لا يعني انتفاء التفاوت في الثراء، فهذا مستحيل، لأن الناس يتفاوتون في التفكير والصحة والجمال والقوة واللون

---

(١) محمد عبد المنعم عفر (نحو النظرية الاقتصادية في الإسلام) ص ١٠٩-١١٥ فهو كتاب عظيم الفائدة

والصوت، ويتفاوتون في كثير من أمور الحياة، كالزواج، والجوار، والصحبة،  
وصلاح الأولاد ونجاحهم وغير ذلك<sup>(١)</sup>.

وإنما تعني الوسطية التقريب بين المستويات المالية للأفراد، وإعادة  
النظر في توزيع المال بنسب جديدة على الدوام، ومنع تكديس الثروات في  
أيدي المحتكرين والمستغلين، وهذا ما أثبتته فشل الشيوعية في التطبيق بعد  
استمرارها مطبقة نحو سبعين عاماً، وذلك كلما اضطرب الميزان الاقتصادي  
في البلاد، وطغى الاحتكار وانتشرت الأثرة، وتضخمت الثروات على  
حساب الفقراء، وأصبح الناس فريقين:

- فريق يتختم بطنه المال وينغمس في ملذاته .

- وفريق يتلظى من الجوع والحرمان، ويعوزه الكساء والمسكن،  
فلا بد هنا من تدخل الدولة لتحقيق الوسطية (العدل) ومنع هذا  
الاضطراب، وذلك بإعطائها من أموالها التي تملكها لمن يحتاج ما يلزمه  
لتأمين حاجاته الضرورية، دون إثقال كاهل الأمة بضرائب جديدة،  
لا سيما إذا كانت تملك من الأموال العامة ما يكفي بذلك<sup>(٢)</sup>.

والأصل في ذلك: ما فعله النبي ﷺ حين قسم فيء بني النضير بين  
المهاجرين ولم يعط من الأنصار إلا رجلين اثنين لا أرض لهما هما، أبو دجانة  
سماك بن خرشة، وسهل بن حنيف، لقوله تعالى: مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ  
أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ  
كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ  
عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ (الحشر).

(١) أحمد شلبي (المجتمع الإسلامي) ص ٥٩، نقلاً عن عبد العزيز الخياط (وسطية  
الإسلام) دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

(٢) عبد العزيز الخياط (الوسطية في الإسلام) ص ٧٣، مرجع سابق.

ذكر المقرئ في كتابه الإمتاع<sup>(١)</sup>، قال: « فلما غنم رسول الله » بني النضير بعث ثابت بن قيس بن شماس فدعا الأنصار كلها - الأوس والخزرج - فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين ، وإنزالهم إياهم في منازلهم ، وأثرتهم على أنفسهم ، ثم قال: « إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله علي من بني النضير ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم » فقال سعد بن عباد وسعد بن معاذ: يا رسول الله بل تقسمه للمهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا ، ونادت الأنصار: رضينا وسلمنا يا رسول الله ، فقال ﷺ: « اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار » ، وقسم ما أفاء الله على المهاجرين دون الأنصار إلا رجلين كانا محتاجين .

وما فعله عمر رضي الله عنه استهداءً بآية الحشر في الفبيء في أرض العراق، إذ أبقاها لأهلها وفرض عليها الخراج محتجاً بقوله تعالى: ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ (الحشر)، وقال: « لو قسمتها بينهم لصارت دولة بين الأغنياء منكم ولم يكن لمن جاء بعدهم من المسلمين شيء »، وقد جعل لهم فيها الحق بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ (الحشر).

وقد فطن أبو بكر رضي الله عنه إلى ضرورة تحقيق هذه العدالة حين أصر على توزيع المال بالسوية على المسلمين ، تاركاً فضل السابقين إلى الله يشبههم عليه خلافاً لعمر وجماعة من الصحابة كانوا يرون عدم التسوية في العطاء ، فقال لهم أبو بكر: « أما ما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل فما أعرفني بذلك ، وإنما ذلك ثوابه إلى الله عز وجل ، وهذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة »، وقد رجع عمر إلى قول أبو بكر في أخريات خلافته بعد أن أيدت التجربة

(١) المقرئ (إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأحفاد والأتباع) ج ١ ص ١٨١ تحقيق محمد محمود شاكر ، طبعة القاهرة .

صواب رأي أبي بكر، وقرر قائلاً: «لئن عشت من قابل لألحقن أخرى الناس بأولاهم حتى يكونوا في العطاء سواء»<sup>(١)</sup>.

كما قرر ذلك علي كرم الله وجهه حين قال: «ألا وإيها رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته، فإن الفضل غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله، ألا وإيها رجل استجاب لله ورسوله، فصدق ملتنا، ودخل ديننا، واستقبل قبلتنا - فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية، ولا فضل لأحد على أحد، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء»<sup>(٢)</sup>.

### ١ . ٣ . ٤ . الوسطية في النظام الاجتماعي

ليس يخفى أن الإنسان بحاجة إلى غيره، إذ لا يمكن أن يستقل في حياته بدون حاجة الآخرين. وعليه فالمجتمع ضروري لبقاء الإنسان، وإذا كان المجتمع ضروري للإنسان. فإن النظام ضروري للمجتمع.

والأنظمة الاجتماعية المختلفة التي يتكون منها البناء الاجتماعي تحتاج بلا شك إلى تنظيم اجتماعي يحتفظ بخيرته وفعالته، ويحقق الأهداف المنشودة من وراء كل تنظيم.

وبلا شك أيضاً فإن الضوابط التي تسود في الأوساط الاجتماعية تتفاوت من قبل مختلف المجتمعات البشرية بتفاوت الفلسفة التي يقوم عليها هذا التنظيم وذلك، فالمجتمع الرأسمالي، والمجتمع الشيوعي - الاشتراكي - رغم البون الشاسع في منهج كل منهما، فإنهما يجتمعان في بوتقة واحدة جامعة

(١) أبو يوسف (الخراج) ص ٤٤ .

(٢) عبد العزيز الخياط، الوسطية في الإسلام، ص ٧٤، مرجع سابق.

هي الفلسفة العلمانية القائمة على المادية الجدلية ، والاختلاف الظاهر بينها إنما هو في الأسلوب فقط القائم على الفكر الاعتقادي لهذه المجتمعات .

إن الاختلاف بين المنهجين هو اختلاف وسيلة وليس اختلاف غاية، لهذا نجد أن الفكرين عادا في أوائل التسعينيات من القرن الماضي ليتفقا في الأسلوب .

إن الأسلوب الذي انتهجته المادية الجدلية الشيوعية في تطبيق منهجها هو التدخل المباشر للسلطة من خلال الحكم الفردي تحت مظلة الحزب ، وقد استخدم الحزب العامل الاقتصادي كوسيلة لتحقيق أهداف الحزب القائم على الفلسفة المادية الجدلية، وفي المقابل ، أي الوجه الآخر للرأسمالية حيث استخدم أنصار هذا المذهب العامل الاقتصادي أيضاً لكنه غير المقيد والمربوط بالمصلحة الفردية بغض النظر عن مصلحة المجتمع .

وإذا ما نظرنا إلى المنهجين نحد أن المنهج الرأسمالي قد نجح في تحقيق النمو المادي ، بينما تراجع المنهج الشيوعي ، وتضاءل أمام المنهج الرأسمالي، مما جعل أنصار هذا المذهب يتراجعون في ممارسات فلسفاتهم المادية الجدلية، وإن كان الطرفان يتشابهان في كثير من السلوكيات والممارسات ، ولذا فإن الإنسان المعاصر الخاضع لهذه الفلسفة ، سواء هذه أو تلك ، فإنه يعيش في قلق واضطراب نفسي وعقلي ومادي ، لن يخرج من واقعه إلا نظام جديد يقوم على فلسفة مغايرة لهاتين الفلسفتين ومن هنا تبرز وسطية الإسلام القائمة على فلسفة التوحيد والإيمان بالله تعالى الذي بيده وحده مقاليد كل شيء ، وإن الإنسان غاية وهدف ، وإن ممارساته في هذه الحياة محسوبة عليه ومجازى عليها في حياة أخرى تالية لحياة الدنيا<sup>(١)</sup> .

---

(١) محمد عبد الله الشيباني (المختار من أحاديث المصطفى في التنظيم الاقتصادي والمالي والاجتماعي) ج٢ ص ١٩٥ دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

وكل نظام لا بد له من أصول وقواعد يرتكز عليها ، وفي الوقت ذاته يرتضيها المجتمع ، وتبعاً لصلاح هذه الأصول والقواعد ، أو فسادها يكون صلاح النظام أو فساده ، وبقدر ما في النظام الاجتماعي من صلاح يصلح المجتمع ، ويسعد أفراده ، وبقدر ما فيه من فساد يكون الشقاء والاضطراب . وإذا كان لكل نظام اجتماعي أساس يقوم عليه ، فما هو الأساس للنظام الاجتماعي الإسلامي ؟ .

المجتمع الإسلامي لم يقم على أساس السلالة ، أو القبيلة أو الإقليم ، أو الجنس ، أو اللون ، أو ما إلى ذلك من ألوان التمايز ، وإنما قام على أساس العقيدة الإسلامية ، فمن اعتنقها صار عضواً فاعلاً في المجتمع الإسلامي ، من غير اعتبار للقبيلة أو الجنس ، أو اللون ، أو ما إلى ذلك .

والعقيدة الإسلامية أساس النظام الاجتماعي الإسلامي ، وقاعدته الكبرى التي قام عليها ، وارتضاها العقلاء من البشر ، وإنما صلحت هذه العقيدة لبناء المجتمع الإسلامي ، لأنها مفتوحة لكل من يريد الانتماء إليها ، بخلاف القبيلة أو اللون ، أو الإقليم ، فإنها مغلقة على أبنائها ، وليس فيها اختيار ، وهذه هي وسطية الإسلام في نظامه الاجتماعي ، فإذا اعتنق الإنسان عقيدة الإسلام صار عضواً في المجتمع الإسلامي ، وأصبحت هذه العقيدة هي الموجه لأفكاره وسلوكه وأفعاله وتروكه ، وسائر تصرفاته وفي الوقت ذاته لم تغفل هذه العقيدة غير معتنقيها ، فشرعت لهم أيضاً ما يحفظ لهم دماءهم وأموالهم وأعراضهم وعباداتهم وشعائرهم الدينية ، ما دام مسالماً ، أو ما دام من رعايا المجتمع الإسلامي ، وأعطته من الحقوق ما للمسلم إلا في بعض المسائل الخاصة كالولاية العامة والأحوال الشخصية والقضاء ونحو ذلك مما يختص به المسلمون .

ومن ثمرات وسطية الإسلام في نظامه الاجتماعي:

١ - انتشار المعروف وانحسار المنكر ، والمعروف اسم جامع لكل ما شرعه الإسلام وارتضاه ، والمنكر اسم جامع لكل ما أنكره الإسلام ورفضه ونفر منه ، ولا شك أن هذا يؤدي إلى تعامل الناس في ما بينهم بالقيم والمثل والفضائل ، وتجفيف منابع الإجرام والخبائث والردائل .

٢ - نشوء رباط الأخوة بين أبناء المجتمع ، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١٠) ﴿ (الحجرات) ، ويقول ﷺ: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»<sup>(١)</sup> ، وهذه الأخوة تتضمن التزامات وحقوقاً يجب الوفاء بها بين أفراد المجتمع ، قياساً بحق الأخوة الثابت لكل المعتنقين للإسلام .

٣ - نبذ العصبية وتقدير مبدأ نصره المظلوم ، فبعد أن كانت القبيلة تنصر أبناءها سواء كانوا ظالمين ، أم مظلومين ، استبدل النبي ﷺ ذلك لهم بعد أن كانوا يقولون: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً فوضع دستور المدينة في العصر الأول للهجرة كإعلان دستوري لتنظيم شؤون المدينة فنص فيها على أن النصره للمظلوم ، فقد حصر النصر به ، وأوجب العقاب على الباغي كائناً من كان ، كما غير النبي ﷺ مفهوم: ( انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ) بأن ينصره مظلوماً وينصره ظالماً بكفه عن الظلم ، لأن من ذلك نصره على كسرة شهوة نفسه ونصره في حساب الآخرة .

٤ - تقرير مبدأ التقوى أساساً للتفاضل بين الناس ، فإن فضل الشخص

---

(١) الحديث من رواية أنس بن مالك ( متن الأربعين النووية ) ص ٧١ حديث رقم ١٣ بشرح ابن دقيق العيد ، دار الرائد العربي ، بيروت .

إنما يظهر به على غيره بقدر ما تحمله نفسه من فضائل وأخلاق كريمة، ومعاملة حسنة للناس، وبقدر ما يقدم من أعمال صالحة تجاه خالقه، وتجاه مجتمعه بنية صالحة، وبقدر ما يكف عن الرذائل والجرائم والشور، وهذا كله يتحقق بالتقوى، ومن هنا كانت التقوى أصح أساس للتفاضل والتمايز بين الناس، كما أن التقوى أساس مفتوح للمجتمع غير مغلق في وجه أحد، فيكون التنافس عادلاً، فلا يمنع الإنسان من التقوى مانع من فقر أو جنس، أو لون، أو ذكوره أو أنوثة أو غير ذلك. وهذا هو سر وسطية الإسلام في نظامه الاجتماعي .

### تقرير مبدأ ثنائية المسؤولية في المجتمع

من السمات التي انفرد بها النظام الاجتماعي الإسلامي تقريره لمبدأ ثنائية المسؤولية في المجتمع وهذه من خصوصيات الأمة الإسلامية، فالأفراد يجدون أنفسهم في المجتمع الإسلامي لهم مسؤوليتان اثنتان، فكل مسلم فيه مسئول عن تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية على نفسه أولاً، وحمل غيره على تنفيذ الشريعة الإسلامية ثانياً، فليس لأحد في المجتمع الإسلامي أن ينفذ ما عليه من أحكام الشريعة، ثم لا يهمله أمر الآخرين بعد ذلك في تنفيذ أو عدم تنفيذهم لأحكام الشرع، بل هو مسئول عن حمل غيره على تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية أيضاً، وقد قرر هذا المبدأ (ثنائية المسؤولية) القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١) (التوبة)، وكذلك جميع النصوص القرآنية الأخرى الدالة على تكليف كل فرد في المجتمع الإسلامي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك قررت هذا المبدأ

السنة النبوية في قوله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» (١).

وهكذا يؤدي تقرير مبدأ ثنائية المسؤولية إلى تحمل كل فرد في المجتمع الإسلامي مسؤولية إصلاح نفسه ومسؤولية إصلاح المجتمع عموماً وهذا يقود إلى استمرار عملية الإصلاح وديمومتها في المجتمع بدون انقطاع بما يؤدي إلى سعادة المجتمع وخلوه من الظلم والفساد، وهذه هي العدالة بعينها.

ومن أروع ما يؤثر في بيان المسؤولية الجماعية، والعمل المشترك قوله ﷺ: «مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا؟ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» (٢)، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث النبوية التي فاضت بها كتب السنة، وتستهدف تكوين مجتمع صالح من أفراد صالحين يحس كل فرد فيه بإحساس الآخرين ويشعر بشعورهم.

## الخلاصة

والخلاصة أن الإسلام لا يقر إعطاء الفرد حرية مطلقة، دون أي نوع من القيود التي يضعها المجتمع لتصرفات أفرادها، ويتخذها دستوراً في حياته،

(١) أبو يعلى محمد بن الحسن الفراء (الأحكام السلطانية والولايات الدينية) ص ٢٨٤ مطبعة الحلبي بمصر، والغزالي (إحياء علوم الدين) ج ٢ ص ٢٧٣ مطبعة الشعب بمصر.

(٢) النووي (رياض الصالحين) ص ١٠٤ حديث رقم ١٨٧ مرجع سابق.

أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (شرح السنة) ج ١٤ ص ٣٤٢ حديث ٤١٥١ المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٠هـ.

والا انقلبت الحياة إلى فوضى ، وتحولت إلى صراع مرير بين الفرد والمجتمع يقضي عليهما معاً ... كما أنه لا يلغي شخصية الفرد ، ويدمجها ادماجاً كلياً في المجتمع ، لأن ذلك يؤدي إلى تعطيل التفكير لدى الأفراد ، ويقضي على ملكة الاختراع والإبداع ، ويؤدي من ثم إلى وجود قطعان من البشر لا تختلف كثيراً عن قطعان الحيوانات ، بل يقيم العلاقة بين الفرد والمجتمع على الأخوة الصادقة والتعاون المثمر البناء ، ويشمل بتعاليمه الإنسانية السمحة أهل الأديان الأخرى الذين يعيشون مع المسلمين في وطن واحد ، ويتعاونون في النهوض بالوطن ، فيأمر أتباعه بمعاملة غير المسلمين بالعدل والبر إذا كانوا لا يحاربونهم في دينهم أو وطنهم ، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ٨ ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ٩ ﴿ (المتحنة)، وتلك هي وسطية الإسلام في نظامه الاجتماعي الذي تميز به عن سائر الأنظمة الوضعية.

## ١ . ٤ الوسطية في الأخلاق

### التعريف بالأخلاق

#### الأخلاق لغة

الأخلاق جمع خلق، وهو لغة بمعنى السجية والطبع والمروءة والدين والخلقة، وبمعنى التقدير، يقال رجل متخلق أي حسن الخلقة، ورجل له خلق حسن، وخليقة وهي ما خلق عليه من طبيعته وتخلق بكذا وهو خليق

بكذا كأنما خلق وطبع عليه، ويشمل الخلق على هيئة جميلة<sup>(١)</sup>، ومن هنا استعمل للسلوك على نهج مستقيم .

وحقيقة الخلق كما جاء في لسان العرب<sup>(٢)</sup> أنه وصف لصورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة ولها أوصاف حسنة وقيحة.

ومن مرادفات الخلق، الطبع . والسجية والطبيعة . والعادة . والطبع يطلق على الخلق الفطري وهو الجبلية التي خلق الإنسان عليها، أو هو مجموعة الاستعدادات الفطرية التي تؤلف الهيكل النفسي للإنسان<sup>(٣)</sup> .

والسجية تطلق على الفطري وعلى المكتسب إذا أصبح عادة والطبيعة هي ما يتميز به الإنسان من صفات فطرية، وهي ضد الصفات المكتسبة . وأما العادة، فهي قدرة مكتسبة على أداء عمل بطريقة آلية مع السرعة والدقة والاقتصاد في المجهود<sup>(٤)</sup> .

والفرق بين العادة والغريزة، أن العادة استعداد مكتسب يحصل للنفس بتكرار الفعل أو استمرار التغيير، على حين أن الغريزة استعداد وراثي، فالغريزة هي المادة الأساسية التي تتكون منها الأخلاق، وهي صعبة التغيير والتبديل، وتختلف الغريزة بحسب اختلاف الأشخاص قوة وضعفاً، أما العادة فيكون أثرها قويا في الاستقلال بإيجاد أي خلق من أخلاق الإنسان،

---

(١) الزمخشري (أساس البلاغة) ج ١ ص ٢٤٨ . والفيروزآبادي (القاموس المحيط) ج ٣ ص ٢٢٩ مطبعة السعادة مرجع سابق .

(٢) ابن منظور (لسان العرب) ج ١٠ ص ٨٦ مرجع سابق .

(٣) يوسف كرم (المعجم الفلسفي) ص ١٢٩ مرجع سابق .

(٤) أنوار جواد المظفر (التربية الأخلاقية في القصة القرآنية) ص ١٣ . رسالة ماجستير من كلية الشريعة، بغداد، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦ م .

وهي ملكه لا توجد ولا تتكون للنفس إلا بتكرار العمل والمواظبة عليه حتى يصبح مألوفاً لها لا غريباً عنها، بحيث يأتي به من غير إمعان وتفكير<sup>(١)</sup>.

الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل، ومن غير تكلف، أما إن صار بحيث يثقل عليه وأحب التملق والتخلص فقد خرج إلى طرف النقصان، فليرفع نفسه، اذ ليس للمؤمن من أن تذلل نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم، اذ الميل عن الوسط إلى طرف النقصان من التملق الذي هو أيضاً انحراف عن جادة الصواب.

كما أن الميل إلى طريق التبذير في المال مثلاً انحراف أيضاً عن جادة الصواب.

## الأخلاق اصطلاحاً

حال للنفس راسخة تصدر عنه الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية<sup>(٢)</sup>، ومعنى ذلك أن الخلق صفة نفسية، أي حالة راسخة في النفس، وليست شيئاً خارجياً مظهرياً، ولما كانت هذه الحالة ليست ظاهرة، كان لابد من مظهر يدلنا على هذه الصفة النفسية نتعرف من خلاله عليها، هذا المظهر هو السلوك الذي يمكن أن يعتبر هو دليله ورمزاً له وعنواناً عليه.

ولا ريب أن لكل مجتمع نظاماً أو قانوناً للسلوك يسير عليه، وبه يحكم على الفرد، فإذا كان سير الفرد وفق هذا السلوك يحكم عليه بأنه خير، وإذا خالفه حكم عليه بأنه شر، وعلى هذا فالأخلاق لها جانبان، جانب نفسي وآخر سلوكي، وإن شئت قلت: باطني وظاهري.

---

(١) أبو حامد الغزالي (إحياء علوم الدين) ج ١١ ص ١٩٨٧، وأحمد أمين (الأخلاق) ص ٢٣ دار الكتب المصرية ١٣٤٨ هـ.

(٢) أنوار المظفر (التربية الأخلاقية في القصة القرآنية) ص ١٣ مرجع سابق.

والأخلاق هي العاصمة للإنسان عن جميع التصرفات السيئة ، وليس الخلق هو أن يعرف الإنسان أن الصدق فضيلة وأن الكذب رذيلة ، أو أن الإخلاص محمود والمكر والخداع مذموم ، وإنما الخلق هو تطبيقه بين الناس ، ومعاملتهم بطريقة إنسانية وبأسلوب حسن . فالأخلاق بهذا المعنى تعتبر الدعامة الأولى لحفظ كيان الأمم ، ولهذا تجد الباحثين والكتّاب من قدامى ومحدثين قد اتفقت كلمتهم على ضرورتها للفرد وللمجتمع ، فكما أن الفرد يفسده الخلق السيئ كالمراء والحسد والمكر والحقد وغير ذلك من مساوئ الأخلاق ، فكذلك تفسد المجتمعات بشيوع مثل هذه الصفات فيها ، من أجل ذلك كانت مهمة الأنبياء والرسل الحث على مكارم الأخلاق تحقيقاً للأمن واستتابة ، وقد جاءت الكتب السماوية تدعو إليها ، لأنها هي التي تحقق الفوز بالنعيم كما تضمن السعادة في الحياة الدنيا .

يقول ابن القيم الجوزية<sup>(١)</sup> « وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان ، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها : الصبر والعفة والشجاعة والعدل ، فالصبر يحمله على الاحتمال ، وكظم الغيظ وكف الأذى ، والحلم والأناة والرفق ، وعدم الطيش . والعفة تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل ، وتحمله على الحياء وهو رأس كل خير . وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنميمة . والشجاعة تحمله على عزة النفس ، وإيثار معالي الأخلاق والشيم . وعلى البذل والفداء الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته ، وتحمله على كظم الغيظ والحلم ، فإنه بقوة نفسه وشجاعته يمسك عنانها ويكبحها بجلامها عن النزاع والبطش .

---

(١) ابن قيم (مدارج السالكين) ج ٢ ص ٣٠٨ . دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٧٢ م .

والعدل يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط . حيث يرى ابن مسكويه أن العدل وسط بين رذيلتين . الظلم والانظلام، فالظلم هو التصرف في حقوق الناس بدون حق، والانظلام هو تمكين الظالم من الظلم عليه، وانقياده له فيما يريده من الجور والتعدي على سبيل المذلة<sup>(١)</sup> .

والمحدثون من علماء الأخلاق ذهبوا إلى أن العدل في المعاملة هو وسط بين رذيلتين الغبن والتغابن ، إذ هو أن يأخذ المرء ماله أخذه ، ويعطي ماله إعطاؤه .

أما الغبن مثل أن يأخذ ما ليس له ، والتغابن أن يعطي في المعاملة ما ليس عليه حمد ولا أجر .

وأما العدل في السياسة فلا تقابله إلا رذيلة الجور فقط ، وأنا أميل إلى ما ذهب إليه الغزالي من أن العدل يقابله رذيلة واحدة فقط، وهي الجور، وأنه ليس وسطا بين رذيلتين. فنظرية الأوساط التي سار عليها الفلاسفة في الفضائل ليست دقيقة، إذ ليس هناك مقياس دقيق يبين لنا المنصف بياناً تاماً، كما أن الفضيلة ليست دائماً في نقطة المنتصف على بعدين متساويين، فالشجاعة مثلاً أبعد من الجبن منها عن التهور، والكرم أقرب إلى الإسراف منه عن البخل، ثم هناك كثير من الفضائل يصعب أن نطبق عليها نظرية الأوساط، فالصدق والعدل ليس من السهل تحديد الحد الأوسط فيهما، إذ ليس هناك عدل مطلق. ولا صدق مطلق، بل بينهما صفة النسبية من حيث التطبيق<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن مسكويه (تهذيب الأخلاق) ص ٢٨ مطبعة سليم. بيروت ١٩٦٦ مصر وانظر ابن القيم (مدارج السالكين) ج ٢ ص ٣٠٨ مرجع سابق.  
(٢) أنوار جواد المظفر (التربية الأخلاقية في القصة القرآنية) ص ١٨٨ مرجع سابق، وانظر ابن القيم (مدارج السالكين) ج ٢ ص ٣٠٨، مرجع سابق .

ومما يجب ملاحظته هنا أن معظم الفضائل تتشابك وتتداخل فيما بينها بالنظر لتقارب معانيها، وتعدد وجهات النظر فيها، فالعفة مثلا تدخل في معنى الصبر بما فيها من تغلب على القوة الشهوانية، وتدخل أيضا في معنى العدل لما فيها من اعتدال بين الشره - أي الانهماك في اللذات - وبين خمود الشهوة، وكذلك في فضيلة العفو يدخل معنى الصبر على الغضب وعلى أذى الناس، كما يدخل معنى الإحسان لما في العفو من مسامحة عند المقدرة. وقس على ذلك سائر الفضائل ومن هنا اختلفت تصورات المفكرين في فهم الحياة، ولذلك ظهرت عند مفكري الإسلام ثلاثة اتجاهات متميزة:

الأول: نظري.

الثاني: عملي.

الثالث: يجمع بين النظري - العقلي - والعملي.

الاتجاه الأول:

يمثله كل من الكندي والفارابي وابن مسكويه وابن سينا وإخوان الصفا وابن رشد وغيرهم ممن نحنا نحوهم.

ولعل أكبر فلاسفة المسلمين من يمثل هذا الاتجاه في الأخلاق هو ابن مسكويه الذي اهتم بالأخلاق، وألف عدة كتب فيها مثل كتابه تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، فهو خيرة ما بحث فيه عن الأخلاق بحثا علمياً، وهو يخضع لرأي الشريعة الإسلامية ويعول عليها، ويذهب إلى أن أحكام الشريعة لو فهمت على وجهها الصحيح لكانت مذهباً خلقياً أساسه محبة الإنسان للإنسان، والدين تربية خلقية لنفوس الناس، وغاية الشعائر الدينية أن نغرس الفضائل في نفوس الناس.

ويعرف ابن مسكويه الخلق بأنه حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين:

منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو الغضب .

ومنهما ما يكون مستنداً بالعادة والتدرب ، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر عليه أولاً فأولاً حتى يصير ملكة وخلقاً<sup>(١)</sup> .

والطابع العام لهذا الاتجاه هو تفسير المبادئ الأخلاقية وتدعيمها بالعقل وجعل غايتها غاية عقلية ثابتة ، ومقياسها الأسمى العقل ، ثم حصر الفضائل الأخلاقية تحت أمهات الفضائل الأربع ، وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة وأساس الفضيلة هو التصرف بمقتضى العقل والحكمة<sup>(٢)</sup> .

## الاتجاه الثاني:

ويمثله المتصوفة بصورة عامة ، قال بعضهم: التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخاد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية. والنصح لجميع الأمة. والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول ﷺ في الشريعة .

---

(١) محمد عبد الهادي أبو ريده ( تاريخ الفلسفة في الإسلام ) ص ٢٤٣ الطبعة الرابعة، وابن مسكويه ( تهذيب الأخلاق ) ص ٣١ طبعة ١٩٦٦ م.

(٢) مقداد يلجن ( الاتجاه الأخلاقي في الإسلام ) ص ٤٤ طبعة ١٩٧٣ م.

وقد توغل الصوفية في أعماق النفس . وجعلوا الأخلاق رياضة عاجلوا  
بها مشكلات الإرادة، وقد ركزوا على الجانب العملي كالتوبة والذكر  
والإخلاص وحسن الخلق ونحو ذلك من الفضائل<sup>(١)</sup>.

### الاتجاه الثالث:

وهو الاتجاه الذي يجمع بين النظري والعملي . فهم يرون ضرورة  
بناء العمل على أساس نظري، ولا بد من مقياس للخير والشر، ولا بد من  
غاية للأخلاق، مع تحديد العلاقة بين الإنسان وربه، وأخيه الإنسان، ومن  
ثم علاقته بالكون، كما ينبغي التركيز على الجانب العملي . كي تبلغ النفس  
الإنسانية الكمال المنشود، وتعتاد على فعل الخير، وبذلك يتعاهد النظر والعمل  
على تحقيق غاية الأخلاق، ويمثل هذا الاتجاه (الماوردي)<sup>(\*)</sup> و(الغزالي)<sup>(\*\*)</sup>  
ومن نحا نحوهما.

والغزالي يحرص فضائل الأخلاق في أربعة:

- الحكمة والشجاعة والعفة والعدل .
- والحكمة عنده فضيلة القوة العقلية .

---

(١) توفيق الطويل ( فلسفة الأخلاق : نشأتها وتطورها ) ص ١٤٣ ، الطبعة الثالثة ، دار  
وهران للطباعة والنشر ١٩٧٦ م .

(\*) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي ، ألقى القضاة ، من  
كبار العلماء له مصنفات في المذهب الشافعي ، منها الحاوي في الفقه ، والأحكام  
السلطانية والولايات الدينية وأدب الدنيا والدين ، وغير ذلك كثير ، توفي سنة  
٤٥٠ هـ ، طبقات الشافعية ج ٥ ص ٢٧٥ للسبكي .

(\*\*) أبو حامد محمد الغزالي ، ولد بمدينة طوس بسوريا حاليا عام ١٠٥٨ م وهو من  
أكابر العلماء له مصنفات عديدة ، منها إحياء علوم الدين ، والمستصفي من علم  
الأصول ، وغير ذلك كثير . مات سنة ١١١١ م .

- والشجاعة فضيلة القوة الغضبية .

- والعفة فضيلة القوة الشهوانية <sup>(١)</sup>.

ويقول إن النفس أعز من أن تدرك بالحواس، بل تدرك بالعقل، أو يستدل عليها بآثارها وأفعالها <sup>(٢)</sup>.

وباهتمام الغزالي بالجانب العملي والنظري يمكن أن يعطي تصورا كاملا لعلم الأخلاق يعتمد عليه كل من أراد الوقوف على هذا العلم الجليل.

ومن هذا العرض الوجيز لمفهوم الأخلاق واتجاهات الفلاسفة والمفكرين نجدهم جميعا قد اتفقوا على اعتبار الرذائل أمراضا نفسية تتطلب العلاج، وأن علم الأخلاق هو الذي يعالج الجانب الروحي في طبائع البشر، فهو علاج للأمراض وحفظ للصحة، وغايته تحقيق السعادة. وموضوعه الفضائل وكيفية اقتنائها لتتحلى النفس بها، والرذائل وكيفية توقيها لتتخلى عنها <sup>(٣)</sup>. وهم على اتفاق في إقامة المبادئ الخلقية على أساس من الإيمان بالله، وأن الأخلاق لا تستقيم بغير الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

كما أن الآية الكريمة: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ١٤٣ ﴿ (البقرة)، تبرز الغاية النبيلة من وسطية الإسلام، وتؤكد أنها غاية خلقية، تحول المسلمين إلى شهداء على الناس، أي شهود عدول يحتكم إليهم الفرقاء، ويجدون عندهم الأنموذج الصالح، ويصغون إلى حكمتهم. ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ

---

(١) يالجن (الاتجاه الأخلاقي في الإسلام) ص ٤٦، والغزالي: (ميزان العمل) ص ٢٦٤ تحقيق د. سليمان دنيا .

(٢) الغزالي (ميزان العمل) ص ٢٤ مرجع سابق .

(٣) توفيق الطويل (الفلسفة الخلقية) ص ١٣٨، مرجع سابق .

وَيُكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾ (البقرة)، والشهادة رقابة وإشراف على المتخاصمين خلال محاكمة عادلة تصدر من ثقة .

ثم إن الرسول ﷺ القدوة الحسنة في الأخلاق، ومنه تربي المسلمون كما شهد له بذلك رب العالمين ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (القلم).

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا»<sup>(١)</sup> .

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: (البر حسن الخلق . والإثم ما حاك في نفسك . وكرهت أن يطلع عليه الناس)<sup>(٢)</sup> .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: (لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا ولا متفحشا، وكان يقول إن من خياركم أحسنكم أخلاقا)<sup>(٣)</sup> . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: (تقوى الله وحسن الخلق) وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: (الطمع والفرج)<sup>(٤)</sup> .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم)<sup>(٥)</sup> .

- 
- (١) الحديث متفق عليه . انظر: النووي (رياض الصالحين) ص ٢٦٧ حديث رقم ١ / ٦٢١ .
  - (٢) الحديث رواه مسلم . انظر النووي (رياض الصالحين) ص ٢٦٨ حديث رقم ٤ / ٦٢٤ .
  - (٣) الحديث متفق عليه . انظر النووي (رياض الصالحين) ص ٢٦٨ حديث رقم ٥ / ٦٢٥ .
  - (٤) النووي (رياض الصالحين) ص ٢٦٨ حديث رقم ٧ / ٦٢٧ .
  - (٥) النووي (رياض الصالحين) ص ٢٦٨ حديث رقم ٩ / ٦٢٩ .

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن من أحبكم إلي، وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة، أحسنكم أخلاقا، وأن أبغضكم إلي، وأبعدكم مني يوم القيامة، (الثرثارون، المتشدقون، والمتفهبون) (\*). قالوا: يارسول الله قد علمنا (الثرثارون والمتشدقون) فما المتفهبون؟ قال: (المتكبرون) (١).

عن عائشة رضي الله عنها قالت ( ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادما، ولا امرأة، ولا دابة، ولا شيئا قط إلا يجاهد في سبيل الله، ولا نيل منه شيء قط فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله، فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم الله ) (٢).

وعن أنس رضي الله عنه أنه قال: ( خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أف قط ، ولا قال لشيء فعلته ، لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله لم تفعله ؟ وكان بعض أهله إذا عتبوني على شيء يقول: دعوه فلو قدر شيء لكان) (٣).

ويستفاد من هذا ترك العتاب على ما فات ، لأن هناك مندوحة عنه باستئاف الأمر به إذا احتيج إليه . وفائدة تنزيه ( اللسان عن الزجر والذم،

---

(\*) الثرثار : هو كثير الكلام تكلفا؛

المتشدق : المتطاول على الناس بكلامه ، ويتكلم بملء فيه تناصحا،  
المتفهبق : هو الذي يملأ فمه بالكلام ، ويتوسع فيه ، ويعرب به تكبرا وارتفاعا ،  
وإظهارا لفضله على غيره .

- (١) النووي (رياض الصالحين) ص ٢٦٩ حديث رقم ١ / ٦٣١ مرجع سابق .
- (٢) ابن تيمية (منهاج السنة النبوية) ج ١ ص ١٣٨ ، تحقيق محمد رشاد سالم ١٤٠٩هـ ،  
ومسلم (صحيح مسلم) ج ١٥ ص ٩٢ حديث رقم ٢٣٢٨ .
- (٣) مسلم (صحيح مسلم) ج ١٥ ص ٧٦ حديث رقم ٢٣٠٩ . وأحمد (المسند) ج ٣  
ص ٢٣١ . وابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١٠ ص ٤٥٦  
حديث رقم ٦٠٣٨ .

واستئلاف خاطر الخادم بترك معاتبته . وكل ذلك في الأمور التي تتعلق  
بالإنسان من أمور دنيوية ، وأما الأمور اللازمة شرعا فلا يتسامح فيها لأنها  
من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومهمة تهذيب الأخلاق ، وتزكية النفوس تشغل مكانا كبيرا في دائرة  
الدعوة الإسلامية ، فهي من أهم مقاصد البعثة المحمدية « إنما بعثت لأتمم  
مكارم الأخلاق ، وفي رواية: إني بعثت بالحنيفية السمحة »<sup>(١)</sup> يؤكد لنا ذلك  
قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (القلم).

وفي القرآن الكريم ما يدل على أن الأخلاق الفاضلة، والآداب  
الإسلامية هي من أهم مظاهر الحكمة، فالقرآن الكريم قد أطلق لفظ  
الحكمة على هذه الأخلاق والآداب في عدة مواضع ، وقد ذكر في سورة  
الإسراء التعاليم الخلقية الأساسية في موضع واحد ، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ  
رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ  
كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَخَفَضْ لَهُمَا  
جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ  
بِمَا فِي نَفْسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَأَت  
ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنْ الْمُبْذِرِينَ  
كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ  
عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ  
يَدَكَ مَغْلُوبَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾  
إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

---

(١) رواه مالك في الموطأ بلاغا عن النبي ﷺ وانظر السخاوي (المقاصد الحسنة) ص  
١٨٥ رقم ٢١٤ .

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْنَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ (الإسراء).

ففي مجموع هذه الآيات الخمس عشرة نجد النهي عن الشرك ، والأمر بالإحسان إلى الوالدين ، وخفض الجناح لهما ، وإيتاء ذي القربى ، والمسكين وابن السبيل ، والنهي عن التبذير ، والأمر بالتلطف لهم بالقول ، والنهي عن الإفراط والتفريط ، والنهي عن قتل الأولاد ، وعن الزنا ، وعن قتل النفس إلا بحقها ، وعن الإسراف في القصاص ، والنهي عن أكل مال اليتيم إلا بالحق ، والأمر بالإيفاء بالعهد ، وإيفاء الكيل والميزان ، والنهي عن التبختر والمرح الزائد ، وبعد ما انتهى من ذكر هذه التعاليم الخلقية ، التي تلتقى عليها الأديان والأمم ، والفطر المستقيمة والعقول السليمة ، ختمها بقوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴿٣٩﴾﴾ (الإسراء).

وكذلك شأن القرآن في سورة لقمان ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّالَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ

عَلِمَ فَلَا تَطْعُمَهَا وَصَاحِبُهَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّا أَنزَلْنَا فِي الْأَرْضِ لَكُمْ آيَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَآمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تَصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ (لقمان).

فإن في هذه الآيات ، النهي عن الشرك ، ومعرفة الفضل للوالدين ، وطاعتها في المعروف ، واتباع سبيل من أناب ، ومراقبة الله تعالى ، وإقامة الصلوات ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر على المصائب ، وعدم احتقار الناس ، والخيلاء والكبرياء ، والأمر بالاقتصاد في كل شيء ، والغض من الصوت إلى غير ذلك من الآداب .

وكذلك جاءت كلمة الحكمة في سياق الأخلاق الفاضلة والصفات الكريمة الطيبة، من إنفاق الأموال في سبيل الله، ثم عدم اتباعه بالمن والأذى، والحث على القول بالمعروف والمغفرة ، والتحرز من الرياء، والكفر بالله ، والإشفاق من بطلان الصدقات وحبط الحسنات، الحرص على ابتغاء رضوان الله ، وإصلاح النفس واستقامتها، والإنفاق من طيبات الأموال . وعدم تيمم الخبيث، والنهي عن الخوف الشديد من الفقر، والاسترسال إلى الشيطان ، إلى غير ذلك من التعاليم الخلقية ، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ

يَتَّبِعَهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمِثْلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بَرْبَوَّةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفِينَ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعْفَاءٌ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ (البقرة).

وقد ختم كل ذلك بقوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٢٦٩﴾ (البقرة)..  
وتاريخ الإسلام، بل وتاريخ الإنسانية زاهر بأخبار مكارم أخلاق المسلمين وفضائل أعمالهم، وحكاياتهم الجميلة في حسن السيرة. وكرم الأخلاق، وشدة الخوف من الله، والزهد في الدنيا وإيثار الآخرة على العاجلة، وإيثار من سواهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وأداء الأمانات إلى أهلها، والشهادة بالحق ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين، والإنصاف من النفس، والانتصار للحق، والغضب لله ولرسوله، والحب في الله، والبغض في الله، والرحمة على الخلق والضعفاء وحسن المواساة وشدة المساواة والتزام الحق والعدل في كل أمر، والتوسط والاقتصاد في كل شيء

إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة ، والصفات الجميلة التي يتحلى بها المسلم والتي بها كان من خير أمة أخرجت للناس .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أبا ذر اتق الله حيث كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن) <sup>(١)</sup> .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله ليبغ العبد بحسن خلقه درجة الصوم والصلاة» <sup>(٢)</sup> .

ومن هذا الذي ذكرناه في بيان مكارم الأخلاق في الإسلام، ودورها في تربية الأمة الإسلامية، والأخذ بها نحو الطريق المستقيم، والذي هو منهج الحياة الفاضلة، ودون تكبر وبطر، وهضم لحقوق الناس، أو ضعف وذلة.

ومن خلال آيات القرآن الكريم في وصف اليهود وأعمالهم مع انبيائهم لاحظنا الكبر والتعالي والغطرسة والمراوغة سواء مع أنبيائهم أو مع الناس، بل انهم تناولوا على ربهم سبحانه وتعالى، حيث حكى القرآن قولهم: ﴿أرنا الله جهرة﴾ <sup>(١٥٣)</sup> (النساء). وقوله: ﴿ادع لنا ربك﴾ <sup>(٦٨)</sup> (البقرة). وقولهم: ﴿فأذهب أنت وربك﴾ <sup>(٢٤)</sup> (المائدة).

كما أن النصارى غلوا في الترهيب، وقالوا في عيسى عليه السلام ما قالوا، وحرموا أنفسهم من متع الحياة، فابتدعوا الرهبانية، ومالوا إلى المثالية المفرطة، حيث يتوارثون (إذا صفحك أحد على خدك الأيسر فأدر له خدك الأيمن) <sup>(٣)</sup> .

(١) الحاكم الحديث صحيح الاسناد . انظر الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، مرجع سابق، ج ١ ص ٥٤ .

(٢) النيسابوري (المستدرک على الصحيحين) ج ١ ص ٦٠ مرجع سابق.

(٣) ناصر سليمان العمر (الوسطية في الإسلام) ص ٢٢٦ دار الوطن بالرياض طبعة سنة ١٤١٣ هـ و د . عبد الحميد إبراهيم (القرآن الكريم ومذهب الوسطية) ص ٧ دار طيبة للنشر والتوزيع بالقاهرة .

أما أمة الإسلام فقد ربيت على الفضيلة والعزة والكرامة والنجدة  
والمروءة، وحسن الخلق في التعامل، وفي الآداب والسلوك، حتى مع غير  
المسلمين، ومن هنا كانت أمة الإسلام ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ﴿ ١١٠ ﴾  
(آل عمران)، حيث سارت على الصراط المستقيم في أمور باطنة في القلب،  
وأمر ظاهرة من أقوال وأفعال .

الأول: كالاتقادات والإرادات وغير ذلك .

الثاني: كالعبادات، والعادات، والمعاملات، وغير ذلك .

وهذه الأمور سواء كانت باطنة أم ظاهرة، بينها ارتباط، فإن ما يوجب  
القلب شعورا، لا بد وأن يعبر عنه ظهورا، وما يظهر للناس من أعمال، فهو  
تعبير عما في القلوب .

والإسلام شرع للناس من الأقوال والأفعال ما يخالف سبيل المغضوب  
عليهم، وسبيل الضالين، ولم يكتف الشارح الإسلامي بهذا، بل أمر  
بمخالفتهم جميعا في الهدي الظاهر، أما لماذا أمر بمخالفتهم جميعا؟ فلأن  
المشاركة في الهدي الظاهر، تقتض المشاركة في الفعلين، وهذا يعني التخلق  
بأخلاقهم، والرضا بأعمالهم وهو أمر مرفوض ولا شك .

والمخالفة في الهدي الظاهر، توجب المفارقة بين الفعلين ومن ثم عدم  
الإيمان والرضا بأعمال الغير .

كما أن المشاركة في الهدي الظاهر تقتضي الاختلاط بهم، مما يرتفع التمايز  
ظاهرا بينهم، فيصير أهل الصراط المستقيم، والمغضوب عليهم، والضالين  
سواء في الأخلاق والعادات والعبادات، وهو أمر مرفوض، ومنهي عنه  
بنص كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه . فتعين بذلك اعتبار

الأمة الإسلامية وسطا بين الأمم مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ﴿١٤٣﴾ (البقرة)، أي عدولا لما تميزوا به من صفات أهلتهم لذلك التميز.

عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «إن أثقل شيء يوضع في ميزان المؤمنين يوم القيامة خلق حسن، وإن الله يبغض الفاحش البذيء» (١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائكم» (٢).

ومن أروع مظاهر الوسطية في الخلق: التناصر بين المؤمنين، وولاية بعضهم لبعض، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٧٢﴾ (الأنفال)، ومنع إشاعة الفاحشة، وقالة السوء، وانتشار الإشاعات المغرضة، والغيبة، والنميمة، والسعي بالفساد والسخرية بالآخرين، والوشاية، لها، مما ورد النهي عنه في نصوص كثيرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٢٣﴾ (النور)، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٩﴾ (النور)، وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ ﴿١٢﴾ (الحجرات)، وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ ﴿١﴾ (الهمزة)، وقوله: ﴿لَا

(١) البغوي (شرح السنة) ج ١٣ ص ٧٨ حديث رقم ٣٤٩٦ مرجع سابق.

(٢) البغوي (شرح السنة) ج ١٣ ص ٧٨ حديث رقم ٣٤٩٥ مرجع سابق.

يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نَسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴿١١﴾ (الحجرات)، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ ﴿٦﴾ (الحجرات).

ومن الوسطية في الخلق: أن يغض الرجل بصره، وتغض المرأة بصرها كذلك، وأن يعفا عن الحرام، وأن لا يتشبه الرجل بالمرأة ولا تتشبه المرأة بالرجال، وأن يلتزم كل منهما بالطبيعة التي خلقه الله عليها، وإلا انقلبت البشرية إلى انحراف الإنسانية عن مسيرتها الخيرة، وأصيبت بما لم يكن في أسلافها، تماماً، كما حصل للبقر حين أعلفت غير الطعام الذي خصصه الله لها فأصيبت بمرض «جنون البقر»<sup>(١)</sup>.

وقد بين الله الأحكام التي تناسب كلا منهما، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴿٣١﴾ (النور).

ومن الوسطية في خلق الإنسان: أن يعتدل في مشيته، فلا يتكبر ولا يذل، وأن يغض صوته فلا يرتفع من غير حاجة، ولا يغمغم به من غير أن يفهم، قال تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ ﴿١٩﴾ (لقمان)، كما أن من الوسطية أن لا يرفع صوته بالجهر بالسوء من القول لأحد، إلا إذا أوقع عليه أحد ظلماً، فله أن يرفع الصوت بالشكوى لرفع الظلم عنه، قال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ﴿١٤٨﴾ (النساء).

(١) عبد العزيز الخياط (الوسطية في الإسلام) ص ٦٨، مرجع سابق.

## ١ . ٥ . الوسطية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

### ١ . ٥ . ١ بيان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

#### تعريف الأمر:

الأمر لغة: من الفعل أمر يأمر أمراً، ويجمع على أوامر وأمور، ومن معانيه الامتثال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَتَمُّرُوا بِمَعْرُوفٍ﴾ ﴿٦﴾ (الطلاق)، أي ليأمر بعضكم بعضاً بالمعروف<sup>(١)</sup>، والأمر لفظ عام يجيء للأفعال والأقوال كلها<sup>(٢)</sup>، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ ﴿١٢٣﴾ (هود)، وقوله جل شأنه: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ ﴿١٥٤﴾ (آل عمران).

الأمر اصطلاحاً: «استدعاء الفعل بالقول على جهة الاستعلاء»<sup>(٣)</sup>.

وعند الغزالي: «هو القول المقتضي طاعة المأمور بفعل المأمور به»<sup>(٤)</sup>.

وهو حقيقة في الوجوب والندب، لأنها موضوعة للقدر المشترك بين الوجوب والندب وهو الطلب، طلب الفعل أو طلب الترك<sup>(٥)</sup>.

- 
- (١) الرازي (مختار الصحاح) ص ٢٤ مرجع سابق .
  - (٢) الراغب الأصفهاني (المفردات في غريب القرآن) ص ٢٤، مرجع سابق .
  - (٣) ابن قدامه (روضة الناظر وجنة المناظر) ص ٩٨ المطبعة السلفية .
  - (٤) الغزالي «المستصفى من علم أصول الفقه» ج ١ ص ٤١١ .
  - (٥) محمد عبد الله أبو النجا (أصول الفقه) ص ١٢٣ طبعة صبيح بمصر ١٣٨٥ هـ .
- ١٩٦٦ م .

## تعريف المعروف:

المعروف لغة: من الفعل عرف يعرف معرفة وعرفاناً بمعنى علمه ،  
والمعروف يتضمن المعرفة والاستحسان ، وهو ضد المنكر<sup>(١)</sup> .

وفي تاج العروس<sup>(٢)</sup>: المعرفة والعرفان إدراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره  
فهي أخص من العلم ، ويضاده الإنكار ، ويقال: فلان يعرف الله ورسوله  
ولا يقال يعلم الله ورسوله متعدياً إلى مفعول واحد ، لما كانت معرفة البشر  
لله تعالى هي تدبر آثاره دون إدراك ذاته<sup>(٣)</sup> .

المعروف اصطلاحاً: «هو كل ما يحسن في الشرع وخلافه المنكر»<sup>(٤)</sup>  
وقال الطبري: «أصل المعروف كل ما كان معروفاً نفعه مستحسناً غير  
مستقبح في أهل الإيمان بالله ، وإنما سميت طاعة الله معروفاً لأنه مما يعرفه  
أهل الإيمان ولا يستنكرون فعله»<sup>(\*)</sup> .

وقيل: المعروف ما أمر الله به ورسوله ﷺ مثل شرائع الإسلام<sup>(٥)</sup> ،  
وقيل بغير ذلك. وهو قريب في المعنى إذ هو كل ما عرف في الشرع من  
خير وطاعة .

- 
- (١) ابن منظور (لسان العرب) ج ٥ ص ٢٨٩٩ .
  - (٢) الغزالي (إحياء علوم الدين) ج ٧ ، ص ٣٥ دار الفكر ١٣٥٦ هـ .
  - (٣) الزبيدي (تاج العروس من جواهر القاموس) ج ٦ ص ١٩٢ ، مرجع سابق .
  - (٤) المفتي محمد السيد (التعريفات الفقهية) ص ٤٩٦ طبعة الهند .
  - (\*) محمد بن جرير بن يزيد الطبري له عدة مصنفات في التفسير والتاريخ توفي سنة  
٣١٠ هـ انظر كتابه الموسوم (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ج ٤ ص ٣٠ .
  - (٥) ابن تيمية (الأمر بالمعروف والنهي عن النكر) ص ١٦ تحقيق المنجد .

## تعريف النهي:

النهي لغة: ضد الأمر ، ونهاه عن كذا ينهاه نهياً ، وانتهى عنه: أي كف ، وتناهوا عن المنكر: أي نهى بعضهم بعضاً<sup>(١)</sup> .

النهي اصطلاحاً: طلب الكف عن الفعل ، ومقتضاه التحريم إلا إذا صرفه عنه صارف كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ ﴿٧﴾ (الحشر) ، ويقتضي الفور والتكرار ، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ ﴿٣٣﴾ (الإسراء) ، يقتضي أن تحريم القتل فوري وأنه متكرر بتكرر الأوقات<sup>(٢)</sup> .

## تعريف المنكر:

المنكر لغة: من الفعل نكر نكراً ونكراناً ونكوراً ، والإنكار الجحود<sup>(٣)</sup> والمنكر ضد المعروف<sup>(٤)</sup> ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْرًا﴾ ﴿٧٤﴾ (الكهف) ، وقوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ ﴿٢٩﴾ (العنكبوت) .  
المنكر اصطلاحاً: كل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه فهو منكر ، وقيل: هو ما أنكره الشرع<sup>(٥)</sup> .

---

(١) الرازي (مختار الصحاح) ص ٦٨٢ مرجع سابق .  
(٢) محمد عبد الله أبو النجا (أصول الفقه) ص ١٢٨-١٢٩ ، مرجع سابق .  
(٣) الرازي (مختار الصحاح) ص ٦٧٩ ، مرجع سابق .  
(٤) الفيروز آبادي (القاموس المحيط) ج ٢ ص ١٤٨ .  
(٥) ابن منظور (لسان العرب) ج ٤ ص ١٩٠ . والمفتي محمد السيد عميم الإحسان (التعريفات الفقهية) ص ٥١١ طبعة الهند .

وقال الطبري<sup>(١)</sup>: « أصل المنكر ما أنكره الله ورآه أهل الإيمان قبيحاً فعله، ولذلك سميت معصية الله منكراً، لأن أهل الإيمان بالله يستنكرون فعلها ويستعظمون ركوبها » .

وقال ابن تيمية: « النكر الذي نهى الله عنه ورسوله ، وأعظمه الشرك بالله ... ومن المنكر كل ما حرمه الله كقتل النفس بغير حق وأكل أموال الناس بالباطل ... وكذلك عقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم وتطيف الكيل والميزان والإثم والبغي ، وكذلك العبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله ﷺ وغير ذلك »<sup>(٢)</sup> .

وقيل: المنكر اسم لكل ما نهى عنه الشارع من قول أو عمل أو اعتقاد، وسبب تسميته ، انه تشهد بفساده وتنكره وترفضه الفطر السليمة والعقول الرشيدة .

ومما سبق وأن ذكرناه في تعريف كل من المعروف والمنكر نعلم شمول المعروف والمنكر لجميع أصول الشريعة الإسلامية وفروعها في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والسلوك ، فما كان من ذلك خيراً يدخل في المعروف ، وما كان غير ذلك فيدخل في المنكر .

كما ونعلم أن السبيل إلى معرفة المعروف والمنكر هو الشرع وليس العقل ، فما عده الشرع معروفاً فهو معروف ، وما عده الشرع منكراً فهو كذلك ، ولا مدخل للعقل أو للناس في تحسين شيء أو تقييحه ، وما العقل إلا معين ومساعد للمعرفة .

---

(١) ابن جرير الطبري ( جامع البيان في تفسير آي القرآن ) ج ٤ ص ٣٠ ، دار المعرفة ببيروت .

(٢) ابن تيمية ( الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ) ص ١٦ تحقيق د. صلاح الدين المنجد .

## فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الفضائل العظيمة ، والأعمال الجليلة للقائم به الثواب الجزيل من الله العظيم ، يقول جل شأنه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ (التوبة) ، فقد رتب سبحانه وتعالى الرحمة على من يقوم بعدة أمور والتي منها ، بل و أولها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وفي موضع آخر يقول جل شأنه: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ (التوبة) .

وقد رتب سبحانه وتعالى الفلاح على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال جل شأنه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ (آل عمران) .

كما أنه تعالى جعل خيرية هذه الأمة معلقة بقيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث قال جل شأنه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿١١٠﴾ (آل عمران) .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب كبير من أسباب النجاة من مصائب الدنيا ، ومن عقوبات الآخرة ، يقول عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ (الأعراف) .

وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نالت أمة الإسلام الخيرية على سائر الأمم، وإن استمرار خيرية أمة الإسلام مرهون باستمرارية قيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى الوجه المشروع دون إفراط أو تفريط، وهناك النصوص الكثيرة الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنها ما ذكرنا، والمجتمع الذي لا يقيم فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فليس من الخيرية في شيء، ولا هو من أمة الوسط ولو كان عربياً أو مسلماً.

فإن الأمة الإسلامية لم تنل الخيرية وهذا الشرف العظيم إلا بقيامها بما أمر الله ورسوله ﷺ، وقد لعن الله سبحانه وتعالى الذين أضاعوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (المائدة).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (المائدة).

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ (آل عمران).

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ (البقرة).

إن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر انحراف وخروج عن الصراط المستقيم، وأن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولكنه لا يلتزم بما يدعو الناس إليه وينهاهم عنه فهو خارج أيضاً عن منهج الصراط المستقيم، قال

تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٤٤) (البقرة).

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢) ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٣) (الصف)، فالانحراف هنا ليس بأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وإنما لمخالفة فعله قوله، قال ابن كثير: «والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف، وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به، ولا يتخلف عنهم كما قال الله تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٨٨) (هود)، أي لا أريد أن أنهاكم عن أمر ثم أفعل خلافه، بل لا أفعل إلا بما أمركم به، ولا أنتهي إلا بما أنهاكم عنه، وبهذا قال الطبري»<sup>(١)</sup>.

قال النخعي<sup>(\*)</sup>: «ثلاث آيات منعتني أن أقص على الناس، ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (٤٤) (البقرة)، ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ (٨٨) (هود)، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢) (الصف)، هذه الآيات مدلولها واحد، وهو النهي عن مثل هذا الفعل وبيان خطورة هذا الانحراف<sup>(٣)</sup>.

(١) الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ج ١٢ ص ١٠٣، مرجع سابق.  
(\*) النخعي: هو إبراهيم بن يزيد بن قيس أبو عمران، روى عن علقمة ومسروق اخذ عنه حماد بن أبي سليمان وغيره مات سنة ٩٥ هـ، الذهبي (تذكرة الحفاظ) ج ١ ص ٧٣.  
(٢) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ١٨ ص ٨٠، مرجع سابق.

وإذا كان إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو مخالفة الفعل للقول انحرافاً عن الصراط المستقيم، وخروجاً عن منهج الوسطية، فإن أعظم أنواع الانحراف في هذا الباب هو ما بينه الله تعالى في قوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ ﴿٦٧﴾ (التوبة)، ومن المنكر الذي يأمر به بعضهم بعضاً، الكذب والخيانة وإخلاف الوعود والفجور والغدر بنقض العهود ونحو ذلك، مما نهى الله عنه، ومن المعروف الذي ينهون عنه الجهاد، وبذل المال في سبيل الله للقتال وغير القتال ونحو ذلك مما رغب الله فيه وحث عليه<sup>(١)</sup>.

ويبين سيد قطب وجه انحراف المنافقين فيقول: «أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، وهم حين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، يستخفون بهما ويفعلون ذلك دساً وهمساً، وغمزاً ولمزاً، لأنهم لا يجراؤن على الجهر إلا حين يأمنون، فهم خارجون عن الإيمان، منحرفون عن الطريق، وقد وعدهم الله مصيراً كمصير الكفار»<sup>(٢)</sup>.

وبهذا يتضح أن هذا المسلك أسوأ ألوان الانحراف في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الطريق الأمثل والمنهج الأقوم، وأنه لا يستوي من قام به ومن أهمله وفرط فيه، قال تعالى: لَيْسُوا سَوَاءً مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾

(١) محمد رشيد رضا (تفسير المنار) ج ١٠ ص ٥٣٣، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، بدون تاريخ الطبعة.

(٢) سيد قطب (في ظلال القرآن) ج ٣ ص ١٦٧٣.

(آل عمران) ، أي ليسوا كلهم على حد سواء ، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم ، ولهذا قال سبحانه: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴿١١٣﴾﴾ (آل عمران) ، أي قائمة بأمر الله ، مطيعة لشرعه ، متبعة نبي الله فهي قائمة يعني مستقيمة<sup>(١)</sup> ، ومفهوم هذه الآية أن الأمة التي ليست كذلك ، ولم تتصف بهذه الصفات التي أثنى عليها الله تعالى فهي أمة منحرفة ضالة زائفة .

وعن ابن مسعود ر أن رسول الله ﷺ قال: « ما من نبي بعثه الله في أمته قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»<sup>(٢)</sup> .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « مثل القائم في حدود الله - أي المنكر لها - والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، وكان الذين في أسفلها إذا استسقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن هم تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»<sup>(٣)</sup> .

وبهذا المثل يصور النبي ﷺ ، المجتمع الإسلامي وحدة متماسكة فالسفينة هي الوطن ، والناس فيها هم أبناؤه ، ولكل فرد من أبناء الوطن نصيبه فيه ،

---

(١) ابن كثير ( تفسير القرآن العظيم ) ج ١ ص ٣٩٧ مرجع سابق .  
(٢) النووي ( رياض الصالحين ) ص ١٠٣ حديث رقم ١٨٥ / ٢ مرجع سابق .  
(٣) النووي ( رياض الصالحين ) ص ١٠٤ حديث رقم ١٨٧ / ٤ مرجع سابق .  
والبغوي ( شرح السنة ) ج ١٤ ص ٣٤٢ حديث رقم ٤١٥١ .

والذي أراد أن يخرق السفينة هو المرتكب للمعاصي فإن منعه عن المعصية نجوا جميعا من عذاب الله ، وان تركوه هلكوا ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ﴿٢٥﴾ (الأنفال).

## ١ . ٥ . ٢ أمثل طرائق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ﴿١٢٥﴾ (النحل).

في هذه الآية الكريمة بيان لأبرز معالم طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي بيان وإرشاد للنبي ﷺ، وطريقة سيره في دعوة الناس كافة، وقد اختلف المفسرون في الآية هل تشمل الكفار؟ ام أنها محكمة في جهة العصاة من الموحدين، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين؟.

الجمهور على أنها محكمة<sup>(١)</sup>، قال القرطبي: «وقد قيل إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ويرجى إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة»<sup>(٢)</sup>، وهذا القول هو الأقرب للصواب والله أعلم لا سيما مع غير المسلمين الذين أجاز لهم الإسلام حق البقاء في ديار المسلمين. وقد اشتملت الآية السابقة على أربعة أمور:

### ١ - الدعوة إلى سبيل الله:

فقد أمر الله نبينا محمدا ﷺ أن يدعو إلى سبيل ربه، أي شريعته التي

(١) الألويسي (روح المعاني) ج ١٤ ص ٢٥٦، مرجع سابق.

(٢) القرطبي (أحكام القرآن) ج ١٠ ص ١٣١، مرجع سابق.

شرعها لخلقها وهو الإسلام<sup>(١)</sup> وهو أمر له ولأتباعه من بعده أن تكون دعوتهم خالصة لله ، لا لغرض دنيوي ولا لمصلحة شخصية .

## ٢ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة:

الحكمة هي «وضع الشيء في موضعه وهي إصابة الحق بالعلم والعقل»<sup>(٢)</sup>، وهي منحة الله لأبيائه، ولمن يشاء من خلقه، قال تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ ﴿٥٤﴾ (النساء)، وقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ﴿٢٦٩﴾ (البقرة).

وكما أن الحكمة تعني وضع الشيء في موضعه، فهي أيضاً تعني العقل والوعي وتقدير الموقف، ثم التفاعل مع الحدث تفاعلاً مشمراً لا يخرج عن نهج الحق والصواب، والحكمة ليست هي اللين والضعف كما يظن البعض، بل هي أكبر من ذلك، والحكمة إذا أخرجت بالذكر دخلت فيها الموعظة الحسنة والمجادلة بالحسنى، والمجادلة بغير الحسنى لمن يستحق ذلك<sup>(٣)</sup>.

وحيث إن الناس مختلفون في طبائعهم ومدركاتهم فقد سلك النبي ﷺ الطرق الكفيلة لنجاح دعوته مع قومه، فأورد لكل مقام مقالا يليق به، وخاطب كل طبقة بما يناسبها<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن جرير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن) ج ١٤ ص ١٩٤ .

(٢) الراغب الأصفهاني (المفردات في غريب القرآن) ص ١٢٦ .

(٣) زيد بن عبد الكريم الزيد (الحكمة في الدعوة إلى الله) ص ٣٣ ما بعدها، دار العاصمة، الرياض ١٤١٢هـ.

(٤) علي محفوظ (هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة) ص ٣١، دار المعرفة، بيروت .

لقد كانت دعوته ﷺ تفسيرا عمليا لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ ﴿١٢٥﴾ (النحل).

إن مواقف الحكمة في دعوة النبي ﷺ لغير المسلمين، وللمسلمين الجدد في صدر الإسلام كثيرة ومتنوعة مبنوثة في كتب السنة والمغازي والسير وليس المقام مقام سرد لتلك المواقف، ولكن إعمالاً لمبدأ ما لا يدرك كله لا يترك جله، نعرض لحادثتين اثنتين فقط على سبيل المثال:

جاء زيد بن سعنة، وهو أحد أخبار اليهود وعلمائهم، إلى رسول الله ﷺ، فأخذ بمجامع قميصه وردائه وجذبه، وأغلظ له القول، ونظر إلى النبي ﷺ بوجه غليظ وقال: يا محمد ألا تقضييني، إنكم يا بني عبد المطلب قوم مطل، وشدد له في القول، فنظر إليه عمر وعيناها تدوران في رأسه كالفلك المستدير، ثم قال: يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتفعل ما أرى، فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر لومه لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم، ثم قال: «أنا وهو يا عمر كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن التقاضي، اذهب به يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعاً من تمر»<sup>(١)</sup>.

أما الموقف الثاني: فمع (معاوية بن الحكم السلمي)<sup>(\*)</sup> قال: بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم فقلت: واثكل أمياه<sup>(٢)</sup> ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا

---

(١) ابن حجر العسقلاني (الإصابة في تمييز الصحابة) ج ١ ص ٥٤٨.

(\*) معاوية بن الحكم السلمي . صحابي جليل . له حديث واحد عن رسول الله ﷺ، من أهل المدينة روى عنه عطاء بن يسار . الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج ٣ ص ١٤١٤ حديث رقم ٢٤٣٣ .

(٢) الثكل بضم الثاء وإسكان الكاف وبفتحها جميعاً فقدان المرأة ولدها .

يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمتونني ، لكنني سكت ، فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه ، فوالله ما كهرني ، ولا ضربني ، ولا شتمني ، ثم قال ﷺ : « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن » (١) .

### ٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالموعظة الحسنة:

الموعظة الحسنة هي النصيحة بالأسلوب المحبب والوجه المقبول ، وهي الكلام الملين للقلب بما فيه من ترغيب وترهيب يحمل السامع إليه ، إلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ، وإنما يحصل المقصود من الموعظة إذا حسن لفظها بوضوح دلالاته على معناها ، وحسن معناها ، بعظيم وقعه في النفوس ، فتستقر في القلوب وتبلغ مبلغها في دواخل النفس البشرية (٢) وهذا هو هدي النبي ﷺ في مواعظه ، وقد كان ﷺ يتحرى بالموعظة أوقات الحاجة والفراغ والنشاط إلى استماعها حتى لا يجعل الوعظ على الناس ركاما فيتشاغلوا عن سماعه ، ويفوتهم كثير من إرشاداته (٣) ، وكان ﷺ يراعي الحكمة في الموعظة ، فيضع الإطناب في وقته المناسب ، وكذلك الإيجاز في وقته المناسب ، ويراعي الإحساس والعواطف وترتيب الحديث (٤) .

---

(١) مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ٥ ص ٢٣ حديث رقم ٥٣٧ مرجع سابق .

(٢) عبد الحميد ابن باديس ( الدرر الغالية في آداب الدعوة والداعية ) ص ٣٧ دار المنار، الخرج ١٤١٢هـ .

(٣) علي محفوظ (هدية المرشدين) ص ٣٤ مرجع سابق .

(٤) عبد الله اللحيدان (دعوة غير المسلمين إلى الإسلام) ص ٢٣٦ ، طبعة ١٤٢٠هـ .

وغير المسلمين اليوم بحاجة إلى من يهز مشاعرهم ويعظهم ويذكرهم بما يهيج عواطفهم فيخرجون بعد الموعدة وقد تأثرت نفوسهم وركت قلوبهم ، واستجابت لدعوة الله وآمنت بها .

#### ٤ - المجادلة بالتي هي أحسن:

الجدال هو أحد الطرق المستخدمة في الدعوة لإقناع المدعو، وإزالة الشبهة، وإقامة الحجج والبراهين على صحة الدعوة وبطلان ما سواها، وهو لا يكون إلا عند الحاجة، ويقصد توضيح الحق وإبطال الباطل، وهو جدال مشروط بأن يكون بالتي هي أحسن، قال ابن كثير رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ﴿١٢٥﴾ (النحل)، «أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب»<sup>(١)</sup>.

ولذلك كانت الحاجة إلى الجدال في الدعوة تختلف عن الحاجة إلى الحكمة والموعدة الحسنة، فالدعوة بوجهيها الحكمة والموعدة من جهة، والجدال من جهة، «ليستا في منزلة واحدة في القصد والدوام، فإن المقصود بالذات هو الدعوة، وأما الجدال فإنه غير مقصود بالذات، وإنما يجب عند وجود المعارض بالشبهة والصاد بالباطل عن سبيل الله، فالدعوة بوجهيها أصل قائم دائم، والجدال يكون عند وجود ما يقتضيه، ولهذا كانت الدعوة بوجهيها محمودة على كل حال، وكان الجدال مذموماً في بعض الأحوال، وذلك فيما إذا استعمل عند عدم الحاجة إليه يكون حينئذ شاغلاً عن الدعوة ومؤدياً في الأكثر إلى الفساد والفتنة»<sup>(٢)</sup>، ولذلك مال بعض المفسرين إلى أن الجدال ليس

(١) ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ج ٢ ص ٦٥٢، مرجع سابق .  
(٢) عبد الحميد ابن باديس (الدرر الغالية في آداب الدعوة والداعية) ص ٤٤، مرجع سابق .

من طرق الدعوة وأن المقصود منه غرض آخر مغاير لها وهو الإلزام والإفحام، وجعلوا الدعوة محصورة في طريقتين هما الحكمة والموعظة الحسنة<sup>(١)</sup>.

ولأن الجدل ليس محموداً على كل حال فقد جاء في القرآن مقيداً بالحسن ليميزه عن الجدل المذموم « ويشير إلى إباحته أو النذب إليه أو وجوبه تبعاً للأحوال »<sup>(٢)</sup>.

وأسلوب القرآن في الجدل والمحااجة من أنجح الأساليب وأفضلها، وفي القرآن آيات عديدة تبين أن الأنبياء جادلوا أقوامهم قال تعالى في قصة نوح عليه السلام: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنَا بَمَا تَعَدُّنَا إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ٣٢ ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ ٣٣ ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ٣٤ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِيَ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْرُمُونَ ﴾ ٣٥ ﴿ (هود) .

وقال في قصة موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى ﴾ ٤٩ ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ ٥٠ ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ ٥١ ﴿ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ ٥٢ ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ ٥٣ ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ ٥٤ ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ ٥٥ ﴿ (طه) .

(١) الألويسي (روح المعاني) ج ١٤ ص ٢٥٦، والشوكاني (فتح القدير) ج ٣ ص ٢٠٣، مرجع سابق.

(٢) علي جريشه (آداب الحوار والمناظرة) ص ٢٨، دار الوفاء، المنصورة ١٤١٠ هـ.

وكذلك قول فرعون لموسى عليه السلام: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ (الشعراء).

وجادل رسول الله ﷺ المشركين في مكة ، فإنه ﷺ لما بين بطلان عبادتهم أقبلوا مجادلين باللسان وهم القوم الخصمون ، فعمدوا إلى الاستهزاء والسخرية ، وأغروا به السفهاء ، ثم انتقل الأمر من جدل ومقارعة إلى اضطهاد ومقاطعة<sup>(٣)</sup> ، حتى أذن الله لنبيه بالهجرة إلى المدينة ، وكان موقف المشركين في جدالهم موقف المعاند الذي يجادل بعيداً عن طلب الحق والصواب ، وكان همهم في جدلهم أن يقدموا مطالب لا حدود لها ، وكل ما تجود به مخيلتهم يقدمونه مطلباً ، ويتخذونه من عدم إجابتهم حجة يحتجون بها<sup>(٣)</sup> .

وعندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ودعا أهل الكتاب بها إلى الإسلام قابلوه بالجدل ، وكان جدلهم معه كجدل أسلافهم مع موسى عليه السلام ، جدل المتعنتين الذين لا يطلبون رشاداً ولا يبغون سداداً ولا يريدون حقاً ينصرونه بل باطلاً يلوون ألسنتهم به<sup>(٣)</sup> .

وكان النبي ﷺ يأخذ هؤلاء وهؤلاء برفق وعطف وأناة حيناً وحزم حيناً ، وقد اعتصم في حوارهم معهم وجدله لهم بصفات جعلته المثل الكامل

(١) محمد أبو زهرة (تاريخ الجدل) ص ٤٣ ، الفكر العربي ، القاهرة .

(٢) محمد أبو زهرة (تاريخ الجدل) ص ٤٧ ، مرجع سابق .

(٣) محمد أبو زهرة (تاريخ الجدل) ص ٤٩ .

للشعر، فقد اعتصم بالحلم والصبر على الأذى، وخفض الجناح، والرفق، وحسن المعاملة، وكان إذا اشتد أذاهم عليه وعلى أصحابه قال: « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»<sup>(١)</sup>.

ويكون حسن الجدل مع غير المسلمين بالالتزام بموضوعيته وبعده عن الانفعال، وفي الترفع عن المسائل الصغيرة في مقابل القضايا الكبرى، حفظاً للوقت، وعزة للنفس، وكماً للمروءة، مع الحرص على الرفق واللين، والبعد عن الفظاظة والتعنيف.

## ١ . ٦ الوسطية في العبادات

### التعريف بالعبادة:

العبادة لغة: الطاعة والخضوع والتذلل<sup>(٢)</sup>، وكل طاعة لله على جهة الخضوع والتذلل فهي عبادة.

والعبادة اصطلاحاً: تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى ممزوجة بغاية المحبة له<sup>(٣)</sup>، فيجب لتحصيل العبادة بمعناها الدقيق أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله<sup>(٤)</sup> تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا

(١) البخاري (صحيح البخاري) ج ٣ ص ١٢٨٢ حديث رقم ٣٢٩٠ مرجع سابق.

(٢) الفيروز آبادي (القاموس المحيط) ص ٣٧٨، باب الدال فصل العين مرجع سابق.

وابن منظور (لسان العرب) ج ٣ ص ٣٧١ مرجع سابق.

(٣) الشيخ يوسف القرضاوي (العبادة في الإسلام) ص ٣١.

(٤) ابن تيمية (مجموع الفتاوى) ج ١ ص ٢٠٧ مرجع سابق.

وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ  
وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴿٢٤﴾ (التوبة).

وإذا كانت العبادة تعني غاية الذل لله تعالى، وغاية الحب له جل شأنه،  
فإن كلا من هذين ينتهي في النتيجة إلى الطاعة، والانقياد الكامل، وعدم  
المقاومة والعصيان .

وبناء على هذا فلا بد لتحقيق العبادة الخضوع لشرع الله ، والالتزام بما  
شرعه الله، ودعا إليه رسوله ﷺ أمراً ونهياً وتحريماً وتحليلاً ، وأن يكون هذا  
الالتزام والخضوع أساسه حب الله تعالى وخشية عقابه ، وأساس محبة الله  
تعالى استشعار فضله ونعمته وإحسانه ورحمته ، فالله تعالى خلق الإنسان،  
وخلق له ما في الأرض جميعاً ، وكرمه وفضله على كثير من خلقه ، ورزقه من  
الطيبات ، واستخلفه في الأرض ، نفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ،  
فمن أولى من الله تعالى بالحب .

وقد ورد ذكر العبادة على أنها حق الله تعالى في الحديث الشريف الذي  
رواه البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل (\*) قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال  
لي: « يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد ؟ » قلت: الله ورسوله اعلم، قال:  
« حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً »<sup>(١)</sup> .

ونظام العبادة في الإسلام يسع الحياة كلها في كل ميادينها ، فهو يشمل  
ما بين الإنسان وربه من حقوق ، وما بين الإنسان والناس من حقوق  
وعلاقات، فكل ذلك يدخل في نطاق العبادة في الإسلام ، فيدخل في

---

(\*) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي ، استشهد في الطاعون  
بالأردن ، مات سنة ١٨ هـ .

(١) رواه مسلم في صحيحه باب حق الله تعالى على العباد ، كتاب الإيمان حديث رقم ١٧ .

مفهوم العبادة، الفرائض والأركان الشعائرية في الإسلام كالشهادة والصلاة والصيام والزكاة والحج ، ويدخل فيه أيضاً كل ما صدر عن الإنسان يريد به وجه الله من سلوك أو تصرف أو قول أو فعل أو ترك أو نحو ذلك ، وهذا يغطي حياة الإنسان كلها ظاهرة وباطنة ، فلا يوجد أمر في الحياة إلا ويمكن إيقاعه بالشكل الذي يرضي الله تعالى حسبما أمر، فيكون عبادة، أو إيقاعه بالشكل الذي لا يرضي الله تعالى فيكون معصية .

فالعبادة إذا تشمل الفرائض ، وتشمل ما زاد على الفرائض من ألوان التعبد التطوعي ، وتشمل حسن المعاملة والوفاء بحقوق العباد ، وتشمل الأخلاق والفضائل الإنسانية كلها ، وتشمل الأخلاق الربانية من حب الله ورسوله ﷺ ، وخشية الله ، والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضى بقضائه والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، وتشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجهاد الكفار والمنافقين ، وتشمل طاعة الله وتنفيذ أحكامه وتشريعه في كل جوانب الحياة المتعلقة بالفرد والدولة ، بل إن العبادة لتشمل أعمالاً اجتماعية كثيرة لم يكن يخطر ببال الناس أن يجعلها الدين عبادة لله يثاب الإنسان عليها .

هذا وإن كل عمل اجتماعي نافع يعتبره الإسلام عبادة ما دامت نية صاحبه الخير لا الرياء، ولا يقصد الثناء، أو اكتساب السمعة الزائفة عند الناس، فيكون عبادة كل عمل يمسح به الإنسان دمة محزون، أو يفرج به كربة مكروب، أو يضمده به جراح منكوب، أو يسد به رمق محروم، أو يشد به أزر مظلوم، أو يقيل به عثرة مغلوب، أو يعيل به أرملة، أو يتكفل به رعاية أيتام، أو يعلم جاهلاً، أو يصلح به ذات بين، أو يميظ أذى عن طريق، أو يدفع به شراً عن مخلوق إلى غير ذلك، فإنه عبادة وقربة إلى الله تعالى إذا قصد به صاحبه وجه الله تعالى .

عن أبي هريرة قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٨٤﴾ (البقرة)، قال فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب فقالوا أي رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطبق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا، بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها ﴿أَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٢٨٥﴾ (البقرة)، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل الله عز وجل ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٨٦﴾ (البقرة)، قال: نعم ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به قال: نعم ربنا واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين قال نعم (١).

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٨٤﴾ (البقرة)،

(١) مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ٢ ص ٥٠٤ حديث رقم ١٢٥ باب ٥٧.

فقال النبي ﷺ: « قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا » قال فألقى الله الإيهان في قلوبهم فأنزل الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ، قال قد فعلت ﴿ وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ ، قال قد فعلت ، ﴿ وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا ﴾ ، قال قد فعلت (١) .

وقد جمع ابن تيمية كل المعاني الداخلة في العبادة بقوله: « العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، كالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والدعاء والذكر والقراءة، وامثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له تعالى، وأمثال ذلك هي من العبادات» .

وتأكيداً لوسطية الإسلام في العبادات، فقد روي عن أنس رضي الله عنه، قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم أما أنا فأقوم الليل أبداً ، وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر: أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ فقال: « أنتم الذين قاتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، واتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني » (٢)، فإن في قوله ﷺ: « فمن رغب عن سنتي

(١) مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ٢ ص ٥٠٥ حديث رقم ١٢٦ باب ٥٧ .  
(٢) البخاري (صحيح البخاري بهامش الفتح) ج ٩ ص ١٠٤ حديث رقم ٥٠٦٣ .

فليس مني « ما يشير إلى عدم ترك الأخذ بهذه الطريقة التي أنا عليها، والأخذ بطرائق غيري كما هو عند النصارى مثلاً من الأخذ بالرهبانية، فإنهم هم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى ، وقد عابهم بأنهم ما وفوا بما التزموا، وطريقة النبي ﷺ الحنفية السمحة يفطر ليتقوى على الصوم، وينام ليتقوى على القيام، ويتزوج لكسر الشهوة وإعفاء النفس، وتكثير النسل، ثم إن الأخذ بالتشديد في العبادة يفضي إلى الملل القاطع لأصلها، وملازمة الإقتصار على الفرائض وترك التنفل يفضي إلى إثارة البطالة وعدم النشاط في العبادة ، وخير الأمور الوسط .

وقال عبد الله بن عمرو: قال لي النبي ﷺ: « ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟ » قلت: إني أفعل ذلك ، قال: « فإنك إذا فعلت ذلك هجمت<sup>(١)</sup> عينك ، ونفثت<sup>(٢)</sup> نفسك ، وإن لنفسك حقاً ، ولأهلك حقاً، فصم وأفطر ، وقم ونم<sup>(٣)</sup> » فالمبالغة في العبادة يصحبها غالباً تقصير في حقوق أخرى كثيرة. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وعندي امرأة فقال: « من هذه ؟ » فقلت: فلأنه ، لا تنام من الليل ، تذكر من صلاتها، فقال: « عليكم من العمل ما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا<sup>(٤)</sup> ».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ المسجد فإذا جبل ممدود بين الساريتين، فقال: « ما هذا الجبل ؟ » قالوا: هذا جبل لزينة<sup>(\*)</sup>، فإذا فترت

(١) هجمت عينك : أي ضعفت .

(٢) نفثت نفسك : أي كلت وملت .

(٣) البخاري (صحيح البخاري بهامش الفتح) ج ٣ ص ٣٨ حديث رقم ١١٥٣ .

(٤) البخاري (صحيح البخاري بهامش الفتح) ج ٣ ص ٣٦ حديث رقم ١١٥١ .

(\*) زينب بنت جحش أم المؤمنين .

تعلقت ، فقال النبي ﷺ: « لا ، حلوه ، ليصلي أحدكم نشاطه ، فإذا افتر فليقعد»<sup>(١)</sup>، وفي هذا وما قبله من الأحاديث ما يحث على الاقتصاد في العبادة، والنهي عن التعمق فيها، والأمر بالإقبال عليها بنشاط وهمة، فهي دعوة صريحة من الرسول ﷺ إلى طريق الوسطية والاعتدال فاليهود مثلاً معرضون عن العبادة، مستكبرون عن عبادته تعالى، والنصارى مشركون به، والمسلمون عبدوا الله وحده بما شرع، لم يعبدوه بالبدع ولا بالخرافات، ثم ان اليهود يبالبغون في طهارة أبدانهم مع خبث قلوبهم وطهارة الظاهر إنما يقصد بها طهارة القلب، فهم يطهرون ظواهرهم وينجسون قلوبهم، والنصارى يدعون أنهم يطهرون قلوبهم مع نجاسة أبدانهم، وأما المسلمون فيطهرون أبدانهم وقلوبهم جميعاً<sup>(٢)</sup>، فصفت عبادات المسلمين فيها من الكمال والاعتدال .

يقول ابن تيمية: « إن شريعة التوراة يغلب عليها الشدة ، وشريعة الإنجيل يغلب عليها اللين ، وشريعة القرآن معتدلة جامعة بين هذا وهذا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾<sup>١٤٣</sup> (البقرة)، وقال في وصف أمته: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ﴾<sup>٢٩</sup> (الفتح) ، وقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾<sup>٥٤</sup> (المائدة) ، فوصفهم بالرحمة للمؤمنين والذلة لهم ، والشدة على الكفار والعزة عليهم»<sup>(٣)</sup> .

وللقرآن الكريم قصب السبق في تقرير وسطية العبادة، ومن ذلك قوله

- 
- (١) البخاري ( صحيح البخاري بهامش الفتح ) ج ٣ ص ٣٦ حديث رقم ١١٥٠ .  
(٢) ابن تيمية ( مجموع الفتاوى ) ج ٣ ص ٣٧٢ . و ( منهاج السنة النبوية ) ج ٥ ص ١٧٢ مرجع سابق .  
(٣) ابن تيمية ( الوسطية ) ص ٨٤ جمع وترتيب أبو الفضل عبد السلام محمد عبد الكريم ، دار الفتوح الإسلامية ، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م .

تعالى: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرِيَّ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ﴿٦٤﴾ (الزمر)، وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ كَافِرِينَ﴾ ﴿٤٣﴾ (النمل)، وقوله جل شأنه: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ﴿٧٦﴾ (المائدة) .

وقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٣﴾ (الزمر).

ومثل ذلك قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١١﴾ (الحج).

فجملة هذه الآيات الكريهات تعطينا منهج الوسطية في العبادة وذلك عن طريق بيان انحراف طريق أولئك الذين قلبوا العبادة عن وجهها الصحيح وانحرفوا في مفهومها وابتدعوا في دين الله ما لم يأمر به الله .

فما امتازت به العبادة في الإسلام أنها صلة مباشرة بين العبد وربه، فليس فيها وساطة أي مخلوق من مخلوقات الله تعالى، والمناجاة فيها تكون مع الله مباشرة، وهذه الصلة المباشرة بين العبد وربه في عباداته له تعالى هي الأمر الطبيعي المنطقي، والذي يتفق مع عقيدة التوحيد والإيمان به تعالى، فالله وحده هو الرب الخالق فلا وساطة في الألوهية، فهو وحده سبحانه المستحق للعبادة .

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ (فصلت)، وأعلن الله تعالى كذب ادعاء المشركين إذ عللوا عبادتهم لشركائهم بأن هؤلاء الشركاء يقربونهم إلى الله زلفى، فقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ ﴿٣﴾ (الزمر).

وإذا انعدمت الوساطة في عبادات الإسلام فإنه من ثم تنعدم المكانية أيضاً، فالأمكنة والجهات كلها بالنسبة إليه تعالى سواء، وكل مكان من الأرض اليابسة أو البحر المالح أو الحلو، أو الجو أو السهل أو الجبال، كل ذلك صالح لعبادة الله فيه، قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ (العنكبوت)، ولكن اقتضى توحيد جهة المؤمنين تحديد مكان قبلتهم، واقتضى تجميع كلمة المؤمنين وقلوبهم تفضيل المساجد التي هي بيوت الله للعبادة، وتفضيل البيت الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، والمسجد الأقصى على سائر المساجد.

كما اقتضت بعض المناسك تحديد أمكنة وأزمنة لها، فاختصت هذه الأمكنة والأزمنة بامتيازات خاصة اقتضتها مصالح العبادات نفسها والأغراض الدينية التي تهدف إليها، وكان الأصل في الجهات والأمكنة أنها بالنسبة إليه تعالى سواء، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ فَإِنَّمَا تَوَلَّوْا فُتُومًا وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١١٥﴾ (البقرة).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ

اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ  
 الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى  
 النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى  
 وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ (الحج).

فهذه آيات كريهات تصور لنا موقف الإسلام من الحياة، فالعبادة  
 مقترنة بفعل؛ الخير لأنه غايتها وثمرتها، وليست العبادة في ذاتها فرضاً  
 مقصوداً يقتصر عليه، حتى لا تتحول إلى أشكال وصور لا تمس القلوب  
 ، ولكنها غاية وراءها غاية لا تتحقق إلا بها، والإسلام هو شريعة النبيين  
 من لدن إبراهيم عليه السلام إلى أن جاء محمد ﷺ، فالشريعة الإسلامية  
 وسط كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ﴿١٤٣﴾ (البقرة)،  
 والوسطية تتقارب مع معنى المثالية، ومن قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ  
 أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ (القلم)، فقد فسرها العلماء بمعنى أمثلهم  
 وأعدلهم قولاً وأصدقهم، والمثالية تجمع بين المادة والروح، فهي لم تهمل  
 مطالب الجسم بجوار عنايتها بالروح، وتهذيب النفس، وتربية الوجدان،  
 فالعبادة بجملة أشكالها تهذيب للنفس وتربية لها، وبعد بها عن الطريق  
 المهلك، فإن تطهير الروح غاية ووسيلة، هو غاية لأن القرب من الله في  
 ذاته أمر حسن مطلوب، وهو وسيلة لإصلاح الجماعة الإنسانية وتطهيرها  
 من رجس الأهواء والشهوات.

والكنيسة عند النصارى أضفت على نفسها صفة القداسة، ومارست  
 سلطاناً روحياً محاطاً بالغموض والأسرار، وجعلت نفسها واسطة بين  
 الناس وإلههم، وزعمت الكنيسة أن المسيح قال لبطرس كبير الحوارين  
 «أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابني كنيسة وأبواب الجحيم لن تقوى

عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون محلولاً في السموات » وانه قال: « إني اهب سلطاني لكنيستي »<sup>(١)</sup> وبناء على هذا الزعم الباطل فقد اعتمدت الكنيسة أن المكان الذي مات فيه بطرس - وهو روما - لابد أن يكون مقراً للنفوذ الديني الذي ييسط ذراعيه على الأرض كلها ممثلاً في الكنيسة، وعلى رأسها البابا، له واجب الطاعة، لأنه من أمر الله فالكنيسة وريثة المسيح ، ومن ثم فإن لها ذات الوضع، وذات السلطان الذي كان للمسيح ، فهي مقدسة ، وقداسة البابا ومن يكمل الأمر إليهم من الكرادلة، وغيرهم هم الوسطاء الذين تمر بهم مشاعر الناس وأعمالهم لكي تصل إلى الله، كما تمر من خلاهم كلمة الله إلى الناس<sup>(٢)</sup>. وهذا كله ولا شك غير صحيح فهو لا يقوم على أساس في دين الله تعالى.

فالرسل جميعاً من عند الله هم رسل فحسب ، ليس لهم قداسة وليس لهم تحريم شيء أو تحليله إلا بأمر من الله ، يقول عز وجل على لسان رسوله ﷺ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿٩٣﴾ (الاسراء).

ويقول عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ ﴿١٤٤﴾ (آل عمران) ويقول عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِ اتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ ﴿٥٠﴾ (الأنعام).

ويقول عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٨٨﴾ (الأعراف) ، ويقول عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ

(١) انجيل متى ، الإصحاح السادس عشر ص ١٩ نقلاً عن د/ فؤاد عبد المنعم (أبحاث في الشرائع) ص ١٧٥ نشر مؤسسة شباب الجامعة ، اسكندرية ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

(٢) محمد قطب (مذاهب فكرية معاصرة) ص ٢٨.

الْكِتَابَ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولَهُ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ (النساء).

لقد مارست الكنيسة ورجالها طغياناً روحياً بوصفهم الوسطاء بينهم وبين الله، ورجال الدين في المسيحية قريب من دور الكهنة في الديانات الوثنية، فهم أصحاب الأسرار - أسرار التثليث - والعشاء الرباني الذي يتحول فيه جسد المسيح ودمائه إلى خمر وما إلى ذلك من المعتقدات والطقوس، والطفل عند المسيحيين لا يعد مسيحياً حتى يعمد، والتعميد لا يتم إلا على يد الكاهن، ومن ثم تبدأ حياة المسيحي بتلك الوساطة الكهنوتية التي تدخله ابتداءً في الدين، ثم يظل حياته كلها مرتبطاً بالكاهن، فهو الذي يزوجه، وهو الذي يصلي به صلاة الأحد في الكنيسة - وهو الذي يتقبل اعترافه بخطاياها ويتقبل توبته<sup>(١)</sup>.

- وأسطورة الأب الذي صلب ولده فداءً لخطيئة آدم .

- وأسطورة العشاء الرباني .

والتثليث أسرار من أصول العقيدة المسيحية، وبهذا فالكنيسة تضع نفسها موضع الإله، وتجعل لنفسها حقوقاً أكثر مما افترض الله تعالى على  
 (١) فؤاد عبد المنعم (أبحاث في الشرائع) ص ١٧٨ مرجع سابق.

العباد<sup>(١)</sup>، وهذا كله ولا شك انحراف عن دين الله، سواء ما جاء به عيسى عليه السلام أم محمد عليه الصلاة والسلام .

فليس في الإسلام إذا عبادة كما هي عليه عند النصارى على نحو ما رأيت، فليس فيه رهبانية، ولا تعذيب الجسم لتطهير الروح، ولا فيها الانقطاع عن الدنيا، فليس فيه ناس يعتكفون في الصوامع، ويختصون بهذه العبادة، ويأخذون أنفسهم بها، ويحلبون ويحرمون ويجعلون لهم القداسة والأمر والنهي في أمور الدين، فعبادات الإسلام يخاطب بها الجميع، ولا يختص فريق من الناس بنوع منها، لأن الجميع مخاطبون بكل عبادة، ولا يتصور أن تطلب الرهبانية من كل الناس، وإلا تعطلت الحياة، وتعطلت أسباب الرزق.

والإسلام كما حرص على تهذيب النفس من غير إهمال الجسد ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٧٧﴾ كانت العبادات فيه ليس فيها تعذيب أو إهمال للجسد لتقوية الروح أو تهذيب النفس، إنما الذي اشتملت عليه العبادة هو تقوية الإرادة الإنسانية لتحكم الشهوات، فيقوى الجسد والروح معاً، ويسير في طريق الخير والسعادة الحقيقية في هذه الأرض، وكان كل ما في العبادات من تكاليفات في حدود الطاقة الإنسانية وما يتسق مع فطرتها، وما فيها من مشقات يلاحظ أنها تكون في حدود هذه الطاقة البشرية التي يمكن الاستمرار عليها .

كما أود الإشارة إلى أن التكاليفات التي تكون فيها مشقات تكون غير دائمة كالحج، فإنه لا يشرع إلا مرة واحدة في العمر كله، وللقادر عليه أيضاً، أو تكون هذه المشقات الشديدة التي تكون فوق المعتاد تفرض في

---

(١) محمد قطب (مذاهب فكرية معاصرة) ص ٣٠ وما بعدها مرجع سابق .

الصور التي يكون فيها نفع عام ، بحيث تكون المنفعة التي تترتب عليها أكبر من الضرر الذي ينال من يقوم بها وعلى ذلك تكون في إحدى أحوال ثلاث<sup>(١)</sup> :

الأولى: في الفروض الكفائية التي يكون في تحققها مصلحة للأمة وحفظاً لكيانها كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإنه واجب على من عينته الأمة ، أو تعين هو لأدائه ولو أدى ذلك إلى تلف نفسه .

الثانية: في الأحوال التي يتوقف نفع عام على القيام بها كالتعرض للأحداث الكونية في سبيل القيام بعمل نافع لهدف الإنسانية - ولو أدى ذلك إلى بذل النفس والنفيس في سبيل تحقيق ذلك النفع ، كأولئك الذين يجازفون بأنفسهم في سبيل تحقيق نفع الإنسانية .

الثالثة: في الأحوال التي يكون فيها محافظة على حقوق الغير من العباد أو على حقوق الله تعالى ، فمن أكره ليقتل إنساناً أو يرتكب حداً من حدود الله ، وتعرضت نفسه للتلف ، فإن الصبر في هذه الحال يكون موضع ثواب ، وإن كانت المشقة شديدة ، واحتماها صعباً .

ومما نود الإشارة إليه أن العمل الذي يكون مشقة لا يستحسن لذاته، إنما يستحسن لما فيه من نفع أكبر ، ودفع ضرر أشد كما أحب أن ألفت الأنظار إلى أن المشقة الشديدة في ذاتها ليست أمراً يتعبد به ، لأن تعذيب الجسد لتطهير الروح أمر مرفوض فهو ليس من مقاصد الشريعة الإسلامية ، إنما الذي يتفق ومقاصد الشريعة الإسلامية هو أن تكون المشقة غير المعتادة لدفع ضرر ، أو لجلب نفع ، وبذلك تكون محققة لمقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية .

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة يرحمه الله (مذكرات دراسية) كلية الحقوق جامعة القاهرة.

ومن هذا الذي ذكرناه يبدو أن للعبادة في الإسلام سمات وخصائص تميزت بها ، نجمل بعضها منها فيما يلي:

الأول: ارتباطها بالقاعدة الإيمانية المستندة إلى الحق والواقع الذي تشهد به الدلائل العلمية والعقلية والفطرة .

الثاني: عمقها في النفس الإنسانية وكونها استجابة قلبية ونفسية فطرية أخلاقية للتصورات الإيمانية .

الثالث: لا تكون عبادة حقاً ما لم يلاحظ فيها ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى وهو الإخلاص لله في العبادة .

الرابع: الغرض الأساسي من العبادة ذكر الله .

الخامس: شمولها لقطاعات الإنسان الداخلية والخارجية .

السادس: اشتغالها على مصالح عظيمة للأفراد والجماعات .

السابع: يسرها وسهولتها وكونها لا حرج فيها .

الثامن: انحصارها في فعل الخير وترك الشر .

التاسع: لا وساطة فيها بين العبد وربّه .

العاشر: لا تكون عبادة الله فيما لم يأذن به الله .

الحادي عشر: الأصل فيها إطلاقها من حدود المكان والزمان إلا أن بعض العبادات والمناسك الخارجية اقتضت مصلحة العبادة فيها وحكمتها تخصيصها في مكان أو زمان خاص<sup>(١)</sup> .

---

(١) عبد الرحمن حبنكة ومحمد الغزالي (الثقافة الإسلامية) ج ١ ص ١٩٠ جامعة أم القرى بدون تاريخ .

وجملة القول في وسطية الإسلام - في علوها، واستمدادها من الفطرة، واهتمامها بالإنسان في كل مشاعره وأحاسيسه، وحاجاته وضرورياته - فإنها تبرز في منعها التجرد للعبادة في الصوامع والمعابد، والانقطاع عن الناس من غير ضرورة منعاً باتاً، لأن العمل لنفع الناس في حد ذاته نوع عبادة لا سيما إذا قصد به وجه الله تعالى، كما أنها تبرز جلياً في سير العبادات واعتياد النفس البشرية على تحمل مشاقها والاستمرار فيها، والمداومة عليها، وإن العبادة التي فيها مشقة تكون في أحوال محدودة، ولا يكون فيها صفة الاستمرار والدوام كالحج مثلاً.

وكذلك تتضح الوسطية في تحريم الإسلام تعذيب الجسم، وإن مخالفة الفطرة من غير تهذيب روحي أمر يرفضه الإسلام، فمثلاً ترك سنة الفطرة في النكاح منهي عنه، ثم إن التيسير في العبادة يقرب إلى الله أكثر من قصد المشقة فيها، وما كان ذلك كله إلا؛ لأن الإسلام دين الحياة، يريد لها نقيّة طاهرة منتجة ومثمرة، وفيها نفع الإنسان لأخيه الإنسان، وتحقيق لتسخير الله تعالى الأكوام للإنسان.

## ١ . ٧ الوسطية في الولاء والبراء

ليس يخفى أن الإيمان بالله تعالى أصل من أصول العقيدة الإسلامية بمعنى أن يؤمن الإنسان بأن الله تعالى موجود، وأنه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله لا شريك له في الألوهية وأنه لا مثل له ولا شبيهه وأنه منفرد بكل صفات الكمال... منزّه عن كل صفات النقص وهذا معنى الولاء لله، فالولاء هنا بمثابة الإثبات في شهادة أن لا إله إلا الله، والبراء يقابل النفي فيها (لا إله)، وعليه فالولاء يتضمن إثبات الألوهية لله تعالى، وحب من

يعتقد بذلك ، والبراء يتضمن النفي فيها ، والكفر بمن يعتقد فيها - أي في نفي الألوهية - ولما كان أصل الولاء الحب ، وأصل البراء البغض فإن هذه العقيدة من لوازم الإيمان بالله تعالى ، كما دل على ذلك الرسول ﷺ في قوله: (أوثق عرى الإيمان، الولاء في الله ، والمعادة في الله ، والحب في الله ، والبغض في الله) <sup>(١)</sup> وهذا لا يعني أن الإنسان ينبغي عليه ألا يوالي أحدا غير الله تعالى ، وألا يعادي إلا الله ، وأن يحب ما أحبه الله ، ويبغض ما أبغضه الله .

ومن خلال عقيدة الولاء لله تعالى ، والبغض لله تعالى ، فقد زلت أقدام وضلت أفهام ، وارتكبت جماعات من المسلمين أخطاء عديدة ، فقتلت وسفكت دماء بريئة ، وظلمت أناسا كثيرين ، وبخست حقوق العديد من الخلائق ، ونقضت عهودهم ومواثيقهم ، لفهمهم الخاطيء في حقيقة الولاء والبراء ، إذ الولاء والبراء ، وكما سبق وأن أشرنا يعني الموااة لله تعالى ولمن يحبونه ، ويلتزمون بدينه الذي أراده الله تعالى لهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ١٩ ﴿آل عمران﴾ .

وأن البراء معناه بغض الشرك وأهله ، وعدم اتباعهم فيما يعتقدون ، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ٨٥ ﴿آل عمران﴾ .

ومصادقا لقوله ﷺ: (والذي نفسي بيده لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بالذي جئت به، إلا كان من أصحاب النار) <sup>(٢)</sup> .

(١) ابن حنبل (المسند) ج ٤ ص ٢٨٦ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ج ١ ص ٤٩٧ .

(٢) الحديث من رواية أبي هريرة ، انظر مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ١ ص ١٣٤ ، وأحمد (المسند) ج ٢ ص ٣٥٠ مرجع سابق .

فحقيقة البراء هي أن يعتقد المسلم أن كل ما لا يدين بدين الإسلام فهو كافر ، وأنه لو مات وهو على هذه العقيدة فهو في النار ، وإذا كان ذلك كذلك فهذا يقتضي أن تعاديه وتبغضه لكونه يدين بدين غير الإسلام ، فأنت في حقيقة الأمر تبغض ما هو عليه من الضلال ، وتود أنه لو يهتدي إلى الإسلام ويعمل به لكان خيرا له ، ولأحبيته ووددته حينئذ .

فالولاء والبراء بهذا المفهوم يقتضي بغض الكفار وعداوتهم في كل ما يتعلق بالدين دون غيره ، وبمعنى آخر أن بغضهم وعداوتهم لا يعني ظلمهم أو بخس حقوقهم ، أو الاعتداء عليهم ، ومن ثم عدم الإحسان إليهم ، أو غشهم أو خيانتهم أو الغدر بهم أو الإساءة إليهم بأي شكل كان ، فهذا ولا شك فهم خاطئ لمفهوم الولاء والبراء ، ثم إن كثيرا من الناس لا يتصور وجود المحبة للكفار البتة ، ويظنون أن محبة الكفار تنافي البراءة من الكفار ، وهذا أصل الخلل والخطأ الذي وقع فيه جمع من الناس ، لأن هذا الكافر قد يكون ابنا ، وقد يكون أباً ، وقد تكون أما ، وقد تكون زوجة ، فهل يعتقد أحد بأن الله تعالى كلفنا بغضهم وكرههم الذي لا يصح اجتماعه مع المحبة .

فالمودة المنهي عنها هي في حقيقتها بمعنى التولي ، وليس بمعنى المحبة الطبيعية التي يجدها الإنسان في نفسه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ﴿٥٦﴾ (القصص) فأثبت سبحانه وتعالى محبته ﷺ لعمه ، وهذا ولا شك لا ينافي براءته من الكفار ، فالبغض والعداوة المطلوبة من المسلم للكافر هي التي تختص بالدين ، فإنك رغم محبتك له ، تعلم وتعتقد أنه ضال ، وأنه لو مات وهو على هذه العقيدة فإنه من أصحاب النار ، ومقتضى البراءة منه أيضا ألا تجامله في أي أمر من أمور الدين ، فلا يجوز لهذه المحبة أن تكون سببا في طاعتك له في أمر يخالف الدين .

وتأكيدا لما ذكرنا من أن بغض الكفار وعداوتهم ، وعدم مودتهم إنما هو في الدين ، وليس في سائر أنواع المعاملات ، وأمور المعاش في الحياة الدنيا، نورد ما يلي:

أولا: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ (التوبة) وفي هذه الآية الكريمة تلحظ أن الله أمر ببغض الكفار ولو كانوا من أقرب الناس كالوالدين ، لكن هذا البغض إنما هو في الدين دون غيره ، يدل على ذلك ما جاء من الأمر بصحبتها في هذه الدنيا معروفا فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَيْهَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ ﴿١٥﴾ (لقمان).

وجاء في صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: رأى عمر رضي الله عنه حلة على رجل تباع ، فقال: للنبي صلى الله عليه وسلم ابتع هذه الحلة تلبسها يوم الجمعة ، وإذا جاءك الوفد . فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما يلبس هذا من لا خلاق له في الآخرة) فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم منها بحلل ، فأرسل إلى عمر منها بحلة، فقال عمر كيف ألبسها وقد قلت ما قلت فيها ؟ قال: (إني لم أكسكها لتلبسها، تبيعها أو تكسوها) فأرسل بها عمر إلى أخ له من أهل مكة قبل أن يسلم<sup>(١)</sup>.

فدل ذلك على أن الإحسان للكافر ليس من التولي ولا ينافي البراءة من الكفر.

ثانيا: قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿٨﴾

(١) البخاري (صحيح البخاري) ج ٢ ص ٩٢٤ ، و مسلم (صحيح مسلم) ج ٣ ص ١٦٣٨ حديث رقم ٢٠٦٨ مرجع سابق .

﴿٩﴾ (المتحنة) ففي هذه الآية نهانا الله عن تولي الكفار إذا قاتلونا في الدين، ولم ينهنا عن الإقساط إليهم، وبرهم والإحسان إليهم، والوفاء بعهودهم، لأن هذا لا ينافي البراءة من الكفار، ولا يقتضي التولي لهم، وما يزيد ذلك إيضاحاً ما جاء في الصحيحين عندما منع ثمامة بن أثال الميرة رضي الله عنه عن قريش عندما دخل الإسلام، فقال: لا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup>.

ومن المعلوم أن قريشا قد قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدين وأخرجوه مع أصحابه من ديارهم وظاهر كثير منهم على إخراجهم، ومع هذا كله فإن الإحسان إليهم بذلك ليس من الولاء للكفار.

ثالثاً: أن دين الإسلام قد أجاز للمسلم أن يتزوج بالكتابية من اليهود والنصارى، ولك أن تتصور مقدار المودة التي تكون بين الزوجين، مع اختلاف الدين، والعلاقة التي تجمعهم بأصهاره، ولكن هذه المودة لا تنافي الولاء والبراء، قال تعالى: ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ (الروم).

رابعاً: أن الإسلام قد أجاز التعامل مع الكفار بيعة وشراء وغير ذلك من العقود الجائزة ولا بد أن يكون هنالك علاقة مترتبة على مثل تلك المعاملات ولكنها لا تنافي عقيدة الولاء والبراء، بخلاف ما يظنه بعض المسلمين من أن أي تعامل مع الكفار فهو مناقض لعقيدة الولاء والبراء.

(١) البخاري (صحيح البخاري) ج ٤ ص ١٥٨٩، ومسلم (صحيح مسلم) ج ١٢ ص ٣٣٠ حديث رقم ١٧٦٤ مرجع سابق.

فلا بد من فهم أن هناك فرقاً بين الموالاتة التامة للكفار التي توجب الكفر، والموالاتة الجزئية التي تكون معصية، والموالاتة التي هي جائزة، والأمور الأخرى التي ليست من الموالاتة أصلاً .

وتأكيداً لما ذكرنا، ومن خلال ممارسات الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، والمسلمين إلى يومنا هذا أن البراءة - ابتداءً - إنما تكون من كفر الكافرين، وبعبارة أخرى هذا يعني:

أولاً: أن الأصل هو إباحة التعامل مع غير المسلمين، لعموم النصوص الواردة في ذلك<sup>(١)</sup>.

ثانياً: أن الأصل هو إباحة تحية الكافرين بالصيغة المناسبة، أما قول النبي ﷺ: (لا تبدؤوهم بالسلام، وإذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيق الطريق)<sup>(٢)</sup> فذلك مرهون بسياقه، فقد أمر به عندما علم بخيانة بني قريظة، وأخذ يتأهب بالذهاب إليهم للتأكد من خيانتهم ولتأديبهم، فقد ثبت عنه ﷺ أنه سلم على مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين واليهود<sup>(٣)</sup>.

ثالثاً: أن الأصل هو إباحة الاستعانة بغير المسلمين، فقد استعان بهم الرسول ﷺ في كثير من المواقع<sup>(٤)</sup>.

رابعاً: أن الأصل هو أداء حقوق الكافر، فالإسلام يأمر بالعدل والإنصاف، إذ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ

(١) عبد الله الطريقي (الاستعانة بغير المسلمين) ص ١٦٥ مرجع سابق .

(٢) محمد بن إسماعيل البخاري (صحيح البخاري) ج ١١ ص ٤١ .

(٣) محمد بن إسماعيل البخاري (صحيح البخاري) ج ١١ ص ٤١ . وابن القيم (زاد

المعاد في هدي خير العباد) ج ٢ ص ٤٢٤ . والشوكاني (نيل الأوطار شرح منتقى

الأخبار) ج ٨ ص ٦٦ .

بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ  
لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ (المائدة)، وهذا  
حق من حقوق الكافر، يختلف عن الإحسان إليه الذي تمليه ظروف  
الدعوة وتأليف القلوب، بل إن الإسلام يدعو إلى الرأفة بالمقاتلين  
الذين يستسلمون ويحث على الإحسان إليهم إذ جعل من صفات  
المؤمنين إطعام الأسرى<sup>(٢)</sup>.

خامساً: أن الأصل هو إباحة التعاقد مع الكافر للعمل، ولكن ليس في عمل  
مهانة كخادم في منزل أو عمل محرم مثل بيع الخمر والتعامل بالربا<sup>(٣)</sup>.

سادساً: أن الأصل هو إباحة جعل المسلم لغير المسلم نوعاً من الوصاية مثل  
الثقة في معلوماته وخبراته في الأمور الدنيوية فليس ذلك محرماً، ولنا  
في رسول الله ﷺ قدوة حسنة، فالمسلم قد يتلقى المعرفة الدنيوية  
عن غير المسلم، أو يعمل لديه، أو يتخذه طبيباً أو مستشاراً ونحو  
ذلك، ما دام ذلك يحقق مصلحة متبادلة يحتاج إليها المسلمون،  
ولكن الولاء العام لا يجوز للكافرين، لأن الولاء العام يدخل فيه  
شؤون الدنيا والآخرة، وهو محصور في الله سبحانه وتعالى وفي  
رسوله والمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، قال تعالى:  
﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ  
الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ ﴿٥٥﴾ (المائدة) وتلك هي وسطية الإسلام في  
الولاء والبراء.

(١) ابن هشام (السيرة النبوية) ج ٣ ص ١٣٧ .

(٢) انظر مثلاً الآية ١٨ من سورة الإنسان، والآية ٨ من سورة الأعراف .

(٣) ابن قيم الجوزية (أحكام أهل الذمة) ص ٢٧٠ - ٢٧٧ .

## ١ . ٨ الوسطية في مجالات الحياة العامة

ليس يخفى أن الميل إلى شهوات الدنيا أمر فطري مركز في خلق الإنسان، والذي يسود العالم اليوم منه صنفان:

الأول: وقف أمام هذه الحقيقة موقفاً فعلياً ، فحرم على نفسه الطيبات، ومنعها من الاستمتاع بما لذ الدنيا وما فطرت عليه من نكاح ومال وملبس ومأكل، وما إلى ذلك من مستلزمات الحياة ، وهذا الذي عليه رهبان النصارى، وبعض الصوفية من أهل السنة . وكثير من مجتمعات شرقي آسيا الذين اخترعوا الرياضيات الروحية ، والتي تقوم على إزهاق الجسد وتعذيبه<sup>(١)</sup> .

الثاني: وهم على العكس من ذلك انساقوا وراء شهواتهم وملاذهم وقالوا: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ ﴿٢٤﴾ (الجاثية) فهؤلاء الناس أغرقوا أنفسهم في الشهوات ، وعبدوا الماديات ، وانساقوا وراء النفعية المادية البحتة .

وهؤلاء كسابقهم ضلوا عن سواء السبيل ، فإن اختيار صدق النظريات أو المذاهب إنما يكون دائماً بانتقالها من العموميات النظرية إلى التطبيقات الجزئية ، وبهذا تثبت ديمومتها خلال تلك الجزئيات التي تتحول في الوقت نفسه إلى براهين دالة على صدق العموميات والنظريات ، فهي علاقة مركبة بين العموميات والجزئيات ، وبين النظريات والتطبيقات ، فالمذهب الصادق يستمد وجوده خلال أجزائه التي تتحول إلى براهين وأدلة على حيويته .

---

(١) سلمان العودة (المسلمون بين التشديد والتيسير) ص ١٤ الطبعة الأولى ، بدون تاريخ .

وبعد هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، حيث تشكلت للمسلمين كل مقومات الدولة الإسلامية، من إقليم وشعب وسلطة، ووضع لها دستوراً متمثلاً في القرآن الكريم وفي سنة النبي ﷺ (أقواله، أفعاله، تقريراته) والذي حدد الحقوق والواجبات والعلاقات داخل الأسرة الواحدة، وداخل المجتمع الكبير، وبين الحاكم والمحكوم، والكبير والصغير، والأمير والضعيف، والعلاقات مع الأمم المختلفة التي لا تدين بالدين الإسلامي، وكل التنظيمات والتوجيهات التي تخدم الإنسانية، وتحقق السعادة والرفاهية للبشرية، فقد أتى بها هذا الدستور العظيم، فإن أول سورة من القرآن الكريم نزلت في المدينة المنورة قد وضعت حجر الأساس لوسطية الإسلام، وبمعنى آخر قدمت المهاد النظري لأمة الإسلام، أمة الوسط.

وتأكيداً لما ذكرنا، فقد صحب هذا الإعلان تغيير القبلة من بيت المقدس بفلسطين، إلى الكعبة المشرفة والمسجد الحرام، وعلى الأرض التي درج عليها جد العرب إسماعيل عليه السلام الذي جعل يحمل شعلة والده إبراهيم عليه السلام ليغرسها في أصلاب العرب، ويجعلها تنتقل من جيل إلى جيل حتى تصل بذلك إلى محمد ﷺ، وبذلك تحققت الخصوصية، والتي تصدر عن صدر ربح، يتعامل مع الإنسان في كل زمان ومكان ودون تمايز أو تخاصم، ومن هنا جاءت الوسطية للتجاوز مع غير المسلمين من يهود ونصارى وغير ذلك مما كان يسود في تلك الفترة من عقائد، وفي الوقت نفسه تنظم للبشر كل أمور معاشهم في مختلف المجالات التي تتطلبها الحياة الدنيا، وبذلك تنطلق الوسطية من الخصوصية لتتجاوز إلى العالمية، وترتكز على نقاط الالتقاء وتتجاهل نقاط الافتراق، فقد ذكرت آية الوسطية في سياقها بأن الرسول ﷺ يكون شاهداً على المسلمين، وأنموذجا يقتدون به، وأن المسلمين أيضاً يكونون شهداء على الناس، ونهاذج للحب والتسامح مع الجميع.

وفيما يلي تطبيقات متنوعة على شتى المظاهر الدينية والدينيوية التي أتى بها الإسلام ، وحث الناس عليها ، ورجبهم فيها كتأكيد وسطية الإسلام .

جاء الإسلام والناس مستسلمون لعواطفهم ، غافلون عن واجباتهم ، متبعون الأهواء والشهوات ، منغمسون في تقاليد بالية ، وعقائد فاسدة ، من عبادة للأصنام ، وتقديس لما لا يجلب لهم خيراً ولا يدفع عنهم شراً ، إتباعاً لأهوائهم ، وتقليداً لأبائهم : قال تعالى : ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الزخرف) ، فطالبتهم سبحانه وتعالى بعبادته والإيمان به وحده عن طريق البحث والنظر والعقل والتفكير ، فلفت الأنظار ، ونبه الأفكار إلى ما في هذا الكون الفسح من عبر وآيات ، وما حواه من دقة في الصنع ، وإحكام في النظام ، ليهتدي الإنسان بهذا النظر ، ويصل عن طريق الحس والمشاهدة إلى الإيمان الصحيح ، والعقيدة السليمة فينهج المنهج القويم في حياته الدنيا .

الإسلام دين عالمي عام يوجه الإنسان في الحياة ، ويساعده على أن يحصل لنفسه وللجماعة الإنسانية أسمى درجة من الكمال الإنساني ، في الروح والخلق والمادة والعقل ، وينظم علاقته بربه وعلاقته بأخيه الإنسان في كل مظاهر الحياة لان الإسلام دين ودولة ، أي عقيدة وشريعة .

وقد تعبدنا الله تعالى ببعض أمور كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، وبين لنا قواعد الأخلاق ، وحث عليها ورجب فيها ، وهذه العبادات التي تعبدنا الله بها لا يجوز الزيادة فيها ولا النقص منها ، ولا تغيير شكلها أو تبديل كفياتها عن مقتضى الأمر بها ، فهي معقولة المعنى ، أي أنه لا يقاس عليها ، ولا يتوسع في شأنها ذلك لأنها توقيفية .

وقد أخذ الإسلام المعاملات بعين الاعتبار ، وبيّن أنها لا تقل أهمية عن العبادات، فلقد حلت بالبشر حاجة عامة دعت إلى التبادل في المنافع والخبرات وفي شتى شؤون الحياة ، نظرا لتعدد الحاجات ، واختلاف الرغبات ، فكانت الأثمان لتقدير الحاجات الخاصة بمطالب الناس لما اختلفت طرق الكسب المشروعة من تجارة وزراعة وغير ذلك من أمور المعاش ، وما تتطلبه الحياة، واحتاج كل فرد إلى ما عند الآخر ، وهكذا فقد جدّت أمور كلما تقدمت الملذات والشهوات والرفاهية في كل شأن وما يناسبه ، وانحدر بعض الناس فكانت السرقة والغصب والقمار وغير ذلك من المحرمات .

ولما كانت المبادلة قد ترد على عين بعين فقد شرع البيع ، أو على عين بمنفعة فشرعت الإيجارة ، ثم رغب الشرع وحث على التعاون بمختلف صورته وألوانه تأكيدا للترابط بين الناس فكانت التبرعات والصدقات والهبة والإعارة والقرض ، أكد ذلك تفاوت الناس في الغنى والفقر ، ولا يغيب عن الأذهان أن البعض من الناس قد يستتكف عن بعض الصناعات والحرف مما دعا الأمر إلى تبادل الخبرات ، وهذه المعاونات المختلفة بين الناس كانت محوطة بالشروط والإتفاقات والعقود، فكانت المزارعة والمساقاة والمضاربة والإيجارة والشركة والوكالة والجمعالية، وترتب على الاحتياج أن وضعت المداينات والوديعة، ولما كانت الخيانات تتطرق إلى نفوس بعض الناس وكان الجحود فقد اقتضى الإشهاد والكتابة، ولما رغب بعض الناس في التوثق على أموالهم أو على ديونهم التي لهم عند الآخرين ، شرع الرهن والكفالة والحوالة، وهكذا قد تجد في حياة الناس عقودا وشروطا لكنها لا بد أن تكون موافقة لروح الشريعة الإسلامية متمشية معها .

وبالنظر إلى هذه العقود نجدها من حيث الأصالة والتبعية ترجع إلى أمرين:  
- عقود أصلية: وهي عبارة عن كل عقد يكون مستقلا في وجوده غير مرتبط  
بأمر آخر على سبيل التبعية له في الوجود والزوال ، مثل البيع والإيجارة .  
- أو عقود تبعية: وهي عبارة عن كل عقد يكون تابعا لحق آخر ومرتبئا  
به في وجوده وزواله ، مثل الكفالة والرهن .

فالكفالة والرهن كلاهما توثيق لغيره ، فلا ينعقدان ابتداء إذا لم يكن في  
مقابلهما حق آخر ثابت ، أو متوقع ، ويزولان بزوال ذلك الحق المقابل كما  
يسقط كل فرع بسقوط أصله ، فلو أن الدائن أبرأ المدين الأصيل سقطت  
الكفالة أيضا عن الكفيل تبعا لسقوط الدين ، ومثل ذلك يقال في الرهن<sup>(١)</sup> .  
والعقود أصلية كانت أو تبعية لها شروط انعقاد وصحة ونفاذ ولزوم ،  
وعلى المكلفين أن يلتزموا الجادة التي خطها لهم الشرع في معاملاتهم تنظيما  
لعلاقاتهم ، وصيانة لمصالحهم ، وإقامة للعدل وقطعا للعدوان ، ما لم يكن في  
نصوص الشريعة أو قواعدها ما يمنع من عقد أو شرط معين ، كالتعاقد على  
الربا ، أو شروط تحل حراما أو تحرم حلالا .

فعندئذ يمتنع بخصوصه ، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ  
آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (١) (المائدة)، ومقتضى عموم هذا النص وإطلاقه ومجيبه  
بصيغة الأمر يدل على أن الوفاء لازم بسائر ما تم التعاقد عليه ، وقول الرسول  
ﷺ: «المسلمون على شروطهم إلا شرطا حرم حلالا أو أحل حراما»<sup>(٢)</sup> ، وقول

(١) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٣ ص ٣٨٩ ، ابن العربي (أحكام القرآن)  
ج ١ ص ٢٥٣ .

(٢) محمد إسماعيل الكحلاني (سبل السلام) ج ٣ ص ٥٩ ، ابن العربي (أحكام  
القرآن) ج ١ ، ص ٢١٨ .

عمر رضي الله عنه: «مقاطع الحقوق عند الشروط»<sup>(١)</sup>، وقد أمر سبحانه بالتوثيق في المعاملات، فقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾، فقد أمر الله تعالى المتدائنين إلى أجل مسمى بكتابة الدين بينهم وبالاستشهاد، كما أمر الكاتب أن يكتب ذلك بينهم بالعدل، وأمر بالإشهاد إذا تبايعنا وأمر الشهود ألا يأبوا، ولا شك أن في امتناع الكاتب عن الكتابة وامتناع الشاهد من الشهادة إذا دعي إليها، فيه مضرة وفسوق والله يقول: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ ثم أكد سبحانه وتعالى أتم تأكيد، ونهانا أن نسأم كتابة ما أمرنا بكتابته صغيرا كان أو كبيرا، وأخبر أن ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى من الارتباب، وأسقط الجناح في ترك الكتاب خاصة دون الإشهاد

(١) ابن العربي (أحكام القرآن) ج ١ ص ٢١٨ .

في التجارة المدارة، ولم يسقط الجناح في ترك الكتاب فيما كان ديناً إلى أجل مسمى<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا طالبت الشريعة الإسلامية بالإشهاد في عقد النكاح وفي الطلاق، وفي الجنايات الموجبة للحدود، فقد بين جل شأنه أن ما أمر به المؤمنون من الاستيثاق بالكتابة والإشهاد أعدل عند الله لأنه أمر به، واتباع أمره أعدل من تركه والانحراف عنه، ثم إنه أعون على إقامة الشهادة؛ لأنه يحوي الألفاظ التي أقر بها المتعاملان، فتجتمع عليها شهادة الشهود، فإذا شجر نزاع كان فصل الحكم أبين للحاكم، ثم إنه يقع الشك في المقادير والصفات والآجال وبالرجوع إلى المكتوب يزول ذلك.

ويذكر الإمام السرخسي منفعة التوثيق من وجوه:

الأول: صيانة الأموال، وقد أمرنا بصيانتها ونهينا عن إضاعتها، لأن الله جعل المال قياماً لمصالح العباد، وفي إضاعته تفويت تلك المصالح إما في حق مضيعها وإما في حق غيره.

الثاني: قطع المنازعة، فإن الكتاب يصير حكماً بين المتعاملين ويرجعان إليه عند المنازعة فيكون سبباً لتسكين الفتنة، ولا يجحد أحدهما حق صاحبه مخافة أن يخرج الكتاب وتشهد الشهود عليه بذلك فيفضح في الناس.

الثالث: التحرز عن العقود الفاسدة لأن المتعاملين ربما لا يهتديان إلى الأسباب المفسدة للعقد ليتحرز عنها فيعلمها الكاتب على ذلك إذا رجعا إليه بالكتاب.

---

(١) شهاب الدين السيد محمود الألوسي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) ج ٣ ص ٣٥، المطبعة المنيرية بمصر.

الرابع: رفع الارتباب فقد يشتهب على المتعاملين إذا تطاول الزمان مقدار البدل ومقدار الأجل فإذا رجعا إلى الكتاب لا يبقى لواحد منهما ريبة، وكذلك بعد موتها تقع الريبة لو ارث كل واحد منهما بناء على ما ظهر من عادة أكثر الناس أنهم لا يؤدون الأمانة على وجهها فعند الرجوع إلى كتاب لا تبقى الريبة بينهم<sup>(١)</sup>.

ومن هذا تعلم أن التوثق تارة يكون بالكتابة وتارة بالشهادة وتارة بالرهن وتارة بالضمان وذلك كله صيانة لحقوق الأفراد ومنع بغيهم على بعض .

وجملة القول أن الشريعة الإسلامية لا تقف في وجه أي تعامل مالي مادام كان هذا التعامل بعيداً عن الضرر و الربا و الغش و أكل المال بالباطل، فقد وضعت قانوناً للمعاملات حتى لا يأخذ المرء ما ليس له بحق وحتى تستقيم أحوال الناس ولا تضيع الحقوق وتكون المنافع متبادلة على أحسن الوجوه وأتمها . ولا شك أن هذه المعاملات التي أشرنا بطرف منها قد ملأت حياة الناس بهجة وسروراً وراحة وطمأنينة.

وبذا يستطيع كل فرد في هذه الحياة أن يحقق ما يصبو إليه ويريده في نطاق هذه المعاملات<sup>(٢)</sup>. وفي إطار ما رسمته الشريعة من ضوابط لهذه المعاملات .

ولا تقف الشريعة الإسلامية عند هذا الحد، بل إنها تؤمن رزق كل إنسان، فهي تحقق الأمان للمجتمع الإسلامي على خلاف المجتمعات الأخرى التي احتاجت إلى تأمين القانون، فلقد نظم الإسلام الاقتصاد وبنائه

---

(١) انظر في الموضوع ابن العربي (أحكام القرآن) ج ١ ص ٢٤٧ ومسند الإمام أحمد ج ٥ ح ٣٥١٩ مرجع سابق .

(٢) عز الدين بن عبد السلام (قواعد الأحكام في مصالح الأنام) ج ١ ص ٢٣٥، مكتبة الكليات الأزهرية بمصر ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

على عناصر أساسية . تتمثل في الزكاة والصدقات والندور والضرائب ، ونحو ذلك كالكفارات والوقف ، وبعبارة أخرى فإن الإسلام لم يقتصر دوره على وضع مبادئ و سنن قوانين لا ترتبط بالواقع ، فقد بنى الإسلام شريعته وأقام نظامه على أساس قوي من عزة الإنسانية وكرامتها فوضع من الأنظمة المالية والجزاءات التأديبية ما جعل الفقراء وذوي الحاجات والعاجزين عن الكسب يعيشون في مأمن من الخوف والضيق ومنأى عن العوز والحاجة ، ووصلهم بعون المجتمع فكان التعاون الذي يشير إليه القرآن الكريم : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (المائدة) .

والتكافل في الإسلام وبمفاهيمه العامة والشاملة تجده موفوراً في كل نواحي الحياة<sup>(١)</sup> .

ففي محيط الأسرة فرضت النفقة<sup>(٢)</sup> وجعل كل قادر منها مسؤولاً عن العاجزين والفقراء ، ولهذا فقد كان نظام العاقلة ، تمكيناً لرابطة الأسرة ، وأن الوصية في حدود الثلث ، وأنها لا تجوز لو ارث<sup>(٣)</sup> . وفي محيط البيئة كالتقوية أو الحي قرر الرسول ﷺ التكافل فيما بينهم ، يبين ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله »<sup>(٤)</sup> .

(١) محمد بن عرفه ( حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ) ج ٣ ص ٣٦٩-٣٧٠ دار إحياء الكتب العربية بمصر ، وأبو الوليد سليمان بن خلف الباجي ( المنتقى شرح موطأ إمام دار الهجرة ) ج ٦ ص ٤٠ مطبعة السعادة ١٣٢٢ هـ ، وأحمد بن حنبل ( المسند ) ج ٥ ص ١٩٠ حديث ٣٠٦٤ .

(٢) محمد بن إسماعيل الكحلاني ( سبل السلام شرح بلوغ المرام ) ج ٣ ص ٢١٩ ومسلم ( صحيح مسلم بشرح النووي ) ج ١٢ ص ٧ ، ومحمد الشوكاني ( نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ) ج ٦ ص ٣٢٠ .

(٣) مسلم ( صحيح مسلم بشرح النووي ) ج ١١ ص ٧٤ .

(٤) أحمد بن حنبل ( المسند ) ج ٢ ص ٣٣ مرجع سابق .

فالبئسة الواحدة يفرض عليها التكافل و التساند لمعرفة الفقير المحتاج فيها، و الاطلاع على المشكلات والقضايا التي توجد في محيطها، فلو لم يحقق القادرون منهم هذا التكافل فأهمل الفقير حتى أصبح جائعاً وتعرض للهلاك فقد برئ الله منهم .

يقول العلامة ابن حزم: وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه ومن اللباس للشتاء و الصيف بمثل ذلك ومسكن يقيهم من المطر و الشمس و عيون المارة ، برهان ذلك قوله تعالى: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ ﴿٢٦﴾ (الإسراء).

وقال تعالى: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ﴿٣٦﴾ (النساء).

فأوجب الله تعالى حق المساكين وابن السبيل مع حق ذي القربى وافترض الإحسان إلى الأبوين وذي القربى و المساكين و ما ملكت اليمين و الإحسان يقتضي كل ما ذكرنا، ومنعه إساءة بلا شك ، قال ﷺ: « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله »، « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه »<sup>(١)</sup>.

قال ابن حزم: من تركه يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه<sup>(٢)</sup>. و النصوص من القرآن والأحاديث الصحاح في هذا كثيرة جدا،

(١) ابن حزم ( المحلى ) ج ٦ ص ٢٢٤-٢٢٥ مكتبة الجمهورية بمصر ١٣٩٢ هـ، و الحديث رقم ١٠٢٤ - ١٠٢٥ من المقاصد الحسنة للسخاوي .

(٢) ابن حزم ( المحلى ) ج ٦ ص ٢٢٧ ، أحمد بن حنبل ( المسند ) ج ٢ ص ٣٥١-٣٥٢ .

ومنها نعلم أن التشريع الإسلامي في الذروة العليا من الحكمة والعدل، وهذه قمة الوسطية. فهي الأمثل والأعدل والأخبر في سائر المعاملات والتعاملات على نحو ما ذكرنا، وليت إخواننا الذين غرتم القوانين الوضعية وأشربتها نفوسهم يطلعون على هذه الدقائق ويفقهونها ليروا أن دينهم جاءهم بأعلى أنواع التشريع في الأرض، تشريع يشبع القلب والروح، وتألّفه الفطرة السليمة في كل مكان وكل زمان، ولو فقه المسلمون أحكام دينهم ورجعوا إلى استنباطها من المنبع الصافي والمورد العذب - الكتاب والسنة - وعملوا بما يأمرهم به ربهم في خاصة نفوسهم وفي أمورهم العامة وفي أمورهم الخاصة، لو علموا هذا لكانوا سادة الأمم، ولو فقه الأغنياء لعلموا أن أول ما يحفظ عليهم أموالهم إسداء المعروف للفقراء، بل القيام نحوهم بما أوجبه الله على الأغنياء.

وقد أفتى العلامة ابن حزم بأن تؤخذ الدية من أهل البلدة التي مات منها امرؤ من أثر الجوع أو العري وفيهم الأغنياء<sup>(١)</sup>.

كما أن التكافل متحقق بالنسبة للأمة بأجمعها يدل لذلك مشروعية الزكاة، ووجوب إعطائها إلى مستحقيها التي هي تملك جزء من مال عينه الشارع لمستحقه بشرائط مخصوصة، وكانت المورد الأول للإسلام وأحد أركان الإسلام، قال تعالى: ﴿وَاتَّوَّأَ الزَّكَاةَ﴾ ٢٧٧ ﴿البقرة﴾، فهذا أمر، والأمر يقتضي الوجوب.

وقد بين الله لنا مصارف هذه الزكاة في قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ٦٠ ﴿التوبة﴾، ثم إن هذه الزكاة ما هي إلا تنظيم اجتماعي وليس إحساناً فردياً، وليست

(١) ابن حزم (المحلى) ج ٦ ص ٢٢٨، مرجع سابق.

موارد الدولة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ مقصورة على الزكاة فحسب ، بل تناولت كذلك الغنيمة والفبيء و الجزية والإقطاع كما هو الحال عندما أنشئ بيت المال في عهد عمر بن الخطاب ر ، وكان من الموارد أيضاً الخراج والعشور والضريبة، وكذلك الغنيمة وهي كل مال وصل إلى المسلمين من الكفار عن طريق الغلبة والقوة، وهي نتيجة للحرب ولم يعرفها المسلمون إلا بعد هجرتهم إلى المدينة .

وعلى العموم فالتشريع المالي الإسلامي منذ حياة الرسول ﷺ إلى وقتنا هذا وإلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها بنى موارد المالية على أساس توفير ما تحتاج إليه المصالح العامة من النفقات لتحقيق الرفاهية للأفراد والجماعات، ولتحقيق ما تقضي به الوحدة الاجتماعية من التعاون والتضامن، ولا شك أن الكفارات التي يخرجها الأفراد تكفيراً عن حنث اليمين، أو الظهار، أو الفطر في نهار رمضان وما إلى ذلك، كلها كان القصد منها والهدف هو تحقيق التوسعة على المحتاجين والفقراء، ثم إن تعاليم الإسلام كلها تهدف دائماً إلى تحقيق الصالح العام، وإعداد الأفراد إلى تكافل اجتماعي واضح في جميع نواحي الدعوة، فالفرد في المجتمع الإسلامي جزء من كل الأفراد، مسؤول عن الجماعة والجماعة مسؤولة عنه: « كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته »<sup>(١)</sup>.

فليس هناك فرد معفي من رعاية المصالح العامة، فكل فرد راع في المجتمع: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »<sup>(٢)</sup>. ففي التكافل الاجتماعي وما يرد على ملكية المال من تكاليف اجتماعية واقتصادية وما

---

(١) انظر الحديث بكامله صحيح مسلم ج ١٢ ص ٢١٣ صحيح البخاري ج ٩

ص ٦٢ مرجع سابق.

(٢) السخاوي (المقاصد الحسنة) ج ١٢٢٥ ص ٤٣٨ مرجع سابق.

رسمه الإسلام في سياسة العمل في كل هذا يجد المسلم أكبر حافز له على النهوض بتكاليفه في طوعية ويسر لاستقرار إيمانه بهذا الترابط الإسلامي بين الفرد والمجتمع، وهذا هو أساس مقاومة الآفات الاجتماعية وإليك بعض النصوص والآثار التي من خلالها يتبين وضوح التكافل الاجتماعي في الإسلام .

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴿٢﴾ (المائدة) وقال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴿٧٧﴾ (القصص).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ (آل عمران).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ (المعارج).

وقال: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴿١٩٥﴾ (البقرة).

وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴿١٠٣﴾ (التوبة)، وغير ذلك من الآيات الكريمة التي تقرر هذا المبدأ.

ومن السنة كثير أيضاً ومنه قوله ﷺ: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »<sup>(١)</sup>. و « ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »<sup>(٢)</sup>.  
 « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »<sup>(٣)</sup>.

ولنا من أصحاب رسول الله ﷺ خير هاد ومرشد: « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم »<sup>(٤)</sup>. فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وجد أن كثيراً من العرب قد ارتدوا عن دينهم بعد وفاة النبي ﷺ وتزعزعت قلوبهم الضعيفة، وامتنعوا عن أداء الزكاة، وشقوا عصا الطاعة في وجهه فلم يسكت عنهم، بل صمم على قتالهم وقال: « والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه »<sup>(٥)</sup> وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسقط الحد عن السارق عام المجاعة وأعطى العطاء الكثير ليتخذ الناس بما فضل عن حاجتهم ما ينفعهم إن قل المال أو منع العطاء، ومنع قسمة أرض العراق والشام على الفاتحين رحمة بما سيأتي من الذرية<sup>(٦)</sup>. وبهذه المواقف وغيرها تغلب

- 
- (١) السخاوي (المقاصد الحسنة) ص ٤٣٨ ح ١٢٢٥ .  
 (٢) وانظر حديث (للمسلم على أخيه ست خصال) و شرف الدين الحسين بن أحمد السياغي الصنعاني (الروض النضير) ج ٥ ص ٣٠٨. طبعة ١٣٤٨ هـ مطبعة السعادة بمصر .  
 (٣) أبو عمر يوسف بن عبد البر (جامع بيان العلم وفضله) ج ٢ ص ١١٠ ، دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .  
 (٤) سيف الدين أبو الحسن علي بن محمد الأمدي (الأحكام في أصول الأحكام) ج ١ ص ٢٤٨ ، مطبعة صبيح بمصر بدون ، و محمد كرد علي (الإسلام والحضارة العربية) ج ٢ ص ١٢٨ ، طبعة ١٩٦٨ م .  
 (٥) أحمد ابن حنبل (المسند) ج ١ ح ٣٣٥ .  
 (٦) أبو القاسم علي بن محمد السماني (روضة القضاة) ج ٣ / ١٢٤٦ . مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٣ م .

المؤمنون بالله ورسوله على ما صادفهم من أزمات وضائقات، وحل الرخاء محل الجذب بفضل ذلك التعاون والإيثار اللذين لولاهما لهلك الناس<sup>(١)</sup>. وقد اهتم الإسلام أيضا بأمر الأطفال واللقطاء، وتكلم الفقهاء عن الحضانة واللقطة، كما اهتم بأمر اليتيم يقول الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ (الماعون).

فالمسلم الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين، أي الذي لا يعنيه أمر جوانب الضعف في مجتمعه، أو لا يشترك في السعي لرفع هذا الجانب الضعيف إلى مستوى القوة السائدة في المجتمع، هذا المسلم أو هذا الذي ينتسب إلى الإسلام يكون في منزلة المكذب بالدين، فالإسلام يفرض في المسلم حقا أن لا يقف في مجتمعه موقفا سلبيا.

ويقرر صراحة وفي وضوح أن حقيقة التصديق بالدين ليست كلمة تقال باللسان وإنما هي تحول في القلب، يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه في الإنسانية، وإن هذا الدين ليس أجزاء موزعة منفصلة، إنما هو منهج كامل تتعاون عباداته وشعائره وتكاليفه الفردية والاجتماعية لتنتهي جميعا إلى الخير والصلاح والنماء، وكفل الإسلام المرضى وأمر بالإحسان إليهم، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ ﴿١٧﴾﴾ (الفتح)، بالإضافة إلى هذا كله كفالة الله الرزق لبني الإنسان ففي قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ﴿فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الذاريات)، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴿٦﴾﴾ (هود)، بيان لكفالة الله وضمانه لأمر مهم في حياة الناس ألا وهو الرزق.

(١) محمد كرد علي (الإسلام والحضارة العربية) ج ٢ ص ١٣٧-١٣٨ كبعة ١٩٦٨ م.

والإسلام أطلق لأتباعه حق اختيار ما يرونه محققاً لنهوضهم الاقتصادي، ولم يقيدهم فيما وراء العقائد والعبادات والحلال والحرام بشيء يمنعهم من النهوض بهم، وهو يبيح لهم بل يحتم عليهم أن يسلكوا في هذا الجانب كل ما يؤدي إلى رفع مستواهم الاقتصادي في ضوء معطيات النصوص وقواعد الإسلام العامة .

وهذه المبادئ العامة كثيرة ومنتشرة في كتب التفسير والحديث والفقه، ومما أود الإشارة إليه أن العبادات التي تعبد الله بها الناس بعيدة عن التطور، بل هي أمور ثابتة منذ نزلت على رسول الله ﷺ، وهذا طبعاً بخلاف المعاملات، فإن التطور فيها لا تعارضه مبادئ الشريعة .

ولذا فقد وجدنا أن بعض النصوص في القرآن الكريم إنما أتت لتقرر قواعد عامة في تشريع الأحكام العملية، فمثلاً البيع الذي هو معاملة يحتاج الناس إليها لم تأت الآيات فيه إلا لبيان بعض القواعد جملة دون تفصيلها، فلقد أبان الله تعالى إباحته بقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ ﴿٢٧٥﴾ (البقرة).

وأن الأساس الذي يبنى عليه إنما هو الرضى فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ ﴿٢٩﴾ (البقرة)، كما أمر سبحانه بالوفاء بالعقود فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ ﴿١﴾ (المائدة)، كذلك أرشدنا للإشهاد عند التبائع ضماناً للإنكار والتنازع فقال جل شأنه: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ ﴿٢٨٢﴾ (البقرة)، كما حذرنا من التعامل وقت النداء لصلاة الجمعة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ ﴿٩﴾ (الجمعة)، وكذلك الإيجارة، فالنص الوارد فيها كان بسبيل بيان

المشروعية: ﴿وَأْتِمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاَسَرْتُم فَسُتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَىٰ﴾  
﴿٦﴾ (الطلاق)، والإرضاع بلا عقد تبرع لا يوجب أجره وإنما يوجبها  
العقد ظاهراً. وكذلك كانت النصوص الواردة في السنة قد دلت على  
معانٍ كبيرة وأمور كثيرة .

وهكذا نجد الشريعة الإسلامية قد حرصت على أن يكون الإنسان متزناً  
وسطاً في خلقه وسلوكه ونظرته للآخرين وتعاطفه وتعامله مع الجميع، وأن  
يؤثر غيره المحتاج على نفسه، ولو كان به خصاصة، وأن يكون عدلاً في  
إعطاء الناس حقوقهم، وفي استيفاء حقه منهم، وعدم الإسراف أو التقتير  
في الطيبات والشهوات، وأن يعامل الناس عموماً كما يجب أن يعاملوه،  
فالاعتدال هو الطريق الواسع الميسر للسلوك فيه . فهو الطريق المستقيم،  
الذي يطلبه المؤمنون (اهدنا الصراط المستقيم) .



# الفصل الثاني

## ثمرات الوسطية



## ٢ . ثمرات الوسطية

### ٢ . ١ الخصوصية والتميز

لا ريب أن وسطية الإسلام تتحقق في جميع جوانب الحياة الإنسانية ونواحي المجتمع على اختلاف أزمته وأمكته ، وقد سبق وأن أشرنا إلى أهم المجالات التي تلعب فيها الوسطية دوراً مهماً ومؤثراً ، كما وذكرنا أهم المظاهر التي تتمثل فيها الوسطية ، وتبرز فيها جليلة واضحة .

وفي هذا المقام نأتي بآية كريمة تجمع بين الصراط المستقيم والوسطية، لنقف على ثمرات هذه الوسطية ، وما تميزت به أمة الإسلام ، من حسن الخلق ، وكريم الصفات ، يقول تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ١٤٢ ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ ١٤٣ ﴿ (البقرة).

والسياق الذي وردت خلاله آية الوسطية يشير إلى أمرين:

الأول: هو الصراط المستقيم .

الثاني: هو الانحراف عن الصراط المستقيم .

وتأتي الآية الكريمة: ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ ١٢٤ ﴿ (البقرة)، وفيها بيان واضح وصريح للمقياس الصحيح الذي يفصل بين الاستقامة والانحراف وبين الحق والباطل .

إن المقياس لا يبنى على ما تبنى عليه مقاييس العصر من الحسب والنسب والجاه والمنصب، وإنما هو مقياس يقوم على الإيمان بكلمات الله التامات وبالعهد بين إبراهيم وربه ، فمن حرص على العهد وتمسك بالمبدأ ، فهو من ذرية إبراهيم ، ومن خرج عن العهد فهو من الظالمين .

يأتي عقب ذلك قي قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نَفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنِ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسِيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ (البقرة)، ومن مجموع هذه الآيات الكريهات نلمس الجامع الذي يلتقي فيه ذرية إبراهيم من الأنبياء الصالحين وهو الحنيفية التي

وصى بها يعقوب بنيه ، إذ هي الدين القيم، كما تشير الآيات الكريبات إلى فريق آخر ، وهو فريق الظالمين ، ومن المعروف أن الظلم يعني مجاوزة الحد، وقد تمثلت هذه المجاوزة في كثير من اليهود الذين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، وكتموا الحق ، واتخذوا العجل، وبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم، وقتلوا الأنبياء بغير حق ، واعتدوا في السبت، ونبذوا العهد، وأكلوا الربا.

وفي قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٣٤﴾ (البقرة)، ما يؤكد أن الحنيفية هي الحق ، وأن من يدعي غير ذلك فهو انحراف عن الحق ، وفي بيان انحراف الكثير من اليهود والنصارى ما يمهد إلى ظهور من يعيد للحنيفية رونقها ويزيح عنها ما علق بها من انحراف وتشويه، وكان ذلك في ذرية إسماعيل ممن سكنوا منطقة الحجاز بجزيرة العرب، حيث حملوا معهم دين إبراهيم عليه السلام وتوارثوا عليه حتى رسول الله ﷺ ، حيث جاء ليحيي الحنيفية ويزيح عنها ما علق بها من تحريف وتشويه ، ولهذا فإن الإسلام الذي جاء به رسول الله ﷺ ما هو إلا امتداد للحنيفية وهي الدين القيم على ما وصفها القرآن الكريم، وأن من حاد عنها فهو من الكافرين وذلك وفق الوصف القرآني الذي وصف المحرفين بالكفار ، فإنهم غطوا وأخفوا الحنيفية وشوهوها بكثير من التأويلات .

ومما يؤكد لنا خصوصية هذه الأمة - أمة الإسلام - وتميزها عن غيرها ممن سبقها أنها كانت استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام ، فإن في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ

أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ مَا يَشِيرُ وَيُؤَكِّدُ بَلْ وَيُبَشِّرُ بظهور أمة الإسلام وبعث رسول من العرب يحيا الحنيفية التي كان عليها إبراهيم وذريته من الأنبياء الصالحين عليهم السلام .

وهذا كله تمهيد لآية الوسطية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة) وفيه أيضاً تأكيد على القاسم المشترك بين الأديان السماوية كلها وهو التوحيد لله تبارك وتعالى الذي هو الصراط المستقيم والدين القيم ، وفي الوقت ذاته ينبذ الانحراف عن الصراط المستقيم<sup>(١)</sup> .

ومما أود التنبيه عليه ، والإشارة إليه أن ما تميزت به أمة الإسلام من خصوصية ، لا تعني الانغلاق ، والتعصب ، والعنصرية ، وما إلى ذلك من ألوان التمايز التي ينبذها الإسلام ويحاربها ، وإنما تعني في جوهرها الانطلاق في استمرارية الحنيفية السمحة، بما أضافته إليها من أمور تتمثل في الآتي:

تحويل القبلة: فقد كان الرسول ﷺ يصلي إلى بيت المقدس ، ثم أمره الله تعالى بالتوجه إلى الكعبة بالمسجد الحرام بمكة ، قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ﴿١٤٤﴾ (البقرة)، فقد شغل الرسول ﷺ أمر القبلة بعد الهجرة ، وأخذ يقلب وجهه في السماء في انتظار الوحي لكي يثبته ، وقد استجاب الله تعالى

(١) انظر في ذلك كله د. عبد الحميد ابراهيم ( القرآن الكريم ومذهب الوسطية) ص ١٣ - ٢٠ ، دار طيبة للنشر والتوزيع بالقاهرة .

دعاء نبيه ، وقد حان الوقت ليتوجه نحو القبلة التي يرضاها ، نحو البيت الحرام ، الذي أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وهما يبشران بالنبى الذي سيبعث من العرب يعلمهم الكتاب والحكمة .

إن تحويل القبلة يؤكد هوية الأمة المسلمة ، وتميزها عن غيرها من الأمم ، ومن هذا المنطلق جاءت آية الوسطية التي تلت هذه الآية الكريمة والمبتدأة بحرف العطف وكاف التشبيه ، لتؤكد أن الوسطية أيضاً من خصوصية أمة الإسلام ، ومما تميزت به عن غيرها من الأمم .

وفي ذلك إضافة جديدة ، فإن ذرية إسماعيل عليه السلام بدأوا يحيون دين الحنيفية ، وأن تجمعهم حول البيت الحرام ، يعنى إضافة جديدة إلى طريق الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام ، وهي إضافة واضحة في وجهتها وقبلتها ، وهي كذلك واضحة في رؤيتها ونظرتها الوسطية .

إن هذه الخصوصية - وكما قلنا - لا تعنى التعصب وكرهية الأديان الأخرى ، فهي إضافة للأديان السابقة ، وتكملة للطريق ، وهذا ما أكدته آية الوسطية ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ فالواو للعطف ، والعطف يقتضى المشاركة كما يقول أهل اللغة ، وتستمر الآيات القرآنية التي تلي هذه الآية: ﴿وَلَكِن أُنْتِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعِ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعِ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَكِن أَتَّبَعْت أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْتُمِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبَقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ

لَلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ  
فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ  
لِتَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي  
وَلَا تَمَنَّعْتِي عَلَيْكُمْ وَلِعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ (البقرة) .

وهكذا تستمر الآيات في التأكيد على القبلة الجديدة خلال صيغ مختلفة،  
تدعو الرسول إلى أن يولي وجهه شطر المسجد الحرام ، وتدعو المسلمين إلى  
أن يولوا وجوههم شطر المسجد الحرام ، والتأكيد هنا على التولي لجهة القبلة  
ليس لجهة المكان فحسب، بل لأنه هو الصراط المستقيم وهو الحق من الله  
سبحانه وتعالى ، وهو العلم ، وهو الحقيقة التي يعرفها أهل الكتاب كما  
يعرفون أبناءهم ، وهو تمام النعمة والفضل من الله جل وعلا كما تشهد بذلك  
الآيات الكريبات وبذلك أصبح للمسلمين قبلة خاصة تغاير القبلة العامة  
التي كانوا واليهود والنصارى عليها ، كما وأصبح لأمة الإسلام صفات  
خاصة وسما تميزت بها عن غيرها من الأمم .

يؤكد هذا الذي ذكرناه ، قوله تعالى: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي  
أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ﴿٦﴾ (سبأ)  
فقد بين الله تعالى أن الذين أوتوا العلم وهم المؤمنون من أهل الكتاب يرون  
أن القرآن حق ويهدي ويرشد إلى صراط العزيز الحميد ، أي إلى طريق الإسلام  
الذي هو دين الله ، والعزيز: أي أنه لا يغالب ، والحميد: أي أنه لا يليق به  
صفة العجز ، وبهذا قال القرطبي<sup>(١)</sup> . وهو نظير قول المؤمنين: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ  
الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ﴿٦﴾ (الفاتحة) أي الصراط الذي لا اعوجاج فيه ولا غلو ولا إفراط

(١) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ١٤ ص ١٦٨ ، مرجع سابق . وانظر الطوسي  
(تفسير البيان) مجلد ٨ ص ٣٤٢ .

ولا تفريط في هديه وتشريعہ وتنظيمه وقيمه ومبادئه ، فلن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه ، وهو امتداد للحنيفية السمحة ، ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٢﴾ (البقرة) ، وهذا هو الحق ، وهذا هو التوحيد الخالص ، وهذا هو الدين القيم .

أحب للناس ما تحبه لنفسك ، ولا ضرر ولا ضرار ، ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ ﴿١٩٩﴾ (الأعراف) ، وهذا ما ميز الإسلام وأهله عن سائر الديانات وأهلها .

## ٢ . ٢ الخيرية

وصف الله تعالى أمة الإسلام بأنها خير أمة ، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿١١٠﴾ (آل عمران) ، قال القرطبي<sup>(١)</sup> : أي الصالحين منهم وأهل الفضل ، وهم الشهداء على الناس يوم القيامة ، وقال مجاهد<sup>(٢)</sup> : في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي على الشرائط المذكورة في الآية .  
وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ﴿١٤٣﴾ (البقرة) أي عدولا ، لأن الخيار من الناس عدولهم .

فالخيرية معنى للوسطية التي هي من خصائص أمة الإسلام ، وإنما خصت بها أمة الإسلام لالتزامها بمنهج الله الذي شرعه لعباده بالأمر

(١) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٤ ص ١٠٩ ، مرجع سابق .

(٢) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٤ ص ١٠٩ ، مرجع سابق .

بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله تعالى . فهذه الصفات فضلت أمة الإسلام على غيرها من الأمم ، وكانت متميزة عنها<sup>(١)</sup> .

ومن الأحاديث الدالة على خيرية أمة الإسلام مايلي :

١ - قال ﷺ « إنكم تتمون سبعين أمة، أنتم خيرها ، وأكرمها على الله »<sup>(٢)</sup> .

٢ - قال ﷺ : « أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء » ، فقلنا: يارسول الله ماهو؟ فقال: « نصرت بالرعب ، وأعطيت مفاتيح الأرض ، وسميت أحمد ، وجعل التراب لي طهورا ، وجعلت أمتي خير الأمم »<sup>(٣)</sup> .

٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « فضلت على الأنبياء بست لم يعطهن أحد كان قبلي... وفيه « وجعلت أمتي خير الأمم »<sup>(٤)</sup>

٤ - وقال ﷺ : « أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون بم ذاك »<sup>(٥)</sup> . ثم بين أنه ﷺ يشفع للخلق يوم القيامة حتى لا يستشفع هذه الشفاعة العظمى غيره من الأنبياء والرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام .

٥ - وقال ﷺ : « انما أجلكم في أجل من خلا من الأمم ، كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس ، ومثلكم ومثل اليهود والنصارى ، كمثل رجل استعمل عمالا ، فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟

---

(١) ابن تيمية (الوسطية) ص ٧٥ ، والقرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٤ ص ١٠٩ ، مرجعان سابقان .

(٢) الترمذي (الجامع الصحيح) ج ٥ ص ٢١١ حديث رقم ٣٠٠١ وهو حديث حسن .

(٣) أحمد (المسند) ج ١ ص ٩٨ حديث رقم ١٥٨ وهو حسن عند البخاري كما جاء في (مجمع الزوائد) للهيثمي ج ١ ص ٢٦٥ .

(٤) الحافظ الهيثمي (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) ج ٨ ص ٢٦٩ ، مرجع سابق .

(٥) مسلم (صحيح مسلم) ج ١ ص ٨٤ ، حديث رقم ٣٢٧ ، مرجع سابق .

فعملت اليهود ، فقال من يعمل لي من نصف النهار إلى العصر ؟ فعملت  
النصارى ، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين ،  
قالوا: نحن أكثر عملا وأقل عطاء ، قال هل ظلمتكم من حقكم ،  
فقالوا: لا ، قال: فذاك فضلي أوتيه من شئت « (١) .

فدل هذا وذاك على ثبوت خيرية أمة الإسلام (الوسط) وكتابتها  
ورسولها ﷺ ، ثم إن الله تعالى أيد أمة محمد ﷺ تأييدا أطاق به حمل ما ألقاه  
إليهم . فلم يكونوا كأهل التوراة الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ولا كأهل  
الإنجيل الذين قال لهم المسيح: (إن لي كلاما كثيرا أريد أن أقوله لكم ، ولكن  
لا تستطيعون حمله) (٢) .

وهكذا تميزت أمة الإسلام بجملته من الخصائص جعلتها خير أمة  
أخرجت للناس ، فقد كانت هذه الأمة أكثر الأمم قياما بالأمر بالمعروف  
والنهي عن المنكر .

### مظاهر الخيرية:

وأولى: مظاهر خيرية أمة الإسلام إيمانها بالله تعالى .

وثانيها: أنها أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

وثالثها: قيامها بما أوجبه الله عليها من التزام الطاعات ، واجتناب المنهيات  
باخراج الناس من ظلمات الجهل والوثنية إلى نور التوحيد والإيمان ،  
وتحريرهم من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد .

---

(١) البخاري (صحيح البخاري) ج ٩ ص ٦٦ حديث رقم ٥٠٢١ ، مرجع سابق .

(٢) ابن تيمية (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) ج ٥ ص ٣٠٠ مرجع سابق .

فقد روي أن (ربيعي بن عامر) (\*) رضي الله عنه قال لرستم (\*\*\*) قائد الفرس لما سأله ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى موعود الله، قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي<sup>(١)</sup> فهذا بيان واضح وصريح في مهمة أمة الإسلام وهو الأمر الذي جعلها خير أمة أخرجت للناس.

ورابعها: أن أمة الإسلام لا تجتمع على ضلالة كما أخبر بذلك الرسول ﷺ في ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أنه ﷺ قال: (أن الله قد أجاز أمتي أن تجتمع على ضلالة)<sup>(٢)</sup> على عكس ما كانت عليه الأمم السابقة، فإن كثيرا من الأمم كاليهود مثلا والنصارى كذلك، فقد اندثر الحق من بينهم ولم يجتمعوا عليه ويتفقوا بل حرفوا فيه وكذبوا، فصارت فرقهم على ضلال، وجمعهم على خلاف الحق.

أما بالنسبة للأمة الوسط (الإسلامية) فقد قال فيها ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»<sup>(٣)</sup>.

(\*) هو ربيعة بن عامر بن خالد صحابي وكان أميرا في جيش أبي عبيدة بن الجراح إلى العراق، ابن حجر (الإصابة في تمييز الصحابة) ج ٤ ص ٢٩٧.

(\*\*) هو رستم بن الفرخزاد الأرمني قائد الفرس في القادسية، انظر ابن كثير (البداية والنهاية) ج ٧ ص ٣٨.

(١) ابن جرير الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ج ٣ ص ٥٢٠، وابن كثير (البداية والنهاية) ج ٧ ص ٤٠، مرجع سابق.

(٢) محمد ناصر الدين الألباني (سلسلة الأحاديث الصحيحة) ج ٣ ص ٣١٩ حديث رقم ١٣٣١، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٨ هـ.

(٣) البخاري (صحيح البخاري) ج ٧ ص ١٨٩ حديث رقم ٧٣١١، مرجع سابق.

وفي رواية أخرى: « لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة »<sup>(١)</sup> .

ومن مظاهر الوسطية كذلك بالنسبة للخيرية أن ما أنزل على أمة الإسلام الموسومة بالوسط (خير كتاب من حيث العموم والشمول لجميع مناشط الحياة، ومعالجة كل القضايا، واستمرارية صلاحيته لكل العصور، ولكل الأماكن، بل ولثقيلين معا. وهو على خلاف الكتب السماوية السابقة، فقد كانت لأقوام بأعينهم، وفي أماكن بذواتها)<sup>(٢)</sup> .

قال ﷺ « أعطيت خمسا لم يُعْطَ أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيا رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلي، وأحلت لي المغنم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة »<sup>(٣)</sup> .

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ أَخَذَ الْأَلْوَا حَ ﴾ قال<sup>(٤)</sup>: « رب إني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر اجعلهم أمتي . قال: تلك أمة أحمد . قال: رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون أي الآخرون في الخلق سابقون في دخول الجنة رب اجعلهم أمتي ، قال: تلك أمة أحمد . قال: رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرءونها وكان من قبلهم يقرءون كتابهم نظرا حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئا ولم يعرفوه وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئا لم يعطه أحدا من الأمم ،

(١) القزويني (سنن ابن ماجه) ج ١ ص ٦ حديث رقم ١٠ ، مرجع سابق.  
(٢) شوكت عليان (الثقافة الإسلامية وتحديات العصر) ص ٢٥٦ نشر دار الشواف  
- الرياض سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .  
(٣) البخاري (صحيح البخاري بهامش فتح الباري) ج ١ ص ٤٣٦ ، مرجع سابق.  
(٤) أي موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

قال: رب اجعلهم أمتي ، قال: تلك أمة أحمد . قال رب إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون الضلالة حتى يقاتلوا الأعداء الكذاب ، فاجعلهم أمتي . قال: تلك أمة أحمد ، قال: رب إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم يؤجرون عليها وكان من قبلهم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله نارا فأكلتها وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطيور وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم ، قال: رب اجعلهم أمتي ، قال: تلك أمة أحمد . قال: رب إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ، رب اجعلهم أمتي ، قال: تلك أمة أحمد . قال: رب إني أجد في الألواح أمة هم المشفوعون والشفوع لهم فاجعلهم أمتي ، قال: تلك أمة أحمد ، قال قتادة فذكر لنا أن نبي الله موسى عليه السلام نبذ الألواح وقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد (١) .

وعن الربيع بن خثيم - رحمه الله - قال: « لم تكن أمة أكثر استجابة في الإسلام من هذه الأمة فمن ثم قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (١١٠) (آل عمران) » (٢) .

يقول ابن تيمية: وإنما جعل الله أمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت للناس يأمرهم بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله ، يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله ، وهو شهيد عليهم ، وهم شهداء على الناس في الدنيا والآخرة بما أسبغ عليهم من النعم الباطنة والظاهرة ، وعصمهم أن يجتمعوا على ضلالة .. وأكمل لهم دينهم ، وأتم عليهم نعمه ، ورضي لهم الإسلام ديناً ، وأظهره على الدين كله ، إظهاراً بالنصرة والتمكين ، وإظهاراً

(١) ابن جرير (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ج ٩ ص ٤٥ ، وابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ج ٢ ص ٢٥٩ ، مرجع سابق .

(٢) ابن جرير (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ج ٤ ص ٣٠ ، مرجع سابق .

بالحجة والتبيين، وجعل فيهم علماء هم ورثة الأنبياء، يقومون مقامهم في تبليغ ما أنزل من الكتاب، وطائفة منصوره لا يزالون ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم إلى حين الحساب<sup>(١)</sup>.

ويضيف ابن تيمية رحمه الله: وهو بصدد بيان الخيرية، فيقول: «وحفظ لهم الذكر الذي أنزله من الكتاب المكنون، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿٩﴾ (الحجر) فلا يقع في كتابهم من التحريف والتبديل، كما وقع من أصحاب التوراة والانجيل.

وخصهم بالرواية والإسناد الذي يميز به بين الصدق والكذب، الجهادة والنقاد، وجعل هذا الميراث يحمله من كل خلف عدوله أهل العلم والدين، ينفون عنه تحريف الضالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، لتدوم بهم النعمة على الأمة، ويظهر بهم النور من الظلمة<sup>(٢)</sup>. ويحمي بهم دين الله الذي بعث به رسوله، وبين الله بهم للناس سبيله، فأفضل الخلق أتبعهم لهذا الدين الكريم الموصوف في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٢٨﴾ (التوبة).

وفي قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ﴿١٤٣﴾ (البقرة)، يقول ابن تيمية رحمه الله المسلمون شهداء على الناس، يشهدون عليهم بما علموه من الحق، إذ كانوا وسطا عدلا لا يشهدون بباطل، فإن الشاهد لا يكون إلا عدلا، بخلاف من جار في شهادته فزاد على الحق أو نقص منه، كشهادة اليهود والنصارى في المسيح<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن تيمية (الوسطية) ص ٧٥، مرجع سابق.

(٢) ابن تيمية (الوسطية) ص ٧٥ مرجع سابق.

(٣) ابن تيمية (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) ص ٣٠١ مرجع سابق.

وفي قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ﴿١٤٣﴾ (البقرة)، يقول ابن تيمية رحمه الله المسلمون شهداء على الناس . يشهدون عليهم بما علموه من الحق ، إذ كانوا وسطا عدلا لا يشهدون بباطل ، فإن الشاهد لا يكون إلا عدلا ، بخلاف من جار في شهادته فزاد على الحق أو نقص منه ، كشهادة اليهود والنصارى في المسيح عليه السلام) <sup>(١)</sup> .

## ٢ . ٣ . الفضل

### التعريف بالفضل

#### الفضل لغة

الفضل: الزيادة في الخير ، وقال الجوهري الفضل والفضيلة: خلاف النقص والنقيصة، والإفضال: الإحسان ، والمتفضل الذي يدعي الفضل على أقرانه، وقال الراغب الأصفهاني: الفضل الزيادة عن الاقتصار ، وذلك على ضربين: محمود كفضل الحلم والعلم ، ومذموم كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه ، والمفضل في المحمود أكثر استعمالاً والفضول في المذموم، (أكثر) والفضيلة: الدرجة الرفيعة في الفضل ، والفواضل الأيادي الجسيمة، والفضل والفضالة: البقية ، والتفاضل بين القوم: أن يكون بعضهم أفضل من بعض ، ورجل فاضل: ذو فضل ، ورجل مفضول: قد فضله غيره ، وقولهم: فضل فلان على غير إذا غلب بالفضل عليه <sup>(٢)</sup> ، وفي التنزيل العزيز:

---

(١) ابن تيمية (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) ص ٣٠١ مرجع سابق .  
(٢) أحمد بن فارس (مقاييس اللغة) ج ٤ ص ٥٠٨ تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٩ م . ، والراغب الأصفهاني (المفردات في غريب القرآن) ص ٣٤٨ . وابن منظور (لسان العرب) ج ١١ ص ٢٥٤ ، مراجع سابقة .

﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿٢٤﴾ (المؤمنون)، معناه: يريد أن يكون له الفضل عليكم في القدر والمنزلة ، وقال القرطبي المعنى: يسودكم ويشرف عليكم بأن يكون متبوعاً وأنتم له تبع ، ويقال: فضلته على غيره تفضيلاً: إذا حكمت له بذلك ، أو صيرته كذلك<sup>(١)</sup>.

## الفضل اصطلاحاً

- قال الراغب: الفضل: كل عطية لا تلزم من يعطي<sup>(٢)</sup> .
- وقال الجرجاني: الفضل: هو ابتداء إحسان بلا علة<sup>(٣)</sup> .

## أنواع الفضل

قال الراغب: الفضل إذا استعمل لزيادة شيء على آخر فأنواعه ثلاثة:  
الأول: فضل من حيث الجنس كفضل الحيوان على النبات .  
الثاني: فضل من حيث النوع كفضل الإنسان على غيره من الحيوان .  
الثالث: فضل من حيث الذات كفضل إنسان على آخر .  
ولا سبيل للناقص في النوعين الأولين أن يزيل نقصه وأن يتقيد الفضل،  
كالفرس والحمار لا يمكنهما أن يستفيدا الفضل الذي للإنسان، أما النوع  
الثالث فقد يكون:

- عرضياً فيوجد السبيل إلى اكتسابه وذلك كفضل المال أو الرزق وما  
أشبههما .

---

(١) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ١٢ ص ١١٨ ، مرجع سابق .  
وابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ج ٣ ص ٢٥٤ ، مرجع سابق .  
(٢) الراغب الأصفهاني (المفردات في غريب القرآن) ص ٣٨٢ ، مرجع سابق .  
(٣) الجرجاني (التعريفات) ص ١٧٤ ، مرجع سابق .

- وقد يكون ذاتياً كفضل الرجل على المرأة ، وذلك بما خص الله به الرجل من الفضيلة الذاتية وبما أعطاه من المكنة والمال والجاه والقوة، ومن هذا أيضاً فضل بعض النبيين على بعض بما فضلهم الله به<sup>(١)</sup> .

وهذه المجاهدة هي التي أطلق عليها الشيخ دراز مصطلح « جهد المدافعة » ويراد بها تلك العملية التي نضع فيها في مواجهة الميول الخبيثة التي تحدثنا على الشر قوة مقاومة قادرة على دفع تأثيرها<sup>(٢)</sup> .

أما ابن مسكويه فإنه يعرف الإنسان الفاضل بأنه: الإنسان الخير صاحب الإحسان الذاتي الذي يبقى ولا ينقطع ويتزايد على الأيام ولا ينتقص، ومن كانت هذه سيرته، فإنه يسر نفسه، ويسر به غيره، ويختار كل إنسان مواصلته ومصادقته فهو صديق نفسه، والناس أصدقاؤه، وليس يضاده إلا الشرير، ومن الناس من يصطنع المعروف لأجل الخير نفسه، ومنهم من يصطنعه لأجل الذكر الجميل، ومنهم من يصطنعه رياء فقط، وأعلى هؤلاء مرتبة من صنع الخير لذاته، وصاحب هذه الرتبة لا يعرف الذكر الجميل والثناء الباقي، ومن سار بهذه السيرة واختارها لنفسه فقد أحسن إليها وأنزلها في الشرف الأعلى وأهلها لقبول الفيض الإلهي، وإذا كان بهذه الحال فهو لا محالة يفعل سائر الخيرات وينفع غيره ببذل الأموال والسماحة بجميع ما يتشاح الناس عليه<sup>(٣)</sup> .

---

(١) الراغب الأصفهاني ( المفردات في غريب القرآن ) ص ٣٨٢ .

(٢) محمد عبد الله دراز ( دستور الأخلاق في القرآن الكريم ) ص ٥٩٤ ، دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن تعريب وتحقيق وتعليق عبد الصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ١٩٨٢ م .

(٣) ابن مسكويه ( تهذيب الأخلاق ) دار الكتب العربية ، بيروت ١٤٠١ هـ ، نقلاً عن موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ص ٣١٠٩ - إعداد مجموعة من المختصين ، طبعة دار الوسيلة - جدة ١٤١٨ هـ .

الثالثة تتمثل هذه المرحلة الثالثة من الجهد المبدع في البحث عن الأفضل، ولعل أوضح الأمثلة التي تحث على ذلك ما حدث قبل غزوة بدر عندما أخبر الرسول ﷺ أن الله وعده إحدى الطائفتين: العير أو النفير، وقد مال الاتجاه العام أول الأمر إلى الحل الأقل خطراً، والأكثر فائدة، ولكن الله عز وجل يعلم أكثر الحلول تأثيراً وأعظمها شرفاً، وأقدرها على حسم النزاع بين الشر والباطل، وقد كان، وهكذا، فقد دعا الإسلام أتباعه إلى أن يبتغوا في سلم الأعمال أسماها وأقواها تأثيراً، ثم خلص إلى القول إن العناصر التي يتكون منها الجهد المبدع هي: الاختيار الإرادي، والاختيار الصالح، والاختيار الأفضل، فالعنصر الأول هو روح الأخلاق بعامته، والثاني يقدم إلى كل نوع من الأخلاق الخاصة نوعيتها المختلفة، وأما الثالث فهو الذي يتم عمل الاثنين ويكمله<sup>(١)</sup>.

## الفضل في القرآن الكريم

ذكر أهل التفسير أن الفضل في القرآن الكريم على ثمانية أوجه:

الأول: الإنعام بالإسلام كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿٧٣﴾ (آل عمران).

الثاني: الإنعام بالنبوة، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ ﴿١١٣﴾ (النساء).

الثالث: الرزق في الدنيا، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ ﴿١٠﴾ (الجمعة).

(١) محمد عبد الله دراز (دستور الأخلاق في القرآن) ٦١٣، مرجع سابق.

الرابع: الرزق في الجنة ، ومنه قول الله عز وجل: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ ﴿١٧١﴾﴾ (آل عمران).

الخامس: الجنة ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ (الأحزاب).

السادس: المكنة والنعمة ، ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴿٣٨﴾﴾ (يوسف)

السابع: الخلف - مما ينفق في سبيل الله - ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ (البقرة).

الثامن: التجاوز - بالعفو عن السيئات - ومنه قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴿٢٤٣﴾﴾ (البقرة).

وقد زاد الفيروز آبادي إلى ذلك معاني آخر منها:

التاسع: المعجزة والكرامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ﴿١٠﴾﴾ (سبأ).

العاشر: تأخير العذاب ، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ (النور).

الحادي عشر: الظفر والغنيمة ، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ ﴿١٧٤﴾﴾ (آل عمران).

الثاني عشر: قبول التوبة والإنابة ، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ (النور).

الثالث عشر: زيادة الثواب والكرامة ، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿٢٩﴾ (الحديد).

الرابع عشر: المعروف والإحسان ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ﴾ ﴿٢٢﴾ (النور).

الخامس عشر: الشفاعة في الآخرة ، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ﴿٣٠﴾ (فاطر).

السادس عشر: الخير والنعمة ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ ﴿١٠٧﴾ (يونس).

السابع عشر: التمييز في الخلق أو الرزق، وذلك كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ ﴿٢٧﴾ (هود).

## الفضل في السنة

١ - عن عدي بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي ﷺ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «يا عدي، هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أنبت عنها، قال: «فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحد إلا الله»، قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دُعَار طيئ الذين قد سعروا البلاد؟ «ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى»، قلت: كسرى ابن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه، ويليقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولن: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟

فيقول: بلى. فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول: بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم، قال عدي سمعت النبي ﷺ يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة»، قال عدي: فرأيت الطعينة تترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: «يخرج ملء كفه»<sup>(١)</sup>.

٢- عن أبي أمامه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم، إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى»<sup>(٢)</sup>.

٣- عن سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنهما، أنه أخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أوتي أهل التوراة التوراة، وأوتي أهل الإنجيل الإنجيل، فعملوا إلى صلاة العصر، ثم عجزوا، فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس، فأعطينا قيراطين قيراطين، فقال أهل الكتابين: أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين، وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً، ونحن كنا أكثر عملاً، قال: قال الله عز وجل: هل ظلمتكم من أجري من شيء؟ قالوا: لا، قال: فهو فضلي أوتيته من أشياء»<sup>(٣)</sup>.

---

(١) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ٦ ص ٦١٠ حديث رقم ٣٥٩٥.  
(٢) ابن الأثير (جامع الأصول في أحاديث الرسول) ج ٤ ص ٢٨٩ تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ويوسف الشيخ، دار الفكر، بيروت ١٤٠٣هـ.  
(٣) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ٢ ص ٣٨ حديث رقم ٥٥٧.

٤ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لن يدخل أحدا عمله الجنة» قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «لا، ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسدوا وقاربوا، ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسناً، فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعذب»<sup>(١)</sup>.

٥ - عن أبي الزبير رضي الله عنه قال: كان ابن الزبير يقول في دبر كل صلاة، حين يسلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون» وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهليل بهن دبر كل صلاة<sup>(٢)</sup>.

٦ - عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليصين أقواماً سفح من النار بذنوب أصابوها عقوبة، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته، يقال لهم الجهنميون»<sup>(٣)</sup>.

٧ - عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلمين يموت بينهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا غفر الله لهما بفضل رحمته إياهم»<sup>(٤)</sup>.

٨ - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله، أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله»، قالوا: ثم من؟ قال: «المؤمن في شعب من الشعب يتقي الله، ويدع الناس من شره»<sup>(٥)</sup>.

- 
- (١) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١٠ ص ١٢٧ حديث رقم ٥٦٧٣.
  - (٢) مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ٥ ص ٩٦ حديث رقم ٥٩٤.
  - (٣) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١٣ ص ٤٣٤ حديث رقم ٧٤٥٠.
  - (٤) ابن الأثير (جامع الوصول في أحاديث الرسول) ج ٩ ص ٥٩٣.
  - (٥) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ٢ ص ٦ حديث رقم ٢٧٨٦.

قال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ﴾ ﴿٢١٩﴾  
(البقرة)، «الفضل: الفضل» (١) .

قال الإمام البخاري: «أهل العلم والفضل أحق بالإمامة - أي إمامة  
الناس في الصلاة -» (٢) .

عن سعيد بن جبير قال: «الفضل الإحسان» (٣) .

وعن الضحاك وقتادة والسدي وأبي وائل: الفضل المعروف (٤) .

حدث سفيان عن أبي هارون قال: رأيت هارون بن عبد الله في مجلس  
القرظي ، فكان عون يحدثنا ولحيته ترش من البكاء ويقول: صحبت الأغنياء  
فكنت من أكثرهم همًا ، حين رأيتهم أحسن ثيابًا ، وأطيب ريحًا ، وأحسن  
مركبًا ، وجالست الفقراء فاسترحت بهم ، وقال عون: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ  
بَيْنَكُمْ﴾ ﴿٢٣٧﴾ (البقرة) إذا أتاه السائل وليس عنده شيء فليدع له (٥) .

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ  
بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٦٨﴾  
(البقرة)، «المغفرة هي الستر على عباده في الدنيا والآخرة ، والفضل: هو  
الرزق في الدنيا والتوسعة والنعيم في الآخرة» (٦)

عن مجاهد رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ ﴿٣﴾  
(هود)، الفضل هو ما يحتسبه الإنسان من كلام يقوله بلسانه أو عمل يعمله

(١) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ٩ ص ٤٠٧ .

(٢) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ٢ ص ١٩٢ .

(٣) ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ج ١ ص ٢٩٧ .

(٤) ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ج ١ ص ٢٩٧ ، مرجع سابق .

(٥) ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ج ١ ص ٢٩٧ ، مرجع سابق .

(٦) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٣ ص ٣٢٩ ، مرجع سابق .

بيده أو رجليه ، أو ما تطوع به من ماله فهو فضل الله ، يؤتیه ذلك إذا آمن ، ولا يتقبله منه إن كان كافراً»<sup>(١)</sup> .

واعتبار الفضل ثمرة من ثمرات الوسطية التي هي إحدى الخصائص العامة للإسلام بمعنى أن أمة الإسلام إنما تميزت بمعالم أساسية في التصور والاعتقاد ، وفي التعبد والتنسك . وفي السلوك والأخلاق . وفي المعاملات ، وفي التشريع وسائر أنشطة الحياة ومجالاتها . فكان من نتائج هذا المنهج القويم أن كان لأمة الإسلام فضل في الدنيا ، وفضل في الآخرة .

## ٢ . ٤ صور من الفضل

### ٢ . ٤ . ١ صور من الفضل في الدنيا

#### حل الغنائم

كانت الأمم فيمن قبلنا على ضربين فمنهم من لم يؤذن له في الجهاد فلم تكن لهم غنائم ، ومنهم من أذن له فيه فكانوا يغزون ويجاهدون ويأخذون أموال أعدائهم وأسلابهم لكن لا يتصرفون فيها بل يجمعونها وعلامة قبول غزوهم ذلك أن تنزل النار من السماء فتأكلها ، وعلامة عدم قبوله أن لا تنزل ، ومن أسباب عدم القبول أن يقع فيهم الغلول ، وقد من الله تعالى على هذه الأمة ورحمها وجبر عجزها وضعفها لشرف نبيها عنده ، فأحل لهم الغنائم وستر عليهم الغلول فطوى عنهم فضيحة أمر عدم القبول ، فله الحمد على نعمه تترى وآلائه لا تحصى<sup>(٢)</sup> .

(١) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٩ ص ٤ ، مرجع سابق .

(٢) (موسوعة نضرة النعيم) ج ١ ص ٤٨٢ ، مرجع سابق .

قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ (الأنفال).

عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ( أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيا رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة )<sup>(١)</sup>.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ( غزاني من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يني بها، ولما بين، ولا آخر قد بنى بيانا، ولما يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترى غنما أو خلفات، وهو منتظر ولادها، قال: فغزا، فأدنى للقرية حين صلاة العصر أو قريبا من ذلك، فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علي شيئا، فحبست عليه حتى فتح الله عليه، قال: فجمعوا ما غنموا، فأقبلت النار لتأكله، فأبت أن تطعمه، فقال: فيكم غلول . فليبايعني من كل قبيلة رجل، فبايعوه فلصقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول . فلتبايعني قبيلتك . فبايعته، قال: فلصقت بيد رجلين أو ثلاثة، فقال: فيكم الغلول، أنتم غللتهم، فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب، قال: فوضعوه في المال وهو بالصعيد. فأقبلت النار فأكلته . فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا، ذلك بأن الله تبارك وتعالى رأى ضعفنا وعجزنا، فطيبها لنا )<sup>(٢)</sup> .

(١) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١ ص ٤٣٥ حديث رقم ٣٣٥.

(٢) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ٦ ص ٢٢٠ حديث رقم ٣١٢٤.

## اعتبار الأرض مسجدا وطهورا

اختص الله تبارك وتعالى هذه الأمة من بين سائر الأمم فجعل لها الأرض مسجدا وطهورا فأيا رجل منها أدركته الصلاة فلم يجد ماء ولا مسجدا فعنده طهوره ومسجده يتيمم ويصلي بخلاف الأمم قبلنا فإن الصلاة أبيضت لهم في أماكن مخصوصة كالبيع والصوامع<sup>(١)</sup>.

عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ( أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيا رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة )<sup>(٢)</sup>.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - عام غزوة تبوك - قام من الليل يصلي فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يجرسونه حتى إذا صلى، انصرف إليهم فقال لهم ( لقد أعطيت الليلة خمسا ما أعطيهن أحد قبل ... ) وفيه ( وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت وكان من قبلي يعظمون ذلك إنما كانوا يصلون في كنائسهم وبيعهم )<sup>(٣)</sup>.

---

(١) (موسوعة نضرة النعيم) ص ٤٨٤، مرجع سابق.  
(٢) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١ ص ٤٣٥ حديث رقم ٣٣٥.  
(٣) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١ ص ٤٣٨.

## وضع الآصار والأغلال

من رحمة الله تعالى وكرمه بأمة الإسلام أن وضع عنها الآصار والأغلال التي كانت على الأمم قبلها فأحل لها كثيرا مما حرم على غيرها ، ولم يجعل عليها من عنت وشدة كما قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (٧٨) (الحج) ، وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ (٦) (المائدة) ، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ (١٨٥) (البقرة) ، فشريعته ﷺ أكمل الشرائع وأسهلها وأيسرها<sup>(١)</sup> ، قال صلوات الله وسلامه عليه «إني أرسلت بحنيفية سمحة»<sup>(٢)</sup> وقال لمعاذ وأبي موسى رضي الله عنهما حين بعثهما إلى اليمن: (يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا...)<sup>(٣)</sup> .

عن حذيفة رضي الله عنه قال غاب عنا رسول الله ﷺ فلم يخرج حتى ظننا أنه لن يخرج فلما خرج سجد سجدة حتى ظننا أن نفسه قد قبضت فيها، فلما رفع رأسه قال: «إن ربي تبارك وتعالى استشارني في أمتي ماذا أفعل بهم فقلت ما شئت أي رب هم خلقك وعبادك فاستشارني الثانية فقلت له كذلك فقال لا نخزيك في أمتك يا محمد ، وبشرني أن أول من يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا مع كل ألف سبعون ألفا ليس عليهم حساب ثم أرسل إلي فقال: ادع تجب وسل تعطه فقلت لرسوله: أو معطي ربي سؤالي؟ فقال ما أرسلني

(١) (موسوعة نضرة النعيم) ج ١ ص ٤٨٥ ، مرجع سابق ..

(٢) الحاكم النيسابوري (المستدرک على الصحيحين) ج ١ ص ٢٣٦ . وبرواية أخرى (بعثت بالحنيفية السمحة) أحمد (المسند) ج ٢٦ ص ٦٢٤ حديث رقم ٢٢٢٩١ .

(٣) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ٦ ص ١٦٢ حديث رقم

إليك إلا ليعطيك . ولقد أعطاني ربي عز وجل ولا فخر ... وفيه (وأحل لنا كثيرا مما شدد على من قبلنا ولم يجعل علينا من حرج) (١).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ فاراد أن يبول فقام إلى دمث حائط هناك وقال: (إن بني إسرائيل كان إذا أصاب أحدهم البول قرضه بالمقراض فإذا أراد أحكم أن يبول فليرتد بوله) (٢).

وعن أنس رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت. فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ أن ينزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ ﴿٢٢٢﴾ (البقرة) فقال رسول الله ﷺ (اصنعوا كل شيء إلا النكاح) فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه . فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله إن اليهود تقول كذا وكذا، فلا نجتمعن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليها فخرجا فاستقبلها هدية من لبن النبي ﷺ، فأرسل في آثارهما فسقاها، فعرفا أن لم يجد عليهما) (٣).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان في بني إسرائيل القصاص في القتل ولم يكن فيهم الدية فقال الله تعالى لهذه الأمة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ ﴿١٧٨﴾ (البقرة)، فالعفو أن يقبل الدية في العمد ذلك تخفيف من ربكم ورحمة مما كتب على من كان قبلكم (٤).

---

(١) الهيثمي (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) ج ١٠ ص ٦٨، مرجع سابق.  
(٢) ابن الاثير (النهاية في غريب الحديث والاثر) ج ٢ ص ١٣٢، مرجع سابق.  
(٣) مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ٣ ص ٢١٦ حديث رقم ٣٠٢.  
(٤) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١٢ ص ٢٠٥ حديث رقم ٦٨٨١.

## تخصيص يوم الجمعة دون سائر الأيام

اختصت الأمة المحمدية بخصائص كثيرة في الدنيا لم تعطها غيرها من الأمم ، ومن ذلك يوم الجمعة ، سيد الأيام خير يوم طلعت فيه الشمس ، فيه خلق آدم عليه السلام ، وفيه أدخل الجنة ، وفي أخرج منها ، وفيه تقوم الساعة وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيراً إلا أعطاه ما سأل وفيه صلاة الجمعة التي أمر الله بالسعي إليها في كتابه العزيز<sup>(١)</sup> فقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٩﴾ (الجمعة).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا الله ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غدا ، والنصارى بعد غد»<sup>(٢)</sup> .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة ، وفيه أهبط منها ، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلي فيسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه إياها ) قال أبو هريرة: فلقيت عبد الله بن سلام فذكرت له هذا الحديث ، فقال: أنا أعلم بتلك الساعة ، فقلت: أخبرني بها ولا تضنن بها علي ، قال: هي بعد العصر إلى أن تغرب الشمس قلت فكيف تكون بعد العصر وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(١) جلال الدين السيوطي (الخصائص الكبرى) ج ٢ ص ٣٥٣ تحقيق محمد خليل هراس - المطبعة الحديثة بالقاهرة ، بدون تاريخ .  
(٢) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ٢ ص ٣٥٤ حديث رقم ٨٧٦ .

لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلي ؛ وتلك الساعة لا يصلى فيها؟ فقال عبد الله بن سلام: أليس قد قال رسول الله ﷺ: «من جلس مجلسا ينتظر الصلاة فهو في الصلاة؟ قلت: بلى ، قال فهو ذاك» (١) .

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة » (٢) .

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ ( أتاني جبريل عليه السلام وفي يده مرآة بيضاء فيها نكتة سوداء . فقلت: ماهذه يا جبريل؟ قال: هذه الجمعة يعرضها عليكم ربك لتكون لك عيدا ولقومك من بعدك تكون أنت الأول وتكون اليهود والنصارى من بعدك . قال: مالنا فيها . قال: لكم فيها خير ، لكم فيها ساعة من دعا ربه فيها بخير هو له قسم إلا أعطاه إياه وليس له بقسم إلا ودخر له ما هو أعظم منه، أو تعود فيها من شر هو مكتوب إلا أعاده من أعظم منه، قلت: ماهذه النكتة السوداء فيه؟ قال: هذه الساعة تقوم يوم الجمعة وهو سيد الأيام، عندنا ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد، قال: قلت: لم تدعونه يوم المزيد؟ قال: إن ربك عز وجل اتخذ في الجنة واديا أفتح من المسك أبيض ، فإذا كان يوم الجمعة نزل تبارك وتعالى من عليين على كرسية حتى حف الكرسي بمنابر من نور وجاء النبيون حتى يجلسوا عليها ثم حف المنابر بكراسي من ذهب ثم جاء الصديقون والشهداء حتى يجلسوا عليها ثم يجيء أهل الجنة حتى يجلسوا على الكثيب فيتجلى لهم الله تبارك وتعالى حتى ينظروا إلى وجهه وهو يقول: أنا الذي صدقتكم وعدي

(١) الترمذي (الجامع الصحيح) ج ١ ص ٣٠٧ حديث رقم ٤٨٩ ، مرجع سابق.

(٢) الترمذي (الجامع الصحيح) ج ١ ص ٣٠٥ حديث رقم ٤٨٦ .

وأتممت عليكم نعمتي هذا محل كرامتي فسلوني ، فسألوه الرضا، فيقول الله عز وجل: رضائي أحلكم داري وأن لكم كرامتي فسلوني ، فيسألوه حتى تنتهي رغبتهم ، فيفتح لهم عند الله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر إلى مقدار منصرف الناس يوم الجمعة ثم يصعد الله تبارك وتعالى على كرسيه فيصعد معه الشهداء والصديقون، أحسبه قال: ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم درة بيضاء لا قصم فيها ولا فصم، أو ياقوتة حمراء، أو زبرجدة خضراء، منها غرفها وأبوابها مطردة فيها أنهارها، متدلّية فيها ثمارها، فيها أزواجها وخدمها فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا فيه كرامة، وليزادوا فيه نظرا إلى وجهه تبارك وتعالى، ولذلك دعي يوم المزيد<sup>(١)</sup> .

## التجاوز عن الخطأ والنسيان وحديث النفس

أنعم الله تبارك وتعالى على أمة الإسلام بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى ، وفي ذلك تكريم لنبيها محمد ﷺ ، ومن هذه النعم انه تجاوز لها عما صدر منها على سبيل الخطأ والنسيان ، وتجاوز لها عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم<sup>(٢)</sup> .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به نفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به)<sup>(٣)</sup> .

(١) الهيثمي (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) ج ٢ ص ١٦٤ ، مرجع سابق.

(٢) (موسوعة نضرة النعيم) ج ١ ص ٤٨٩ ، مرجع سابق .

(٣) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١١ ص ٥٤٨ حديث رقم ٦٦٦٤ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٨٤﴾ (البقرة) قال فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب . فقالوا: أي رسول الله ! كلفنا من الأعمال ما نطبق. الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ، ولا نطبقها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم ، فأنزل الله في إثرها ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٢٨٥﴾ (البقرة)، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل الله عز وجل ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ﴿٢٨٦﴾ (قال: نعم) ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِضْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا﴾ ﴿قال: نعم﴾ ﴿وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٨٦﴾ (البقرة) (قال: نعم)<sup>(١)</sup>

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى قال: (إن الله كتب الحسنات والسيئات . ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن هم بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة . وإن

(١) مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ٢ ص ٥٠٤ حديث رقم ١٢٥ .

هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها، كتبها الله سيئة واحدة) (١) .

## الحفظ من الهلاك والاستئصال

أمة الإسلام أمة مصونة مرحومة حفظها الله وأجارها، فلا تهلك بالسنين ولا بجوع ولا غرق، ولا يسلط عليها عدوا من غيرها، فيستبيح بيضتها ويستأصلها، ولو اجتمع عليها من بأقطارها وهذا من خصائصها التي انفردت بها على غيرها (٢) .

عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقتها ومغارها وإن أمتي سيبغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يبيضهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها - أو قال من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضها، ويسبي بعضهم بعضا) (٣) .

وعن عامر بن سعد عن أبيه رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية، دخل فركع ركعتين، وصلينا معه، ودعا ربه طويلاً، ثم انصرف إلينا فقال ﷺ: «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» (٤) .

- (١) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١١ ص ٣٢٣ حديث رقم ٦٤٩١ .
- (٢) (موسوعة نضرة النعيم) ج ١ ص ٤٩١، مرجع سابق .
- (٣) مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ١٨ ص ٢٢٩ حديث رقم ٢٨٨٩ .
- (٤) مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ١٨ ص ٢٣٠ حديث رقم ٢٨٩٠ .

وعن عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عتيك قال: « جاءنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه في بني معاوية وهي قرية من قرى الأنصار ، فقال هل تدرون أين صلى رسول الله ﷺ في مسجدكم هذا ؟ فقلت: نعم - وأشرت إلى ناحية منه - فقال لي: هل تدرون ما الثلاث التي دعا بهن فيه ؟ قلت نعم قال: فأخبرني بهن ، فقلت: دعا بأن لا يظهر عليهم عدواً من غيرهم ، ولا يهلكهم بالسنين ، فأعطيهما ، ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعها ، قال: صدقت ، قال ابن عمر: فلن يزال الهرج إلى يوم القيامة »<sup>(١)</sup> .

### عدم الاجتماع على الضلال

من الفضائل التي أكرم الله تعالى بها أمة الإسلام ، أنها لا تجتمع على ضلالة فقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله لا يجمع أمتي أو قال أمة محمد ﷺ على ضلالة ويد الله مع الجماعة ، ومن شذ شذ في النار »<sup>(٢)</sup> .

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك »<sup>(٣)</sup> .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن الله عز وجل نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالاته ، ثم نظر في قلوب العباد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء

(١) مالك (الموطأ) ج ١ ص ٢١٦ .

(٢) الهيثمي (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) ج ٥ ص ٢١٨ ، مرجع سابق .

(٣) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ٦ ص ٦٣٢ حديث رقم ٣٦٤١ .

نبيه ﷺ يقاتلون عن دينه فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيء<sup>(١)</sup> .

## الشهادة في الأرض

فضل الله تبارك وتعالى هذه الأمة ورفع ذكرها وزكاها بأن أضافها إليه إضافة تشریف وتكریم ، فقبل منها قولها وشهادتها ، وذلك لعظم مكانتها ومنزلتها عنده<sup>(٢)</sup> .

عن عبد العزيز بن صهيب قال: سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: (مروا بجنزة فأثنوا عليها خيراً ، فقال النبي ﷺ: « وجبت » ، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً ، فقال: « وجبت » قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت؟ قال: « هذا أثنتم عليه خيراً فوجبت له الجنة ، وهذا أثنتم عليه شراً فوجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض »<sup>(٣)</sup> .

## التأييد لها وحفظ ذكرها

أمة الإسلام مؤيدة مفضلة معتدلة محفوظ لها ذكرها ، فإن الله تبارك وتعالى أيد أمة الإسلام تأييداً أطاق به حمل ما ألقاه إليهم ، فلم يكونوا كأهل التوراة الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، ولا كأهل الإنجيل الذين قال لهم المسيح: « إن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم ولكن لا تستطيعون حمله »<sup>(٤)</sup> .

(١) الهيثمي ( مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ) ج ١ ص ١٧٨ ، مرجع سابق .

(٢) ( موسوعة نصرة النعيم ) ج ١ ص ٤٩٣ ، مرجع سابق .

(٣) ابن حجر ( فتح الباري بشرح صحيح البخاري ) ج ٣ ص ٢٢٨ حديث رقم ١٣٦٧ .

(٤) ابن تيمية ( الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ) ج ٥ ص ٣٠٠ .

ومفضلة بأن أكمل لها الدين وأتم عليها النعمة، ورضي لها الإسلام ديناً، وجعله أكمل الشرائع وأتمها، كما وخص هذه الأمة بالرواية والإسناد الذي يميزه بين الصدق والكذب الجهابذة النقاد، وجعل هذا الميراث يحمله من كل خلف عدوله أهل العلم والدين، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، لتدوم بهم النعمة على الأمر وكل خير في غير المسلمين فهو في المسلمين أكثر، وكل شر في المسلمين فهو في غيرهم أكثر<sup>(١)</sup>.

وقد حفظ سبحانه وتعالى لأمة الإسلام الذكر (القرآن الكريم) فلا يقع فيه تحريف ولا تغيير ولا تبديل كما وقع لغيره من الكتب السماوية .

وأمة الإسلام معتدله بين شدة اليهود، فإن التوراة يغلب عليها الشدة، وبين لين النصارى، فإن الإنجيل يغلب عليه اللين، وشريعة الإسلام معتدلة جامعة بين هذه وتلك، إذ فيها العدل والفضل معاً .

يقول ابن تيمية: « الشرائع ثلاثة:

- شريعة عدل فقط

- شريعة فضل فقط

وشريعة الإسلام تجمع العدل والفضل، فهي كاملة ولكل البشر، ليست لفئة معينة كما هو شأن الرسالات السماوية السابقة، ولهذا قيل: إن المسيح عيسى عليه السلام بعث لتكميل التوراة فإن النوافل تكون بعد الفرائض<sup>(٢)</sup>.

---

(١) ابن تيمية (مجموع الفتاوى) ج ١٨ ص ١٢٢، و(الاستقامة) ص ٣٦٥، تحقيق سعيد نصر، مكتبة الرشد بالرياض، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

(٢) ابن تيمية (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) ج ٥ ص ١٠٨، مرجع سابق .

## صفوفها في الصلاة كصفوف الملائكة

خص الله عز وجل هذه الأمة إكراماً لها على سائر الأمم بأن جعل صفوفها في الصلاة كصفوف الملائكة .

ومما يؤيد هذه الخاصية من السنة المطهرة: ما جاء عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً ، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء ، وذكر خصلة أخرى »<sup>(١)</sup> .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: « مالي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذنان خيل شمس؟ اسكنوا في الصلاة » قال: ثم خرج علينا فرآنا حلقاً، فقال: « مالي أراكم عزين؟ » قال: ثم خرج علينا فقال: « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ » فقلنا: يا رسول الله! وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: « يتمون الصفوف الأول، ويتراصون في الصف »<sup>(٢)</sup> .

## ٢ . ٤ . ٢ صور من الفضل في الآخرة

### الغر المحجلون

الغرة بالضم بياض في جبهة الفرس ، يقال: رجل أغير ، أي شريف وفلان غرة قومه أي سيدهم ، وغرة كل شيء أوله وأكرمه<sup>(٣)</sup> .

- 
- (١) مسلم ( صحيح مسلم بشرح النووي ) ج ٥ ص ٧ حديث رقم ٥٢٢ .
  - (٢) مسلم ( صحيح مسلم بشرح النووي ) ج ٤ ص ٣٩٦ حديث رقم ٤٣٠ .
  - (٣) الرازي ( مختار الصحاح ) ص ٤٧١ ، مرجع سابق .

والحجل بفتح الحاء وكسرهما القيد، وهو الخلخال أيضا، والتحجيل بيان في قوائم الفرس، قل أو أكثر، بعد أن يجاوز الأرساغ ولا يجاوز الركبتين والعرقوبين، لأنها مواضع الأحجال. وهي الخلاخيل والقيود، يقال: فرس محجل، وقد حجلت قوائمه على ما لم يسم فاعله مشددة، وإنها لذات أحجال<sup>(١)</sup> وقد أخبر النبي ﷺ أن أمته تأتي يوم القيامة غرا محجلة.

عن نعيم بن عبد الله المجرم قال: رأيت أبا هريرة يتوضأ، فغسل وجهه فأسبغ الوضوء، ثم غسل يده اليمنى حتى شرع في العضد، ثم يده اليسرى حتى أشرع في العضد، ثم مسح رأسه، ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرع في الساق، ثم غسل رجله اليسرى حتى أشرع في الساق، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ، وقال: قال رسول الله ﷺ «أنتم الغر المحجلون يوم القيامة، من إسباغ الوضوء فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي هريرة روى أن رسول الله ﷺ قال: «إن حوضي أبعد من أيلة من عدن<sup>(٣)</sup>» هو أشد بياضا من الثلج، وأحلى من العسل باللبن، ولآنيته أكثر من عدد النجوم، وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه» قالوا: يا رسول الله أتعرفنا يومئذ؟ قال: «نعم، لكم سيما ليست لأحد من الأمم تردون علي غرا محجلين من أثر الوضوء»<sup>(٤)</sup>.

---

(١) الرازي (مختار الصحاح) ص ١٢٤، مرجع سابق.

(٢) مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ٣ ص ١٣٧ حديث رقم ٢٤٦، مرجع سابق.

(٣) أيله مدينة ساحلية شمال بحر القلزم (البحر الأحمر) وعدن مدينة ساحلية في جنوب البحر الأحمر آخر بلاد اليمن مما يلي بحر الهند.

(٤) مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ٣ ص ١٣٨ حديث رقم ٢٤٧، مرجع سابق.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت أنا قد رأينا إخواننا » قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟ قال: « أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد » فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله ؟ فقال: « رأيت لو أن رجلاً له خيل غر محجلة ، بين ظهري خيل دهم بهم<sup>(١)</sup> ، ألا يعرف خيله » قالوا: بلى يا رسول الله ! قال: « فإنهم يأتون غراً محجلين من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض ، ألا ليزادن رجال عن حوضي كما يزداد البعير الضال أناديهم: ألا هلم ! فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك، فأقول سحقا<sup>(٢)</sup> سحقا<sup>(٣)</sup> . »

## الشهادة على الأمم

الشهادة لغة: الحضور، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ ١٨٥ ﴿البقرة﴾.

واصطلاحاً: عرفها الحنابلة بأنها إخبار شخص بما علمه بلفظ خاص<sup>(٤)</sup>، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أمته ستشهد يوم القيامة على الأمم الأخرى ، لأنها لم تغل غلو النصارى ، ولم تقصر كتقصير اليهود ، بل توسطت بين الديانتين ، ولهذا جعلها الله شاهدة على الأمم يوم القيامة، فما من نبي ولا رسول تنكر أمته قد بلغ إلا وتشهد له الأمة المحمدية بالبلاغ فيقبل قولها وشهادتها لما لها

(١) دهم بهم : أي سود لم يخالطها لون آخر .

(٢) سحقا سحقا : أي بعداً بعداً .

(٣) مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج٣ ص ١٤٠ حديث رقم ٢٤٩ ، مرجع سابق .

(٤) منصور بن يونس البهوتي (كشاف القناع عن متن الإقناع) ج٦ ص ٤٠٤ ، نشر مكتبة النصر الحديثة بالرياض .

من الفضل والمنزلة قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿١٤٣﴾ (البقرة).

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام، في معرض حديثه عن خصائص النبي ﷺ: ومنها أن الله تعالى نزل أمته منزل العدول من الحكام، فإن الله تعالى إذا حكم بين العباد فجحدت الأمم بتبليغ الرسالة أحضر أمة محمد ﷺ فيشهدون على الناس بأن رسلهم أبلغنهم، وهذه الخاصية لم تثبت لأحد من الأنبياء.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرسول عليكم شهيدا فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿١٤٣﴾ (البقرة).<sup>(١)</sup>

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء النبي ومعه الرجال، ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك وأقل فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم فيدعى قومه، فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، فيقال من شهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتدعى أمة محمد فيقال: هل بلغ هذا؟ فيقولون: نعم، فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون أخبرنا نبينا بذلك أن الرسل قد بلغوا، فصدقناه، قال: فذلكم قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿١٤٣﴾ (البقرة).<sup>(٢)</sup>

(١) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ٨ ص ١٧١ حديث رقم ٤٤٨٧.

(٢) ابن حنبل (المسند) ج ٣ ص ٥٨، مرجع سابق.

عن كعب الأخبار رضي الله عنه قال: « أعطيت هذه الأمة ثلاث خصال لم يعطها إلا الأنبياء ، كان النبي صلى الله عليه وسلم يقال له بلغ ولا حرج ، وأنت شهيد على قومك وادع أجبك ، وقال لهذه الأمة: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ﴿٧٨﴾ (الحج)، وقال: ﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ ﴿١٤٣﴾ (البقرة)، وقال: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ﴿٦٠﴾ (غافر).<sup>(١)</sup>

### أول الداخلين إلى الجنة

من استقام في هذه الدنيا على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة، ونجا، ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى، تعثر على الصراط وتردى .

وإن مما أكرم الله تعالى به هذه الأمة ونبيها صلى الله عليه وسلم ، أن جعلهم أول من يجتاز ويعبر الصراط ، وأول من يدخل الجنة دار السلام<sup>(٢)</sup> .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن ناساً قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله ! هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: « هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر »، قالوا: لا يا رسول الله قال: « هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ » قالوا: لا يا رسول الله ! قال: « فإنكم ترونه كذلك ، يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيقول من كان يعبد شيئاً فيتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتهم الله تبارك وتعالى، في صورة غير صورته التي يعرفون ، فيقول: أنا ربكم ، فيقولون:

(١) جلال الدين السيوطي (الخصائص الكبرى) ج ٢ ص ٣٥٧ .

(٢) (موسوعة نضرة النعيم) ج ١ ص ٤٩٨ ، مرجع سابق.

نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم<sup>(١)</sup> فأكون أنا وأمتي أول من يجيز<sup>(٢)</sup>.

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه قال: «كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاء حبر<sup>(٣)</sup> من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد! فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي» فقال اليهودي جئت أسألك، فقال له رسول الله ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني، فنكت<sup>(٤)</sup> رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «سل» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر»<sup>(٥)</sup>، قال: «فمن أول الناس إجازة»<sup>(٦)</sup>؟ قال: «فقراء المهاجرين»، قال اليهودي: فما تحفتهم<sup>(٧)</sup> حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون»<sup>(٨)</sup> قال فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي

- 
- (١) يضرب الصراط بين ظهري جهنم: معناه يمد الصراط عليها.
  - (٢) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١١ ص ٤٤٤ حديث رقم ٦٥٧٣. ومسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ١ ص ١٨٢.
  - (٣) الحبر: العالم والجمع أحبار.
  - (٤) فنكت: أي يخط العود في الأرض، ويؤثر به فيها، وهذا ما يفعله المفكر.
  - (٥) الجسر هنا بمعنى الصراط.
  - (٦) إجازة هنا بمعنى العبور.
  - (٧) التحفة: الهدية.
  - (٨) النون: الحوت.

كان يأكل من أطرافها» قال: فما شراهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسيلا»<sup>(١)</sup>، قال: صدقت، قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان، قال: «ينفعك إن حدثت؟» قال أسمع بأذني، قال: جئت أسألك عن الولد؟ قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا، فعلا مني الرجل مني المرأة، أذكرا بإذن الله، وإذا علا مني المرأة مني الرجل، أنثا بإذن الله» قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي، ثم انصرف فذهب، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألتني هذا عن الذي سألتني عنه، وما لي علم بشيء منه، حتى أتاني الله به»<sup>(٢)</sup>.

### العمل القليل والأجر الكثير

أنعم الله تبارك وتعالى على أمة الإسلام بنعم كثيرة وخصها بخصائص جسيمة، ومن ذلك أنها أقل عملاً ممن سبقها من الأمم، وأكثر أجراً وثواباً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

قال الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام في معرض حديثه عن خصائص النبي ﷺ: ومنها أن أمته أقل عملاً ممن قبلهم وأكثر أجراً كما جاء في الحديث الصحيح<sup>(٣)</sup>.

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً فقال: من يعمل لي إلى نصف

(١) سلسيلا: اسم لعين في الجنة.

(٢) مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ٣ ص ٢٣٠ حديث رقم ٣١٥.

(٣) (موسوعة نضرة النعيم) ج ١ ص ٥٠٠، مرجع سابق.

النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط، ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ فعملت النصرارى من نصف النهار إلى صلاة العصر قيراط قيراط، ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا لكم الأجر مرتين، فغضبت اليهود والنصارى فقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاءً، قال الله: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال فإنه فضلي، أعطيه من شئت<sup>(١)</sup>، ويعلق على هذا الحديث الحافظ ابن كثير رحمه الله فيقول: « والمراد من هذا التشبيه بالعمال تفاوت أجورهم وأن ذلك ليس منوطاً بكثرة العمل وقلته بل بأمور أخرى معتبرة عند الله تعالى وكم من عمل قليل أجدى ما لا يجديه العمل الكثير، هذه ليلة القدر العمل فيها أفضل من عبادة ألف شهر سواها وهؤلاء أصحاب محمد ﷺ أنفقوا في أوقات لو أنفق غيرهم من الذهب مثل أحد ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه من تمر، وهذا رسول الله ﷺ بعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره وقبضه وهو ابن ثلاث وستين على المشهور وقد برز في هذه المدة التي هي ثلاث وعشرون سنة في العلوم النافعة والأعمال الصالحة على سائر الأنبياء قبله حتى على نوح الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ويعمل بطاعة الله ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء أجمعين، فهذه الأمة إنما شرفت وتضاعف ثوابها ببركة سيادة نبيها وشرفه وعظمتها كما قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ

(١) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري)، حديث رقم ٣٤٥٩، ج ٦ ص ٤٩٥.

نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ  
أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ  
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ (الحديد). (١) .

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى  
كمثل رجل استأجر قومًا يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم ،  
فعملوا له نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا وما  
عملنا باطل ، فقال لهم: لا تفعلوا ، أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً ،  
فأبوا وتركوا ، واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقية يومكم هذا ولكم  
الذي شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا:  
لك ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه ، فقال لهم: أكملوا بقية  
عملكم فإن ما بقي من النهار شيء يسير ، فأبوا ، فاستأجر قومًا أن يعملوا  
له بقية يومهم ، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، واستكملوا أجر  
الفرقين كليهما ، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور» (٢) .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله ضمن شرحه لهذا الحديث: «... وفي  
هذا الحديث تفضيل هذه الأمة وتوفير أجرها مع قلة عملها» .

كما ويستدل به على أن بقاء هذه الأمة يزيد على الألف ، لأنه يقتضي أن  
مدة اليهود نظير مدتي النصارى والمسلمين ، وقد اتفق أهل النقل على أن مدة  
اليهود إلى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كانت أكثر من الفي سنة ومدة النصارى من ذلك  
ستمائة ، وقيل أقل ، فتكون مدة المسلمين أكثر من ألف قطعاً ، فتضمن الحديث

(١) ابن كثير (البداية والنهاية) ج ٢ ص ١٣٥ ، و(موسوعة نضرة النعيم) ج ١ ص  
٥٠٠ ، مرجع سابق .

(٢) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ٤ ص ٤٤٧ حديث رقم ٢٢٧١ .

أن أجر النصارى كان أكثر من أجر اليهود ، لأن اليهود عملوا نصف النهار بقيراط ، والنصارى نحور ربع النهار بقيراط ، ولعل ذلك باعتبار ما حصل لمن آمن من النصارى بموسى وعيسى عليهما السلام فحصل لهم تضعيف الأجر مرتين ، بخلاف اليهود فإنهم لما بعث عيسى كفروا به<sup>(١)</sup> .

## أكثر أهل الجنة

ومما اختص الله تعالى به أمة محمد ﷺ من الفضائل أنها أكثر أهل الجنة ، وهذا تكريم عظيم للأمة المحمدية ونبينا ﷺ<sup>(٢)</sup> .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال لنا رسول الله ﷺ : « أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟ » قال : فكبرنا ، ثم قال : « اما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ » قال : فكبرنا ، ثم قال : « إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة وسأخبركم عن ذلك ، ما المسلمون في الكفار إلا كشعرة بيضاء في ثور أسود ، أو كشعرة سوداء في ثور أبيض »<sup>(٣)</sup> .

وعن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم »<sup>(٤)</sup> .

---

(١) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ٤ ص ٤٤٩ .

(٢) (موسوعة نضرة النعيم) ج ١ ص ٥٠١ .

(٣) مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ٣ ص ٩٥ حديث رقم ٢٢١ ، كتاب الإيمان . وابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ١١ ص ٣٧٨ برواية أخرى .

(٤) الحاكم النيسابوري (المستدرک على الصحيحين) ج ١ ص ٨٢ ، مرجع سابق .

## الآخرون السابقون

من نعم الله تبارك وتعالى على هذه الأمة أن جعلها الآخرة زماناً، الأولى منزلة وفضلاً، فهي وإن تأخر وجودها في الدنيا عن الأمم الماضية، فهي سابقة لهم في الآخرة، بأنها أول من يحشر وأول من يجاسب وأول من يقضى بينها وأول من يدخل الجنة<sup>(١)</sup>.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله، فالناس لنا فيه تبع: اليهود غداً والنصارى بعد غد»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق» وفي رواية «المقضي بينهم»<sup>(٣)</sup>.

---

(١) (موسوعة نضرة النعيم) ج ١ ص ٥٠٢، مرجع سابق.  
(٢) ابن حجر (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) ج ٢ ص ٣٥٤ حديث رقم ٨٧٦.  
(٣) مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) ج ٦ ص ٣٩٣ حديث رقم ٨٥٦، مرجع سابق.

## الخاتمة

من خلال هذا الذي قدمناه عن وسطية الإسلام ، نستطيع أن نقرر الحقائق التالية:

١ - إن الوسطية نسبة إلى الوسط ، والوسط اسم لما بين طرفي الشيء ، وهو من التوسط بين المغالي والمقصر ، فهو الحسن والفضل والأكمل والأعدل ، ويعرف التوسط بالشرع إن كانت المسألة موضوع التوسط شرعية ، وبالعرف إن كانت من العوائد ، وما يشهد به معظم عقلاء الأمة ، كالنفقات في الأفراح والمناسبات .

٢ - إن أمة الإسلام تميزت بالوسطية ، لأن أمة النصارى غلت في أنبيائهم ، وأمة اليهود قصرت في أنبيائهم ، وأمة الإسلام دون الأنبياء وفوق الأمم الأخرى ، فلم تغل غلو النصارى ، ولم تقصر تقصير اليهود .

٣ - إن الوسطية لا يفهم منها أنها تنحصر في الوسط المادي باعتبارها موقفا بين طرفين ، وإنما هي أعم من ذلك وأشمل ، فهي تشمل جميع جوانب الحياة . ومنها جملة المحاسن والفضائل والعادات والتقاليد التي جرت عليها سنة الله في خلقه ، فهذا هو الحق ، وهذه هي الحقيقة التي لا يتعارض فيها النقل والعقل البتة .

٤ - إن الصراط المستقيم الذي يطلبه المسلم من ربه هو الطريق المستقيم الواضح الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، وإن وصف الصراط بالاستقامة يجعلنا في مواجهة الوسطية فيما يهدينا إليه السياق القرآني في استخدام أصل المادة اللغوي - ق . و . م - ومشتقاتها ، وكلها ترجع إلى الطريق المعتدل المستقيم .

- ٥ - إن معيار الوسط يتمثل في أمور أهمها:
- أن يكون الحكم بالوسط داخلاً تحت أصل من أصول الدين الإسلامي، أي من كلياته ومبادئه العامة، بحيث لا يخرج عن جوهر هذه الكليات والمبادئ العامة.
- أن يكون الحكم بالوسط في أمر لا يعارض ما هو معلوم من الدين بالضرورة .
- أن يكون الحكم بالوسط في أمر يحقق مصلحة معتبرة شرعاً .
- أن يكون الحكم بالوسط في أمر لم ينص على وسطيته الشرع .
- أن يكون الحكم بالوسط في أمر لا يؤدي إلى دفع مفسدة وإلا كان الحكم لدفع المفسدة.
- أن يكون الحكم بالوسط مما يعالج مصلحة عامة دائمة وليست آنية .
- ٦ - إن الانحراف عن مركز الوسطية يمتهن أو يسره للقدر المعتبر شرعاً في أمر من الأمور الدينية ، يعتبر غلواً، والغلو مذموم شرعاً .
- ٧ - أن التطرف المعاصر لا يخرج عن كونه مجاوزة الاعتدال في الفكر والسلوك من خلال تبني أفكار دينية واجتماعية وسياسية يتجاوز مداها الحدود التي ارتضاها المجتمع ، وهو مذموم شرعاً أيضاً .
- ٨ - أن النصوص الشرعية تدعو إلى الاعتدال، وتحذر من التطرف الذي يعبر عنه بلسان الشرع بالغلو والتنطع والتشديد حتى ولو كان في العبادة فهو مذموم، فإن التيسير والتسهيل والتخفيف مطلوب بنص الشارع .
- ٩ - أن من التطرف الديني التزام التشديد دائماً، مع قيام موجبات التيسير - وإلزام الآخرين به - حيث لم يلزمهم الله به .

١٠ - أن الغلظة في التعامل، والخشونة في الأسلوب، والفظاظة في الدعوة، خلافا لهداية الله تعالى وهدى رسوله ﷺ.

١١ - أن سوء الظن بالآخرين، والنظر إليهم من خلال منظار أسود. يخفى حسناتهم، على حين يضحخ سيئاتهم، خلاف هدى الإسلام، وتعاليمه السمحة التي تحض على حسن الظن بالآخرين، والحب لهم كما يجب لنفسه.

١٢ - إن الذين يسارعون إلى سوء الظن والالتهام لأدنى سبب، ليجعلوا من أخطاءهم ولائهم أو قادتهم أو زملائهم خطيئة لا تغتفر، ومن الخطيئة كفرا، لمنحرفون عن سواء السبيل، وخارجون عن الصراط المستقيم.

١٣ - إن التعاليم الإسلامية تحذر أشد التحذير، من سوء الظن بالله تعالى، وسوء الظن بالناس، فكيف بالولاية والحكام الذين أمر الله تعالى بطاعتهم وعدم الخروج عليهم.

١٤ - إن كثيرا من الجماعات اليوم، تتهم الآخرين بالخروج من الإسلام، فتسقط عصمتهم، وتستبيح دماءهم وأموالهم، ولا ترى لهم حرمة ولا ذمة، فمثل هذه الأحكام لم يقل بها عاقل مسلم لا في القديم ولا في الحديث.

١٥ - إن الإسلام بتعاليمه السمحة لا يجنح إلى المثالية الخيالية، لأنها ضرب من ضروب المحال، وتكليف للنفس بما لا تطيق، كما أنه لا يميل إلى الواقعية المترتبة؛ لأن فيها عزوفا عن المثل العليا، ولأنها تطبع النفس بطابع التزمت الممقوت، وإنما يقف وسطا، فهو يأخذ من المثالية ما تستوعبه من المثل العليا. ومن الواقعية ما تتضمنه من حزم وعدل.

١٦- إن الإسلام يدعو إلى تصافح وتسامح وتواضع ، وتسابق إلى الأفضل والإيثار ، قبول القليل ، وبذل الكثير مع الناس جميعا ، محبة ورحمة وتخلقا بأخلاق الإسلام ، أخذاً بمبدأ الفضيلة الإنسانية التي كرمها الله على سائر مخلوقاته.

١٧- إن الوسطية في الإسلام محدودة في مجال لا تتعداه ، وقد لفت القرآن الكريم أنظار الناس بالإشارة إلى الظواهر الطبيعية حولهم ، وما تحويه من كل زوج بهيج . وإن كل واحد من هذه الزوجية لا يستغني عن الآخر ، وآيات الزوجية فضلا عما فيها من عظات وعبر ، وتدبر وتفكر ، ولفت أنظار العقل لما سخره الله للإنسان ليجد ويجتهد في اعمار هذا الكون ، فهي أيضاً تذكر بنعم الله تعالى على الإنسان ، ومنه يتقرر أن حدود الوسطية عالم البشر ، عالم الزوج ، فما دام هناك شيء وما يقابله ، خيار بين أمرين ، فهنا ترد الوسطية ، أما الأوامر والنواهي التي تصدر من الله تعالى فلا مجال للوسطية فيها .

١٨- إن مجالات الوسطية في الإسلام كثيرة ومتعددة ، ومتنوعة وفق مقتضيات التشريع الإسلامي ، وحاجات الإنسان ، سواء في مجال الجانب الفكري للإنسان أو الجانب التطبيقي لمنهج الله تعالى وهو الصراط المستقيم ، الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه . والذي جمع بين العلم والعمل .

١٩- إن منهج الإسلام للبشرية هو أمثل المناهج وأعدلها وأوسطها بين المناهج الأخرى كمنهج اليهود ، ومنهج النصارى ، فهما سبيلان منحرفان . ثم إن منهج الإسلام اتخذ أساليب عديدة في التعامل مع الناس ، فمنه أسلوب الحوار والجدل ، والأسلوب التلقيني ، وأسلوب الاستفهام الإنكاري ، وأسلوب التكرار وأسلوب

الترغيب والترهيب ، وأسلوب التحدي والتهكم ، وأسلوب الدعوة إلى النظر والتفكير والتدبير .

٢٠- تميز الدين الإسلامي بوضوح العقيدة وسهولة الإيمان بالله تعالى، فلا وساطة بين العباد وخالقهم ، ولا شركاء معه ، فليس في العقيدة الإسلامية ألغاز لا يعرفها إلا فئة من البشر كالأخبار والرهبان ، وليس فيها غموض وغبش كما في العقائد الأخرى من تجزئة الواحد إلى ثلاثة، وليس فيها استهانة بالعقل الإنساني ليعبد أحجاراً وأشخاصاً وحيوانات ونحو ذلك. وليس فيها من التغيير والتحريف والتبديل كما هو في العقائد الأخرى.

٢١- إن التصور البشري لكثير من الناس لقضايا الألوهية والكون والإنسان يقوم على أساس مادي بحث باعتبار أن المادة هي الشيء الوحيد الأصيل في هذا الكون، وأن كل ما في الكون منبثق من المادة، ومحكوم بقوانين المادة، ولا وجود له خارج المادة، كما يقوم هذا التصور على أساس التناقض في طبيعة المادة، ومن ثم كل ما ينبثق عنها من مخلوقات، فهو كيان مادي من جهة، ومحكوم بصراع التناقضات من جهة أخرى. وكل هذه التصورات باطلة، ولا أساس لها من العقل أو النقل .

٢٢- إن المنهج الإسلامي في تصوره للكون وللحياة وللإنسان تميز عن سائر المناهج والتصورات البشرية الأخرى ، حيث يقوم التصور الإسلامي على أساس أن هناك ألوهية وعبودية، فهناك وجودان متميزان، وجود الله تعالى، ووجود ما عداه من مخلوقاته ، والعلاقة بين الوجودين هي علاقة الخالق بالمخلوق ، والإله بالعبيد .

٢٣- تتحقق وسطية الإسلام في مجالات كثيرة، ومنها التشريع الذي سنه للناس رب الناس، فقد جاء في حدود قدرة النفس البشرية، ودون عناء أو مشقة، ودون تكلف أو حرج فلم يكلف عباده المؤمنين إلا في حدود القدرة والاستطاعة وهذا معنى الوسطية في التشريع .

٢٤- وفي مجال السياسة فقد منحت الشريعة الإسلامية ولاية الأمور لصلاحيات واسعة في أن يعملوا ما تقضي به المصلحة مما لا يخالف أصول الدين، وقواعده العامة . وهذا هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه . وتلك هي وسطية الإسلام .

٢٥- إنه من المسلمات العقلية أن يكون الرأي الذي يصدر عن الجماعة بعد التشاور أكثر ملاءمة للواقع الذي يراد أخذ الرأي فيه . فالشورى فيها سنة الرحمة واللين والابتعاد عن الفظاظة والغلظة، وفيها العفو عن الزلات والهفوات . لذا حث الإسلام على الأخذ بها في مختلف المجالات، لا سيما في نظام الحكم .

٢٦- يسود عالمنا المعاصر مذهبان اقتصاديان، مذهب رأسمالي يتمثل في النظام الغربي الذي يركز على مصلحة الفرد، ومذهب اشتراكي يتمثل في النظام الاشتراكي، الذي يركز على مصلحة الدولة . وكلاهما فيهما من المساوي ما يثقل كاهل البشرية . أما النظام الاقتصادي الإسلامي فقد جاء متفقا مع الطباع الإنسانية ومقررا لمصالح كل من الفرد والمجتمع في آن واحد، فهو لا يبيح الحرية الاقتصادية على الإطلاق، ولا يمنعها البتة، وإنما يبيحها بضوابط تكفل حقوق الجميع ومصالح الجميع .

٢٧- إن الضوابط التي تسود في الأوساط الاجتماعية تتفاوت من قبل مختلف المجتمعات البشرية بتفاوت الفلسفة التي يقوم عليها هذا

التنظيم وذاك، ومعلوم أن النظام الرأسمالي ، والنظام الشيوعي - الاشتراكي - رغم البون الشاسع بينهما ، فإنهما يجتمعان في بوتقة جامعة هي الفلسفة العلمانية، والاختلاف الظاهر بينهما إنما هو في الأسلوب فقط القائم على الفكر الاعتقادي لهذه المجتمعات، والنظام الاجتماعي في الإسلام يقوم على أساس العقيدة الإسلامية التي ترعى الجميع، وتفتح للجميع، وتحمي الجميع وتسوي بين الجميع، وتكفل مصالح الجميع، وتلك هي العدالة الاجتماعية التي تربط بين أبناء المجتمع وتجعل التمايز بين الناس إنما هو بالتقوى والعمل الصالح لا غير .

٢٨ - إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من سمات أمة الإسلام وبه تميزت عن سائر الأمم، وجعلها الله خير الأمم بقيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن استمرار خيريتها مرهون باستمرار قيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى الوجه المشروع دون إفراط أو تفريط.

٢٩ - إن نظام العبادة في الإسلام يسع الحياة كلها في كل ميادينها، فهو يشمل ما بين الإنسان وربه من حقوق، وما بين الإنسان والناس من حقوق وعلاقات، وما بين الإنسان ونفسه، حيث ليس للإنسان الانقطاع عن الأعمال للتفرغ للعبادة كما يفعل الرهبان . والعبادات في الإسلام لا يغلب عليها الشدة كما في التوراة، ولا يغلب عليها اللين كما في الإنجيل ، وإنما هي وسط معتدلة جامعة بين هذا وهذا.

٣٠ - إن للعبادة في الإسلام سمات وخصائص تميزت بها، منها ارتباطها بالقاعدة الإيمانية، وعمقها في النفس الإنسانية وكونها استجابة قلبية ونفسية فطرية أخلاقية للتصورات الإيمانية، وهي خالصة لله.

تشتمل على مصالح عظيمة للأفراد والجماعات، وهي يسيرة وقليلة ولا وساطة فيها بين العبد وربّه.

٣١- تتضح وسطية الإسلام في العبادات في تحريم الإسلام تعذيب الجسم، والانقطاع للعبادة، فإن ذلك يخالف فطرة الإنسان التي فطره الله عليها.

٣٢- إن أصل الولاء المحبة والقرب، وأصل العداوة البغض والبعد، فالولاء والبراء تابعان للحب والقرب، والبغض والبعد، وأصل الإيمان أن تحب في الله أنبياءه وأتباعهم، وتبغض في الله أعداءه وأعداء رسله.

٣٣- إن البراءة لا تستلزم بالضرورة إعلان الكراهية والبغض للكافرين مطلقاً، وإنما هي خاصة بالكافرين المعادين والمتصفين بخيانة العهد والاستكبار.

٣٤- إن انعدام الولاء لا يعني بالضرورة البراءة، فالأمر ليس إما ولاء وإما براء، ولكن هناك حالة حيادية بينهما، فإن الولاء قد يكون محموداً وقد يكون مذموماً، والبراء كذلك. فالولاء لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين محمود، والولاء لأعداء الإسلام والمسلمين فمذموم، والبراء من أعداء الإسلام والمسلمين محمود والبراء من الله ورسوله والمؤمنين فمذموم. أما المحايدون والمساندون للمسلمين من الكفار فيمكن منحهم شيئاً من الولاء في الأمور الدنيوية، ومنحهم كذلك شيئاً من المحبة.

٣٥- أنه لا تلازم بين موادة الكفار والتعامل معهم في بيع وشراء ومعاهدتهم، وحسن عشرتهم، ونحو ذلك، فالبر للكفار والصلة والإحسان لا يستلزم التحابب والتوادد المنهي عنه.

٣٦- إن التعامل مع الكفار والاختلاط بهم، والبر بهم والعدل معهم لا بأس به للمصلحة شريطة أن لا يكون على إطلاقه، بل وفق ضوابط وحدود، كعدم وجود منكر في هذا التعامل وهذا الاختلاط، وبغض

ما هم عليه من الكفر والشرك، وهذا لا يستلزم إيذاءهم أو غشهم .  
٣٧- إن الولاء لغير المسلمين شيء والمعاملة بالحسنى شيء آخر فالموالاة  
المتثلة في الحب والنصرة شيء ، والصلة ، والتعامل والعدل شيء  
آخر ، وهذا لا يلغي هذا .

٣٨- إن ولاية الكافر أو وصايته على المسلم مرفوضة في الإسلام لأن  
غير المسلم غير مهياً ولا مؤهل لذلك ، ولأن الرجاء والخوف  
يجب أن يكون خالصاً لله وحده ، فالولاء العام يجب أن يكون لله  
وللمؤمنين فقط .

٣٩- إن الذين يعادون الإسلام ، أو يسخرون منه ، أو يهزءون به لا  
يجوز أن يكونوا أولياء للمسلمين .

٤٠- إن اتخاذ غير المسلمين أولياء على المسلمين من باب التفضيل  
مرفوض في نظر الإسلام ، وكذا طاعتهم في اتباع أهوائهم  
وأغراضهم ، فمنهي عنه أيضاً .

٤١- إن من مظاهر وسطية الإسلام في الحياة العامة، التوسط والاعتدال  
في سائر التعاملات المالية وغير المالية، وكفالة الدولة لجميع رعاياها،  
وتأمين الأمن والاستقرار لهم، ورعايتهم جميعاً دون فوارق بين هذا  
وذاك، والعدل في التعامل حتى مع غير المسلمين، والتوسط في سائر  
التصرفات، لأنه الطريق المستقيم الذي يطلبه المؤمنون في اليوم خمس  
مرات ( اهدنا الصراط المستقيم).

٤٢- إن وسطية الإسلام هي الطريق الوسط بين طريقتين متطرفين،  
وهي تتحقق في جميع جوانب الحياة الإنسانية، ونواحي المجتمع على  
اختلاف أزمنته وأمكنته، وهي الصراط المستقيم .

٤٣ - إن أمة الإسلام إنما نالت الخيرية والأفضلية على الأمم الأخرى، كما خصت بالرواية والإسناد الذي يميزه بين الصدق والكذب، لقيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإيمانها بالله تعالى، وقيامها بما أوجبه الله عليها من التزام الطاعات، واجتناب المنهيات.

٤٤ - إن أمة الإسلام بوسطيتها في الاعتقاد والتصور والسلوك وفي سائر العبادات والمعاملات، وجميع جوانب الحياة فإنها بذلك نالت الفضل العظيم في الدنيا والآخرة، ومن الفضل في الدنيا الرزق، والتجاوز بالعفو عن السيئات وتأخير العذاب، والظفر والغنيمة، وقبول التوبة والإنابة وزيادة الثواب والكرامة، وما إلى ذلك من الفضائل.

٤٥ - إن من الفضائل التي تميزت بها أمة الإسلام، حل الغنائم لها، واعتبار الأرض مسجداً وطهوراً لها، ووضع الآصار والأغلال عنها، وتخصيص يوم الجمعة لها، والتجاوز عن الخطأ والنسيان والحفظ من الهلاك، وعدم اجتماعها على الضلالة، والاعتدال والاستقامة في صفوف الصلاة، والتأييد وحفظ الذكر لها.

٤٦ - إن من الفضائل التي نالتها أمة الإسلام في الآخرة، أن المسلمين يأتون يوم القيامة غراً محجلين، وقبول شهادتهم على الأمم الأخرى، والسبق في اجتياز الصراط، ودخول الجنة، والعمل القليل والأجر الكثير وأنها أكثر الأمم في الجنة، وأنهم الآخرون في الدنيا السابقون في الآخرة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

## التوصيات

يوصي الباحث فضلا عما ورد في الخاتمة بمايلي:

١ - أن توحد الأمة الإسلامية، صفوفها وجهودها، وتعمل على تحقيق مصالح الدين والدنيا والآخرة، وأن تسمو فوق خلافاتها حتى تستطيع مواجهة الهجمة الشرسة الموجهة إليها من قبل المجتمعات الأخرى، لأن هذه الهجمة لا تفرق بين دولة وأخرى، ولا بين حاكم ومحكوم، أو بين هذا المجتمع وذاك، فهي موجهة لجميع الأمة الإسلامية، وموروثها الحضاري، فإن الذي تنفق عليه الدول الإسلامية أكثر مما تختلف فيه .

٢ - على المجتمعات الإسلامية أن تتعاون فيما اتفقت عليه، وتتحاور فيما اختلفت فيه، وبذلك تستطيع أن تصد الهجمة الشرسة عن الأمة الإسلامية .

٣ - يجب أن يكون الخطاب الديني متناسبا وحاجات الإنسان، ومتغيرات الظروف والأحوال والأزمان، فلا هو مع الغالين ولا هو مع المجافين، فعلى الأمة الإسلامية أن تستوعب الوسطية من خلال الواقع الذي تعيش فيه .

٤ - تعديل مناهج التعليم بما يتفق وواقع العصر ومتغيراته وذلك في كافة المستويات التعليمية بما يربي الأجيال القادمة على روح التسامح والمودة والمحبة للآخرين، وطاعة ولاة الأمور، والحوار البناء، وتقبل الرأي الآخر، ونبذ التعصب والتشدد والعنف والجمود .

٥ - تبني سياسات إعلامية تعمق فكرة الوسطية في النفوس وترغب الناس فيها وتنفرهم من التطرف والتعصب والتشدد، بحيث يكون

المسلمون وخاصة العلماء والدعاة مثالا يقتدى بهم في المعاملة والسلوك وفي الأقوال والأفعال .

٦- فتح باب المناظرة العلمية الهادئة الهادفة، والأخذ بمبدأ الحوار العلمي البناء المنتج، واحترام المخالفين وآراءهم ما داموا في دائرة الإسلام الكبرى، وتقبل الرأي الآخر، والمناقشة والحوار بالإقناع والاقتناع، والممارسة العملية الواقعية لمنهج الوسطية من قبل العلماء والدعاة ومن يعينهم الأمر .

٧- تفعيل دور التسامح مع غير المسلمين الذين يعيشون بيننا مؤقنا وتحمل مسؤولية كبيرة تجاههم ليحملوا صورة مثلى عن الإسلام حين عودتهم إلى بلادهم، فالأصل في الإسلام الرفق واللين والتسامح والتيسير .

٨- لزوم اعتماد فقه العصر المتجدد المرن المسير لكل زمان ومكان، والوقوف على منهج الإسلام الصحيح، فإن أهم أسباب نشوء جماعات العنف هو الجهل في حقيقة وسطية الإسلام التي تتسق والفطرة الإنسانية السليمة، فإن وسطية الإسلام متكاملة واضحة، وفريدة من نوعها، وكل ما علينا كمسلمين أن نقدمها نقية واضحة للعالم الجائع المتعطش للتائه. البعيد عن المعرفة السليمة لطبيعة وأهداف الدين الإسلامي.

## المصادر والمراجع

ابن الأثير أبو السعادات المبارك بن محمد، (١٤٠٣هـ)، جامع الأصول من أحاديث الرسول، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ويوسف الشيخ، دار الفكر، بيروت.

\_\_\_\_\_ النهاية في غريب الحديث والأثر (د.ت)، تحقيق الراوي، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة.

ابن الأثير علي بن محمد (١٤٠٣هـ)، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت .

ابن العربي أبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد (١٣٩٢هـ)، أحكام القرآن، تحقيق علي محمد البجادي، مطبعة البجاوي الحلبي.

ابن القيم الجوزية شمس الدين محمد أبو أبي بكر (١٤٠٧هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت.

\_\_\_\_\_ إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، دار المعرفة، بيروت، (ب.ت).

\_\_\_\_\_ الفوائد، تخريج أحمد عرموشي، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٢هـ  
\_\_\_\_\_ الطرق الحكمية، مطبعة الاداب والمؤيد، (د.ت).

\_\_\_\_\_ مدارج السالكين، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٢م .

\_\_\_\_\_ أحكام أهل الذمة، تحقيق صبحي الصالح، دار العلم، ١٤٠١هـ.

\_\_\_\_\_ مفتاح دار السعادة، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

ابن تيمية أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم (١٣٩٦هـ)، الأمر  
بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار  
الكتاب الجديد، ط ١ بيروت.

\_\_\_\_\_ مناهج السنة النبوية، تحقيق محمد رشاد سالم، ١٤٠٩هـ.

\_\_\_\_\_ الوسطية، جمع وترتيب عبد السلام محمد عبد الكريم، دار  
الفتوح الإسلامية، ط ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

\_\_\_\_\_ مجموع الفتاوى، الرياض، ١٣٨١هـ.

\_\_\_\_\_ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق  
وتعليق، ناصر العقل، ١٤٠٤هـ.

ابن عاشور محمد الطاهر بن عاشور (١٩٨٤م)، تفسير التحرير والتنوير،  
الدار التونسية للنشر والتوزيع.

ابن مسكويه (١٩٦٦م)، تهذيب الأخلاق، مطبعة سليم، بيروت.

أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، المهذب في فقه الإمام  
الشافعي، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي الشهير بالشاطبي  
(١٤٠٥هـ)، الاعتصام، دار المعرفة، بيروت.

\_\_\_\_\_ الموافقات من أصول الأحكام، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح  
بالقاهرة، (د.ت).

أبو الأعلى المودودي (د.ت)، حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية، دار  
الفكر، بيروت.

أبو الحسن أحمد بن فارس (١٩٦٩م)، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار إحياء الكتب العربية ، ط ١ ، القاهرة .

أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي، (د.ت) الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

\_\_\_\_\_ أدب الدنيا والدين، تحقيق مصطفى السقا، دار الريان للتراث، ط ١ ، بيروت ، ١٤٠١هـ - ١٩٧٨م .

أبو الحسين مسلم بن حجاج بن مسلم النيسابوري (١٣٧٤هـ)، صحيح مسلم بشرح النووي ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية .

أبو العباس أحمد ابن إدريس القرافي (د.ت)، الفروق ، دار عالم الكتب، بيروت .

أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير (د.ت)، تفسير القرآن العظيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

\_\_\_\_\_ البداية والنهاية، طبعة هجر، القاهرة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

\_\_\_\_\_ السيرة النبوية، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٦هـ .

أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي القرشي البغدادي (١٤٠٧هـ)، زاد المسير في علم التفسير ، المكتب الإسلامي ، دمشق وبيروت .

أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (١٤٢٤هـ)، لسان العرب، دار عالم الكتب، الرياض .

أبو القاسم حسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (د.ت)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

\_\_\_\_\_ الذريعة إلى مكارم الشريعة، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.

أبو القاسم علي بن محمد السماني (١٩٧٣)، روضة القضاة، مطبعة الإرشاد، بغداد.

أبو القاسم محمود بن عبد عمر الزمخشري (١٩٨٥)، أساس البلاغة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

\_\_\_\_\_ الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي بيروت، (د.ت).

أبو الوليد، سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الباجي (١٣٢٢ هـ)، المنتقى (شرح موطأ مالك)، مطبعة السعادة، مصر، ط ١.

أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (١٣٥٤ هـ)، السنن الكبرى، دائرة المعارف العثمانية، الهند.

\_\_\_\_\_ دلائل النبوة، تحقيق قلنجي، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٠٥ هـ.

أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (١٤٠٣ هـ)، المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط ٢، المكتبة الإسلامية، بيروت.

أبو بكر عبد الله بن أبي شيبه (١٤٢٥ هـ)، المصنف، مكتبة الرشد ناشرون، ط ١، ١٤٢٥ هـ.

أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة (د.ت)، صحيح ابن خزيمة، تحقيق  
الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت.  
أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (١٣٨٦هـ)، تفسير التبيان، مكتبة  
الأمين، بغداد.

أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري (١٤٠٥هـ)، جامع البيان عن  
تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، ومطبعة الحلبي القاهرة  
(١٣٨٨هـ).

\_\_\_\_\_ تاريخ الأمم والملوك، دار السويدان، بيروت، بدون.  
أبو حامد الغزالي (١٩٨٧)، إحياء علوم الدين، دار الشعب، مصر،  
١٩٨٧م.

\_\_\_\_\_ ميزان العمل، تحقيق سلمان دنيا، دار المعارف بمصر، بدون.  
أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (د.ت)، سنن أبي داود، دار الكتب  
العلمية بيروت.

أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (١٤٢٣هـ)، رياض الصالحين، اعتنى به  
عبد الله التركي.

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري القرطبي (١٤١٧هـ)،  
الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت.

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٤٠٧هـ)، صحيح البخاري، دار  
ابن كثير، دمشق.

أبو عبد الله محمد بن عثمان التركماني الذهبي (د.ت)، تذكرة الحفاظ، دار  
إحياء التراث العربي، بيروت.

أبو عبيد القاسم ابن سلام (١٣٨٨هـ) الأموال ، تحقيق خليل هراس ،  
الكليات الأزهرية ودار الفكر بيروت .

أبو عمر يوسف ابن عبد البر (١٣٩٨هـ) ، جامع بيان العلم وفضله ، دار  
الكتب العلمية بيروت .

أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (١٤٠٣هـ) ، الجامع الصحيح ،  
دار الفكر ، بيروت .

أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (١٤٠٠هـ) ، شرح السنة ، تحقيق  
زهير الشاويش وشعيب الأرنؤوط .

أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة (د.ت) ، روضة الناظر وجنة المناظر ،  
المطبعة السلفية .

\_\_\_\_\_ المغني ، تحقيق طه الزيني ، ١٣٠٩هـ ، القاهرة .

\_\_\_\_\_ الاستقامة ، تحقيق سيف نصر ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ١٤٢١هـ  
- ٢٠٠٠م .

أبو محمد عبد الله بن بهران الدارمي (د.ت) ، سنن الدارمي ، دار الفكر ،  
بيروت .

أبو محمد عبد الملك بن هشام (د.ت) السيرة النبوية ، مكتبة الكليات الأزهرية  
بالقاهرة .

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (١٣٩٢هـ) ، المحلى ، مكتبة  
الجمهورية مصر .

أبو يعلى محمد بن الحسن الفراء (د.ت) ، الأحكام السلطانية والولايات  
الدينية ، مطبعة الحلبي ، مصر .

أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (١٣٨٢هـ)، الخراج ، المطبعة السلفية  
ومكتبتها ، ط ٢ ، القاهرة.

أحمد أمين (١٣٤٨هـ)، الأخلاق، دار الكتب المصرية .

أحمد بن شعيب النسائي (د.ت) سنن النسائي ، دار الفكر بيروت .

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (د.ت) فتح الباري بشرح صحيح البخاري،  
تصحيح الشيخ ابن باز ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض .

\_\_\_\_\_ الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتاب العربي، بيروت، دون.

أحمد بن محمد بن حنبل (١٣٩٨هـ)، المسند ، المكتب الإسلامي، دمشق .

أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (د.ت)، فتوح البلدان ، مكتبة النهضة  
المصرية.

أحمد محمد الفيومي (د.ت)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، تصحيح  
مصطفى السقا ، المكتبة العلمية بيروت.

إدوارد غالي الذهبي (١٩٩٣)، معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي،  
مكتبة غريب، مصر .

أنوار جواد المظفر (١٤٠٦هـ)، التربية الأخلاقية في القصة القرآنية ، رسالة  
ماجستير من كلية الشريعة بغداد .

تاج الدين السبكي (١٣٢٤هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، المطبعة الحسينية،  
القاهرة.

توفيق الطويل (١٩٧٦)، فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها، دار وهران  
للطباعة والنشر، وهران ، ط ٣ .

توماس أرنولد (١٩٦٨)، الدعوى الى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم  
وآخرون ، القاهرة .

جمعة الخولي (١٣٩٦هـ)، فقه الدعوة ، المكتبة التوفيقية، القاهرة .

جوستاف لوبون (١٩٥٦)، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعير ، ط ٣ ، دار  
إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

حامد سليمان (١٩٨٨)، من القبطية إلى الإسلام .

حسين ندا حسين (١٤٠٣هـ)، الإسلام والقانون الدولي الإنساني ، رسالة  
دكتوراه ، جامعة بغداد .

خالد عبد القاسم (١٤١٤هـ)، الحوار مع أهل الكتاب ، دار المسلم ،  
الرياض .

زيد بن عبد الكريم الزيد (١٤١٢هـ)، الحكمة في الدعوة الى الله ، دار  
العاصمة الرياض .

\_\_\_\_\_ الوسطية في الإسلام تعريف وتطبيق ، دار العاصمة ، الرياض ،  
(١٤١٢هـ) .

زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن أحمد بن رجب  
(ب.ت)، جامع العلوم والحكم ، مؤسسة الكتب الثقافية بمصر ،  
توزيع دار الإفتاء السعودية .

سعيد إسماعيل (١٤٢٠هـ)، حقيقة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين ،  
مؤسسة الرسالة، ط ١ ، بيروت .

سيد قطب (١٩٨٦)، في ظلال القرآن ، دار العلم للطباعة والنشر ، جدة .

\_\_\_\_\_ خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشروق، القاهرة،  
(١٤٠٦هـ).

شهاب الدين السيد محمود الألوسي (١٤٠٥هـ)، روح المعاني في تفسير  
القرآن العظيم والسبع الثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت،  
المطبعة الأميرية بمصر .

شوكت محمد عليان (١٤١٦هـ)، دراسات في الحضارة الإسلامية، دار الشواف.  
\_\_\_\_\_ النظام الاقتصادي في الإسلام، مطبعة النرجس، الرياض،  
(١٤٢١هـ).

\_\_\_\_\_ الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، دار الشواف، بيروت  
(١٤١٦هـ).

صالح الأزهري، جواهر الإكليل شرح مختصر خليل، دار المعرفة، بيروت،  
(د.ت).

صالح بن حميد (١٤١٢هـ)، رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، دار  
الاستقامة، الرياض، ط ٢ .

صلاح الخالدي (د.ت)، الشورى في القرآن، بحث في موسوعة الشورى في  
الإسلام، مؤسسة آل البيت، الأردن.

عبد الحميد إبراهيم (د.ت)، القرآن الكريم ومذهب الوسطية، دار طيبة  
للنشر والتوزيع، القاهرة.

عبد الحميد بن باديس (١٤١٢هـ)، الدر الغالية في آداب الدعوة والداعية،  
دار المنار، الخرج.

عبد الرحمن بدوي (١٩٧٥)، الأخلاق النظرية، وكالة المطبوعات، الكويت  
١٩٧٥ م.

عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي (١٤١٤ هـ)، الدر المنثور في  
التفسير المأثور، دار الفكر، بيروت.

\_\_\_\_\_ الخصائص الكبرى، تحقيق محمد خليل هراس، المطبعة الحديثة  
بالقاهرة، (د.ت).

عبد الرحمن بن محمد بن سليمان أفندي داماد المدعو بشيخي زاده (١٣١٧ هـ)،  
مجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

عبد الرحمن بن معلا اللويحق (د.ت)، الغلو في الدين في حياة المسلمين  
المعاصرة، مؤسسة الرسالة، بيروت.

عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٨٣ هـ)، الفتاوى السعدية، الرياض.

عبد الرحمن تاج (١٩٥٣)، السياسة الشرعية والفقهاء الإسلاميين، مصر، ط ١.

عبد الرحمن عبد الخالق (١٩٨٨)، الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي،  
دار السلفية، الكويت، ط ٢.

عبد العزيز بن باز (د.ت)، مجموع الفتاوى، توزيع دار الإفتاء السعودية  
بالرياض (د.ت).

عبد الكريم زيدان (١٤١٠ هـ)، أصول الدعوة، مكتبة المنار الإسلامية،  
بيروت.

عبد الله الزهراني (١٤٢٠ هـ)، الوسطية في التربية الإسلامية، رسالة دكتوراه  
في الأصول الإسلامية للتربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

عبد الله الطريقي (١٤٠٩هـ)، الاستعانة بغير المسلمين في الفقه الإسلامي، الرياض.

عبد الله اللحيان (١٤٢٠هـ)، دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، الرياض.

عبد الوهاب خلاف (١٩٤٢)، تاريخ التشريع الإسلامي، القاهرة.

عز الدين بن عبد السلام (١٣٨٨هـ)، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، مكتبة الكليات الأزهرية بمصر.

عصام بن هاشم الجفري (١٤٢٥هـ)، الإرهاب، الأسباب والعلاج، بحث مشارك في المؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض.

عفيف طيارة (١٩٨١)، مع الأنبياء في القرآن، دار العلم للملايين، بيروت.

علي المتقي الهندي (١٣٩٩هـ)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة، بيروت.

علي بن محمد بن علي السيد الزين الجرجاني (١٣٥٧هـ)، التعريفات، مطبعة الحلبي.

علي جريشة (١٤١٠هـ)، آداب الحوار والمناظرة، دار الوفاء، المنصورة.

علي محفوظ (د.ت)، هداية المرشدين إلى طريق الوعظ والخطابة، دار المعرفة، بيروت.

عمر عودة الخطيب (١٣٩٨هـ)، المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية، مؤسسة الرسالة، بيروت.

فازيليف (د.ت)، العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادي شعيره، دار الفكر العربي، القاهرة .

فالح محمد الصغير (١٤٢٥هـ)، اليسر والسماحة في الإسلام بحث مشارك في المؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض .

فخر الدين الرازي (د.ت)، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣.

فهيمي هويدي (١٩٨٥)، مواطنون لا ذميون، القاهرة .  
قحطان الدوري (١٩٧٤)، الشورى بين النظرية والتطبيق، مطبعة الأمة، بغداد .

مالك ابن أنس (٢٠٠٥)، الموطأ، موسوعة شروح الموطأ، طبعة على نفقة الأمير نايف بن عبد العزيز، القاهرة، مطابع هجر .

مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي (١٣٣٠هـ) القاموس المحيط، مطبعة السعادة بمصر .

\_\_\_\_\_ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المكتبة العلمية، بيروت، (د.ت) .

مجموعة من المؤلفين (١٤١٨هـ)، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة .

محمد أبو زهرة (د.ت)، مذكرة دراسية، كلية الحقوق جامعة القاهرة .

\_\_\_\_\_ أصول الفقه، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت) .

\_\_\_\_\_ العلاقات الدولية في الإسلام ، الدار القومية للطباعة والنشر ،  
القاهرة ، ( ١٣٨٤ هـ ) .

\_\_\_\_\_ المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ، دار الفكر ، بيروت ، ( د.ت ) .

محمد الخضر الحسين ( د.ت ) ، الحرية في الإسلام ، دار الاعتصام مصر .

محمد الطاهر بن عاشور ( د.ت ) ، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ،  
الشركة التونسية للتوزيع .

محمد المبارك ( ١٩٧٤ ) ، نظام الإسلام - الاقتصاد .

محمد بن أبي بكر الرازي ( ١٤٠٣ هـ ) ، مختار الصحاح ، دار الكتب العلمية بيروت .

محمد بن إدريس الشافعي ( د.ت ) ، الأم مطبعة الشعب ، مصر .

محمد بن إسماعيل الصنعاني ( ١٩٥٠ ) ، سبل السلام شرح بلوغ المرام ، مطبعة  
الخلبي .

محمد بن الحسن الشيباني ( ١٩٧١ ) ، السير الكبير بشرح السرخسي ، تحقيق  
صلاح الدين المنجد ، شركة الاعلانات الشرقية .

محمد بن عبد الرحمن السخاوي ( ١٤٠٥ هـ ) ، المقاصد الحسنة ، تحقيق محمد  
عثمان الخشت ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

محمد بن عبد الله بن محمد حموديه بن نعيم النيسابوري ( د.ت ) ، المستدرك على  
الصحيحين ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

محمد بن علان ( د.ت ) ، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، دار الفكر ،  
بيروت .

محمد بن يزيد القزويني ( ابن ماجه ) ( ١٩٥٣ ) ، سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد

فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

محمد جمال الدين القاسمي (١٣٩٨هـ)، محاسن التأويل ، دار الفكر ، بيروت .

محمد رشيد رضا (د.ت)، تفسير المنار، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .

محمد زياد عمر (د.ت)، البحث العلمي مناهجه وتقنياته ، دار الشروق ،

جدة .

محمد سعيد رمضان البوطي (د.ت)، خصائص الشورى ومقوماتها، بحث

في موسوعة الشورى في الإسلام، مؤسسة آل البيت، الأردن .

محمد عبد الله أبو النجا (١٣٨٥هـ)، أصول الفقه ، مطبعة صبيح ، القاهرة

١٣٨٥هـ .

محمد عبد الله الشيباني (١٤١١هـ)، المختار من أحاديث المصطفى في التنظيم

الاقتصادي والمالي والاجتماعي، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع،

الرياض .

محمد عبد الله دراز (١٩٧٤هـ)، الدين ، دار القلم ، الكويت .

\_\_\_\_\_ دستور الأخلاق في القرآن الكريم، دراسة مقارنة في الأخلاق

النظرية في القرآن، تعريب وتحقيق وتعليق عبد الصبور شاهين،

مؤسسة الرسالة (١٩٨٢) .

محمد عبد الهادي أبو ريده (د.ت)، تاريخ الفلسفة الإسلامي ، ط ٤ .

محمد علي الشوكاني (١٩٦١)، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، مطبعة

الخلبي بمصر .

محمد قطب (١٤٠٧هـ)، مذاهب فكرية معاصرة ، دار الشروق ، بيروت .

- محمد كرد علي (١٩٦٨)، الإسلام والحضارة العربية .
- محمد مرتضى الزبيدي (د.ت)، تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة  
الأميرية، القاهرة.
- محمد مصطفى شلبي (١٣٩٨هـ)، أصول الفقه الإسلامي، دار النهضة  
العربية، بيروت .
- محمد مهدي الزاقي (د.ت)، جامع السعادات، مطبعة النعمان بالنجف، العراق .
- مصطفى الرفاعي (١٩٩٧)، الإسلام انطلاقاً لا جموداً، مكتبة الحياة،  
بيروت.
- المفتي محمد السيد عميم الإحسان المجددي البركتي (د.ت)، التعريفات  
الفقهية، الهند .
- مقداد يلجن وآخرون (١٩٧٣)، الإتجاه الأخلاقي في الإسلام .
- \_\_\_\_\_ علم النفس التربوي في الإسلام، (١٤٠١هـ).
- نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (١٣٨٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد،  
دار الكتاب، بيروت، ط ٢.
- ياقوت الحموي (١٤٠٤هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت .
- يوسف القرضاوي (د.ت)، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، مؤسسة  
الرسالة بيروت .
- \_\_\_\_\_ (١٤١٨هـ)، الأقليات الدينية والحل الإسلامي، المكتب  
الإسلامي، بيروت، ط ٣.